المجموعة العلمية للصغار

علماء المسلمين والعرب

١ - ١٦

دار القلم العربي
للأطفال


دار القلم العربي


دار القلم العربي

جابر بن حيان

١٠٨ هـ - ٢٠٠ هـ

عالم في الكيمياء

- ١ -

اسمه ونسبه

أبو موسى جابرُ بنُ حيـان بـن عبـدِ ا لله الأزدي ينتمـي إلى قبيلـة الأزد باليمن وهي قبيلة عربية .

مولده

ولد في طوس من أعمال خراسان سنة /١٠٨/ هـ .

إعدام والده

عاش والده في الكوفة في أواخرِ عصرِ بني أميـة وكـان عقّـاراً (١) وحينما بدأ العباسيونُ يطالبون بني أمية بالخلافـة شـايعهم حيـانُ وأصبـحَ من دعاةِ الدعوةِ العباسيةِ وَأخذ ينتقـلُ مـن بلـدٍ إلى آخـر مبشـراً وداعيـاً حتى وصـل إلى طـوس حيـث وُلِـدَ ابنـهُ جـابر ، وفي تلـك الأثنـاء أدركَ الأمويون الدورَ الذي يقومُ به حيانُ في بلادِ فارس فقُبِضَ عليـه وأُعـدِم ، ورجعـت عائلتـه إلى اليمـن وهنـاك ترعـرع جـابر وعندمـا اسـتولى العباسيون (٢) على الخلافة ، رجع إلى الكوفة وانخرط في حلقات التعليم التي يعقدها الإمام جعفر الصادق ثم اتصل به ولازمـه ودرس علـى يديـه

---

(١) يبيع الأدوية والعقاقير (صيدلي) . (٢) كان ذلك سنة /١٣٢/ هـ .

علومَ الفقه والتفسير ثم اتجه إلى دراسة الكيمياء حتى غدا أحـد أعلامهـا المميزين وصارت تعرف باسمه ، وكانت له حظوة (١) عند العباسيين لمـا أبلاه أبوه في خدمتهم .

نشأة الكيمياء

كان قدماء المصريين يسمون بلادهم كمت وهي تعني بلغتهم (٢) الأرض السوداء ، وقد حرّف الإغريق هذه الكلمة فجعلوها كيميا ، وفي عهد البطالسة استعمل إغريـق الإسـكندرية هـذه الكلمـة للدلالـة علـى الصناعة (٣) التي اشتهر بها المصريون من قديم الزمان .

اكتشاف الكيمياء

ولم يكن علم الكيمياء معروفـاً في أوربـا قبـل نهايـة القـرن الثـالث الميلادي إذ أن أقدم إشارة وردت بهذا الخصوص كانت في أمـر أصـدره العاهل الروماني (دقلديـانوس) سـنة /٢٩٦/ م يقضـي بـإحراق كتـب المصريين في الكيمياء .

جابر والكوفة

استوطن جابرٌ الكوفةَ ولم يرحلْ عنها فهي حاضرةُ العلمِ والمعرفـةِ وراح يشتغلُ بالعلمِ وكانَ كأبي حنيفة النعمان من تلامذة الإمـامِ جعفـر الصادق ، أخذَ عن أكابرِ العلماءِ وتصفّح أمهـات الكتـب ولا سـيما مـا

(١) حظوة : مكانة .

(٢) لغة قدماء المصريين : الهيروغليفية .

(٣) الكيمياء .

يختصُ منها بالكيمياء والسيمياء والطلسمات والسحر وتبحر في جميع أنواع العلوم والمعارف التي كانت سائدة على عهده في الأمم المختلفة ، وجَمَعها بقوةِ عقلِه وشدةِ ذكائِه وغاصَ في الصناعةِ واستخرج زبدتَها وألفَ في الكيمياءِ التآليفَ التي لم يسبقْه أحدٌ إليها وبحثَ في النجومِ والنباتاتِ وسائرِ العلومِ الطبيعيةِ حتى بلغَ عددُ مؤلفاتِه ما يزيدُ على خمسمائةِ رسالةٍ وقال ابن خلدون : (لجابر بن حيان في الكيمياء سبعونَ رسالةً وضعَها أثناءَ البحثِ فيها وأسماها بالرسائِل السبعينيةِ وأثنى ابنُ سينا والرازي وغيرُهما من أهلِ العلمِ والمعرفةِ على جابرٍ وعدّوه إماماً في الطبيعيات وكُتبُهُ شبيهةٌ بالألغازِ كسائرِ الكتبِ في هذا العلم وزعموا أنه لايفتحُ مُغْلَقَها إلا مِن أحاطَ علماً بجميع ما فيها لتوقفِ فهمِ الرسائِل بعضِها على بعض كمسائِل الهندسةِ التي لايُفْهم أعلاها إلا بعد معرفةِ المقدماتِ والمسائل الابتدائية ، غير أن هذه الألغازَ في الكيمياء مقصورةٌ في كتب جابر خاصةً لحجبِ فهمِها على العمومِ ، وأوصى جابرٌ بتعلمِ النجومِ وزعم أن هذا العلمَ لابد منه في هذه الصناعة وبحث فيها أيضاً في علمِ أسرارِ الحروفِ ورتب الجداولَ في بيان أعدادِها وبيان خواصِها وطار ذكرُ ابنِ حيانَ في العالم فأصبحتْ شهرتُه في أوربا أكثرَ من شهرتِه في العالمِ الإسلامِي وأقبلَ على كتبِهِ في القرونِ الوسطى جميعُ علماءِ أوربا وترجموا كثيراً منها إلى اللاتينية ، وعدُّوه من العقولِ النادرةِ قلما توجدُ في زمنٍ من الأزمنةِ .

تعريف الكيمياء

الكيمياءُ لغةً مثلُ السيمياءِ اسمُ صنعةٍ وهو عربيٌ كما ذُكِر في مختار الصحاح من كمى بمعنى استتر ووجهُ التسميةِ ظاهرٌ لأن الكيمياءَ القديمة من الصناعات السرية المستترة وكان منتحلو هذه الصناعةِ يراعون فيها قاعدةَ السترِ والإخفاءِ ، أما علماء الغربُ فلم يتفقوا على أصل كلمة كيمياءِ فقد جاء في معجمِ لاروس الفرنسي أن كيمياء لفظٌ يوناني مشتقٌ من كيموس بمعنى العصارة وقال بعضهم إنه مشتق من اللاتينية أما اصطلاحاً . فهو علم يُبحث فيه عن المادة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة فهذه المادة يسمونها (الأكسير) يزعمون أنه يلقى منها على الجسم المعدني مثل الرصاص والقصدير والنحاس بعد أن يحمى في النار لدرجةِ حرارةٍ معينةٍ وبطريقةٍ خاصةٍ وبحساباتٍ معروفةٍ لديهم فيعود ذهباً ، ويدّعون بأن الإكسيرَ موجودٌ بالقوة في جميع الأجسام سواء أكانت معدنية أم نباتية أم حيوانية غير أنه يسهل استخراجه بالفعل من بعضها فقط ويصعب في البعض الآخر ، أما الأعمال التي يجرونها في فحص المكوناتِ وتعيين خواصها فهي كثيرة منها حلُ الأجسامِ إلى أجزائِها الطبيعيةِ بالتصعيدِ أو التقطيرِ وتجميدِ الذائبِ منها بالتكليس وتركيبِ الأجسامِ بالتزويج والتعفين ، والتعفينُ هو التمشيةُ والسحقُ حتى تختلطَ الأجزاءُ بعضها ببعض وتصيرُ شيئاً واحداً لا اختلاف فيه ولا نقصان بمنزلةِ الامتزاجِ بالماء وهذا هو المُعبرُ عنه في الكيمياء الحديثة بالامتزاج الكيميائي للتفريق بينه وبين الاختلاطِ العادي .

أساس علم الكيمياء

اختلفوا فيمن وضعَ علمَ الكيمياء القديمة وفي الزمان الـذي وضـع فيه ، فزعمَ القدماءُ بأنهُ صنعةٌ إلهيةٌ وفرعٌ من فـروع العلـومِ الروحانيـةِ ، وقالوا في اصطلاحهم بـأن هـذا العلـمَ هـو أحـدُ العلـومِ الملهمـةِ السريةِ كالسيمياءِ والسحر والتنجيم والطلسمات ، وُجدَ في النوع الإنساني منذ كان عمرانُ الخليقةِ وإن سنـدَهم فيـه يتصلُ إلى هـرمس الأعظـم الذي يحسبونهُ كبيرَ فراعنةِ مصـرَ وأعلـمَ علمائِهـا وينسبون إليـه جميـعَ العلـومِ والحكمةِ ويعتبرونَهُ في مصافّ الآلهة .

غير أن علماءِ الآثارِ لم يقفوا في أبحاثهم وتحرياتهم وتنقيبهـم علـى أثرٍ لهرمس هذا وقيل كان ببابل ولعل مرادهم به حينئذ النبيُ إدريسُ عليه السلام حيث يرد أنه مِن السريانيين وبأنـه أولُ مـن أُعطِـي النبـوةَ وخـطَ بالقلمِ وأولُ من نظر في علم النجوم والحساب وغيرهما من العلوم وهـو أولُ من فصَّل الثياب وخاطها ، أما علماء العصر فيقولـون إن هذا العلـمَ لم يوضعْ إلا بعد القرن الثاني الميلادي وإن واضعيه هـم علمـاءُ الـروم في القسطنطينية وإنما نسبوها إلى علمـاء مصـر لأنهـا كـانتْ بالنسبة إليهـم ينبوعَ العلمِ ومهدَ الحضارةَ واستـدلوا علـى قولهـم هـذا بتدقيـق الرسـائل القديمة المدونة في الكيمياء وهي لم تزلْ محفوظةً بالخط اليوناني القديـمِ في مكتبات أوربا ويظهر من ورقهـا وخطِهـا وأسلوبِ إنشـائِها بأنهـا مـن مؤلفاتِ القرنِ السابع الميلادي ومؤلفُها وإن كان من علماءِ القسطنطينية إلا أنه عزاها إلى علماءِ مصر وادعى باتصال سندِها إلى هرمس الأعظم .

صناعة الكيمياء

والكيمياءُ على الإطلاق القديمةِ والحديثةِ تشتمل على أمرين أحدُهما القواعدُ النظريةُ والآخر الصناعاتُ العمليةُ ، فصناعة الكيمياء العملية وُجِدَتْ في الأمم الخالية من قديم الزمان ووجودها ملازم لوجودِ العمران وقد تولدت من صناعاتِ مصرَ وبابلَ ومن اشتغالِ الأممِ السالفةِ في إذابةِ المعادنِ وتخليطِها واصطناع البللور وأحجارِ الفسيفساء وغيرهما وصبغ الأقمشةِ وتلوينها ، وقد ثبت الآن أن الصينيين صنعوا البارودَ والحبرَ والزجاجَ وطلوا الفخارَ وأذابوا المعادنَ قبل الميلاد فاستخرجوا شذور الذهب وأحجار الفضة وغيرها من المعادن وأذابوها وصفّوها وخلطوا بعضها ببعض وكان فيهم الصباغُ والفرانُ والمصورُ والنقاشُ وجميعُ هذه الصناعاتِ من تطبيقاتِ علمِ الكيمياءِ وقد اشتهر المصريون القدماءُ بصناعةِ تحنيط الموتى والتي هي من أدق الصناعات وأعجبها وبها حُفِظَتِ الأجسادُ لهذا العهدِ وبعده ولهذه الصناعةِ علاقةٌ كبيرةٌ بالكيمياء ونحنُ على مشارفِ القرن الحادي والعشرين ورغم بزوغ نجم الكيمياء الحديثةِ وتطورِ العلومِ الأخرى إلا أنه لم يُتمكن مِنَ التوصلِ إلى سرِ التحنيط الذي قام به قدماءُ المصريين منذ آلاف السنين ، وهاهم الآشوريون والفرس وأهلِ بابل من الكلدانيين خطوا خطوةً كبرى في فن العمرانِ والحضارةِ و لم يزلِ العلماءُ يبحثونَ في آثارهم وينقّبون في خرائبِ مدنهِم ليعرفوا مبلَغ ما وصلوا إليه من الرقّي والتمدنِ

وكانتِ الصناعاتُ متوفرةً لديهم حتى إن الداخلَ إلى مدينةِ صور (١) ليشمئزُ من روائحِ مصابغِها الكثيرة كما روى ذلك المؤرخُ اليوناني (اسطرابون (٢)) وكان لهذه الأمم أيضاً عنايةٌ تامةٌ بالسحر والتنجيم وما يتبعها من العلوم السرية كما أبدت ذلك الاكتشافات ونطق به القرآن الكريم في قصة هاروت وماروبٌ ببابل وشأنِ السحرِ والسحرةِ أيام موسى وفرعون ونبوغهم في هذا المضمار وتقدمت صناعةُ الكيمياءِ أيضاً عند اليونانيين والرومان فاستخرجوا معادنَ الذهبِ والفضةِ والحديدِ والنحاسِ وضربوا المسكوكاتِ ووقفوا على خواص كثيرة من الأملاحِ المعدنية فاستفادوا منها في صناعاتهم وطبخوا الصابونَ وشووا الزجاج والفخار وطلوهما ، وما يشاهد في آثار بنيانهم من كلسِ الرخامِ وأنواعِ الطينِ دليلٌ قاطعٌ على وقوفهم على كثير من أسرار هذه الصناعة ، والظاهر أن الاعتقادَ بإمكان وجودِ الذهبِ الصناعي تولّد من رؤيةِ الحوادثِ الأوليةِ التي حدثت في علم الكيمياء في أثناء اشتغال الأممِ السابقةِ بالمعادن وذلك أنهم لما رأوا بالتجارب أن الأجسام تتكيفُ وتستحيلُ بالتدبيرِ والمعالجةِ أي بالعمليات الكيميائيةِ استولى على عقولهم الأملُ بصناعةِ الذهبِ والفضةِ وطمعوا في السعادةِ فظنوا أنهم يتمكنون من تكوين هذين المعدنَين النفيسين وأنهم قد يتوصلون إليها ويحصلون عليها بالطريقةِ الصناعيةِ فقالوا بوجودِ الكيمياءِ وسموها بالصنعة الهرمسية وألحقوها بعلوم السحرِ والتنجيمِ .

---

(١) صور : مدينة في لبنان .

(٢) اسطرابون: جغرافي يوناني له كتاب الجغرافية عن بلاد العرب/٥٨ ق.م-٢٥/م .

ما يشتمل عليه علم الكيمياء

وأما القواعد النظريةُ التي يشتمل عليها علم الكيمياء فأساسُها قديمٌ أيضاً لأن القاعدةَ الأولى في هذا العلم هي العناصرُ التي يتألفُ منها الجسمُ ، وأول من قال بتركيب الجسم من العناصر هم أهل الهند فإنهم اعتبروا أن العالم السفلي (دنيانا) مركبٌ من أربعة عناصر وهي الهواء والنار والماء والأرض وأن العالم العلوي (السماء) عنصر خامس هو الأثير ، وقال امبيذكلس (١) من فلاسفة اليونان بالعناصر الأربعة ثم زاد عليها عنصرين هما المحبة والبغض واعتبرهما مصدراً لكل حركة ، وذهب فيثاغورس (٢) إلى أن عنصري الماء والنار أصل كل شيء في الوجود ؛ غير أن أفلاطون وأرسطو أيدا رأي القائلين بأن المكوناتِ تتألفُ من أربعةِ عناصر وأوضحا هذا الرأي وبيناه واتصل سندُ علماءِ المسلمين إلى أرسطو في جميع العلوم الفلسفيةِ وفي الحكمةِ فقالوا إنَ الأجسامَ تتركبُ من العناصرِ الأربعةِ ويقصدون بالأرض الجسم الصلب وبالماء الجسم السائل وبالهواء الجسم الغازي وبالنار الحرارة والضوء .

وبقي هذا الرأي هو المعمول به والمعول عليه بين العلماء إلى أن جاءَ (لافوازيه (٣)) وأبطل هذا الرأيَ وقال إن العناصرَ الأربعةَ ليست

---

(١) امبيذكلس : فيلسوف يوناني اصطبغت تعاليمه بصبغة دينية كان عالماً بالطب والفيزياء القرن /٥/ ق.م .

(٢) فيثاغورس : فيلسوف يوناني عاش في القرن /٦/ ق.م .

(٣) لافوازيه : كيميائي فرنسي من مؤسسي الكيمياء الحديثة عاش بين /١٧٤٣ - ١٧٩٤/ م .

بأجسام بسيطة لأن الماء يتألفُ من عنصرين بسيطين همـا (الهيدروجين مولد المـاء) (والأوكسجين مولـد الحموضـة) . وإن العنـاصر البسـيطة تزيد عن أربعة بكثير ، ومن قواعد الكيمياء النظرية القولُ بالجوهرِ الفـردِ وأن الأجسامَ مؤلفةٌ من ذرات متحركةٍ بينها خلايا وأول من قال بذلـك الحكيم اليوناني (لوكيب) ووافقه تلميـذه (ديمقريطـس (١)) فـأوضح هذا القول وبيّنه وشرحَ له فهذه القواعدُ النظريةُ وتلكَ الصناعات العمليةِ هيأتْ علم الكيمياء للظهورِ والـبروزِ ففـي القـرن الثـالث الميـلادي أخـذَ اليونانيون يدونونَ هذا العلم ، كما دوّن ابقراط (٢) علَم الطب بعد أن كان صنعةً عمليةً يتناقلها الابنُ مشافهةً عن أبيهِ .

بطليموس الأول والكيمياء

عندما أسس بطليموس معهد الميوزيوم بالإسـكندرية أدركَ أهميـةَ علم الكيمياء في مصر . فخصص له أماكنَ فسيحةً للمحاضرات ومعامل للتجارب ، ولا غرابة في أن ينسب علمُ الكيمياء لمصر ففي أرضها نبـتَ ونما وبين أحضانِ صُناعِها ووراءَ أسـوارِ معابدِهـا تـدرجَ وارتقـى ، وإن فنونَ المصريين المتقنة وصناعتهم المحكمة دليلٌ صادقٌ علـى أنهـم أحـاطوا بطائفة كبيرة من المعلومات في الكيميـاء وطبقوهـا في مظـاهر شتى مـن حيـاتهم ولاشـك أن طـولَ مرانِهـم علـى هـذه الصناعـاتِ أدى إلى

---

(١) ديمقريطس :فيلسـوف يوناني ويعتبر مؤسـس الفلسـفة الـمادية القـرن /٥/ ق.م .

(٢) ابقراط : أبـو الطـب ولـد في جزيـرة كـوس باليونـان /٤٦٠/ ق.م ، وهـو أشهر الأطباء الأقدمين .

مشاهدتهِم ظواهرَ كيميائيـة كمـا أدى إلى استنباطهم حقـائق علميـة لم تكن معروفةً من قبل .

جابر بن حيان ومنهجه العلمي

درس جابرٌ بكل إمعانٍ المنهجَ العلمي عندَ علمـاءِ اليونـان فوجـده يرتكزُ على التحليلاتِ الفكرية الغامِضةِ ، لـذا نلاحـظُ أنه اعتمـد علـى المنهج العلمي الـذي يستندُ علـى التجربـةِ والبرهـانِ الحسـي والملاحظـةِ الدقيقـةِ مـع الاحتـفاظِ بالافكـارِ الرياضيـةِ الـتي تُعتـبر عصـبَ البحـث العلمي .

التراث اليوناني

ودرس جابرُ بنُ حيانَ نظريةَ أُرسطو (١) الـتي كـانت معروفـة في القرن الرابع قبل الميلاد والقائلة إن كل الموجودات في العـالم تتـألف مـن الماء والهـواء والـتراب والنـار ولهـا خـواص أربـع هـي الحـرارة والجفـاف والرطوبة والبرودة – لقد رأى أرسطو أن هناك قواماً وسطاً مـن الـتراب والنار (كانوا يصفونه بالدخاني وهو يصدر من تحـول الـتراب إلى النـار وكذا يرى أن هناك قواماً بين الماء والهواء كانوا يصفونه (بالمائي) وهـو يصـدر عـن تحول المـاء إلى الهـواء وباجتمـاع هذيـن القوامـين في بـاطن الأرض تحدث الفلّزات والفـلّزات هـي الجواهـر الـتي لاتحرقهـا النـار بـل تذيبها فإذا فارقتها النار عادت إلى حالتها الأولى وهـي الذهـب والفضـة

---

(١) أُرسطو : فيلسوف يوناني من كبار مفكري البشرية مؤلفاتـه في الطبيعيـات والآخلاق والالهيات والمنطق /٣٨٤ – ٣٢٢/ ق.م .

والنحاس والحديد والقصدير والرصاص والخارصين) فطغت أراء ارسطو على فكرة الذرة وبقيت مسيطرة على أفكار العلماء أكثر من عشرة قرون (١) إلى أن جاء جابر بن حيان فخالف نظرية ارسطو وقال إن الفلّزات تتكَوّن باتحاد القوامين مباشرة بل إنهما أي القوامين يتحولان أولاً إلى عنصرين جديدين فالقوام الدخاني يتحول إلى كبريت والقوام المائي يتحول إلى زئبق وقد بقيت نظرية جابر سارية المفعول لدى الكيميائيين حتى بدأ عصر (٢) الكيمياء التي بنيت على الدراسات المجهرية .

منجزات جابر الكيميائية

لقد توصّل إلى تحضير بعض أنواع الطلاء التي تقي الثياب من البلل وتمنع الحديد من الصدأ ، كما حضّر حيزاً مضيئاً من (كبريتيد النحاس) واستخدمه في كتابه وزخرفة المخطوطات الثمينة وهو ما يعرف اليوم بماء الذهب ، كما تعْزى إليه عمليات جديدة لتحضير الفولاذ وتنقية المعادن ، كما عمل في حقل الأصباغ الصناعية وتوصل إلى ايجاد أصباغ مستخلصة من النباتات لصنع الجلود ، كما اكتشف طريقة فحص أيون النحاس فحصاً نوعياً فقد عرف أن مركبات النحاس تكسبُ اللهب لوناً أزرق ، ومن أهم إنجازاته السموم ودفع مضارها ووضع في ذلك كتاباً له أهمية بالغة في تاريخ العلوم لما فيه من إشارات قوية إلى العلاقة بين الطب والكيمياء ، كما بيّن أنواع السموم وطرق

---

(١) القرن : مائة سنة .   (٢) في القرن الثامن عشر .

استخراجها وكيفية معرفة الجيد والرديء منها بالإضافة إلى إنجازات أخرى كثيرة لايتسع المجال لذكرها .

العمليات المخبرية

لقد قام جابر حيان بكثير من العمليات المخبرية كالتبخر والتكليس والتصعيد والتقطير والتكثيف والترشيح والإذابة والصهر والبلورة ، كما حضر الكثير من المواد الكيميائية مثل أوكسيد الزئبق ، وكبريتيد الزئبق ، وحامض الكبريتيك وحامض الفيريك وحامض الأوزتيك والماء الملكي الذي يذيب الذهب .

تأثير جابر في العلم الحديث

لقد اشتهر جابرُ بنُ حيان في العالم الأوربي أكثرَ من شهرته في العالمين العربي والإسلامي ، بل إن كتبه صارت مراجعَ هامةً للعالم الغربي بينما نحنُ لانعرف عنه إلا اسمه وأنهُ برع في الكيمياء لذا نجد الغربيينَ أقبلوا على ترجمة مصنفاتِه العلميةِ إلى لغاتهم لما فيها من المعلومات والتجارب التي دفعت حضارتهم إلى الأمام والجديرُ بالذكر أن الكثيرَ من علماءِ الغربِ أنصفوه وأكثروا من مدحه والثناءِ عليه وعَدُّوه من العقول النيرة النادرةِ ولكن هذا الاعترافَ لايمنعهم من انتحالِ نظرياته وآرائِه العلميةِ في الطبِ والفلسفةِ والكيمياءِ والعلومِ الأخرى .

تأثيره في الشرق والغرب

إن جابرَ بن حيان شخصيةٌ فريدةٌ في حضارتنا لما قدم من انتاج علمي في جميع فروعِ المعرفةِ فقد بقيت كيمياءُ جابر مرجعاً لعلماء

الشرق والغرب حتى القرن الثاني عشر الهجري (١) وهو القرن الذي برز فيه كثيرٌ من علماء الغرب مثل لافوازيه ، هولميارد ، جاليلو (٢) وغيرهم وبدون شك لولا مجهودات جابر في الكيمياء لبدأ علماء الغرب من حيث بدأ هو ولتأخر التقدم والمدنية عدة قرون .

يقول بريتلو (٣) في كتابه تاريخ الكيمياء في العصور الوسطى إن لجابر بن حيان في الكيمياء مالارسطو طاليس في المنطق وإن جميع الباحثين العرب وغير العرب في علم الكيمياء نقلوا عنه واعتمدوا على تآليفه وبحوثه ويقول جون سارتون في كتابه المدخل إلى تاريخ العلوم : إنه كان شخصيةً فذّةً ومن أعظم الذين برزوا في ميدان العلم في القرون الوسطى يقول أبو بكر الرازي (٤) في كتابه الأسرار وسر الأسرار إن جابر بن حيان من أعلام العرب العباقرة وأول رائد للكيمياء .

ويقول ابن خلدون (٥) في مقدمته : إن جابر بن حيان تفوق في علم الكيمياء حتى صار الكثير من العلماء الذين لهم دور في هذا المجال يسمونها علم جابر بن حيان .

---

(١) الثامن عشر الميلادي .

(٢) جاليلو : عالم إيطالي أحد كبار علماء زمانه توصل إلى معرفة حركة دوران الأرض حول الشمس (١٥٦٤ - ١٦٤٢)

(٣) بريتلو : كيميائي فرنسي رافق بونابرت في حملته على مصر واكتشف طريقة تكرير الماء بالفحم /١٧٤٨ - ١٨٢٢/ م .

(٤) أبو بكر محمد بن زكريا من أشهر أطباء العرب /٢٤٨ - ٣١٦/ هـ .

(٥) عبد الرحمن بن خلدون مؤرخ صاحب المقدمة /٧٣٢ - ٨٠٨/ هـ .

ووصفه كثير من معاصريه بالتصوف وذلك بسبب انكبابه على القراءة والكتابة واعتزال الناس .

إبداعاته

لقد ذكر جابرُ بنُ حيان في مؤلفاته التجاربَ والطرقَ والقواعدَ التي استند إليها في أبحاثه مما كان له الفضلُ الأكبرُ في تقدمِ العلمِ ويعود إليه الفضل في ايجاد وتحسين بعض الطرق الكيميائيةِ والأدوات والأواني المستعملة في إجراء التجارب والتي وصفها وشرح طريقة عملها في مؤلفاته ، كما أنه أولُ من استعمل الموازينَ الحساسة والأوزان الدقيقة في تجاربه كالقيراط والدانق والدرهم والمثقال والاوقية والرطل .

قريش والكيمياء

ولعلَ السابقَ إلى تحصيل الكيمياء والطب من قريش هو خالدُ بن يزيد بن معاوية (١) عالمُ قريش وحكم آل مروان الذي أقبلَ على تحصيل الطبِ والكيمياءِ وأخذ عن علماءِ الروم والسريانيين وألفَّ في الكيمياء الرسائلَ المنقولة عنه كالرسالة المترجمة إلى اللاتينية وعنوانها (رسالةُ في الكلماتِ الثلاثِ) ونقلَ عنه المشتغلون بالكيمياء كثيراً من مسائلها ، وكان خالدُ بنُ يزيد من أعظمِ المشجعين على ترجمةِ كتبِ الفلاسفةِ والكيمياءِ والطِب من اللغات القبطيةِ واليونانيةِ والسريانيةِ وهو أولُ من جمعَ الكتبَ وجعلها في خزانةٍ (مكتبة) في

---

(١) خالد بن يزيد بن معاوية توفي /٨٥/ هـ أمير أموي وعالم وحكيم ، زهد بالخلافة حباً بالعلم وانصرف يؤلف ويترجم كتب الكيمياء والطب والنجوم .

الإسلامِ وكان إلى جانب هذا كله متكلماً متصرفاً بفنون الأدبِ ،فصيحاً حجةً بل كان شاعراً وله نوادرُ وحكاياتٌ ، وتلا خالداً في العلوم العقلية والكيمياء الإمامُ جعفرٌ الصادقُ فقد كان آيةً باهرةً في العلم وفريدَ عصرِه في المنقولِ والمعقولِ ونبغ من تلامذتِه أبو حنيفة النعمان بعد أن انتظمَ في حلقاتِ درسِه ونهلَ من بحرِ معارِفه حتى قيل إنه لو لم يكنْ إمامَ مذهبٍ وصاحبَ اجتهادٍ في المنقول لكانَ من أعظمِ الحكماءِ والفلاسفةِ في المعقولِ وهذا عالمُنا أبو موسى جابرُ بن حيان أيضاً أحد تلامذة جعفر الصادق برع في الكيمياء حتى سميت باسمه وارتبطتْ به فهاهم يطلقون علم جابر على اصطلاح الكيمياء القديمة .

بعض من سلك مسلك جابر

ثم اقتفى أثره في هذا العلم كثيرون نذكر منهم أبا بكر الرازي والفارابي (١) وابن سينا (٢) والكندي (٣) والمجريطي (٤) .

مؤلفات ابن حيان وتصانيفه

درس ابنُ حيان الكيمياءَ والطبَ والتاريخ الطبيعي والفلسفةَ ونبغَ فيها كلها ووضعَ مؤلفاتٍ كثيرةً نذكر منها .

---

(١) الفارابي : أبو النصر فيلسوف /٢٥٩ - ٣٣٩/ .

(٢) ابن سينا : أبو علي الحسين طبيب وفيلسوف /٣٧٠ - ٤٢٨/ .هـ .

(٣) الكندي : أبو يوسف يعقوب /١٨٥ - ٢٥٨/ هـ .

(٤) المجريطي : أبو القاسم مسلمة /٣٤٤ - ٤٠٣/ هـ .

كتـاب الخـالص ، كتـاب الخـواص ، كشـف الأسـرار وهتـك الأشـرار ، إخـراج مـا في القـوة إلى الفعـل ، العلـم الإلهـي ، الحكمـة الفلسفية ، أسرار الكيمياء ، علم الهيئة ، أصول الكيميـاء كتـاب الرحمـة وقد تُرجِمَ الجانبُ الأكبرُ من مؤلفاته إلى اللغات الأوربية ولا تخلو مكتبةٌ شهيرةٌ في أوربا من نسخٍ خطيةٍ لبعضِ مؤلفـاتِ هـذا الفيلسوف العربي الكبير .

وفاته

توفي في الكوفة عن عمرٍ يزيد على تسعين عامـاً . وكـانت وفاتـه سنة /٢٠٠/ هـ .

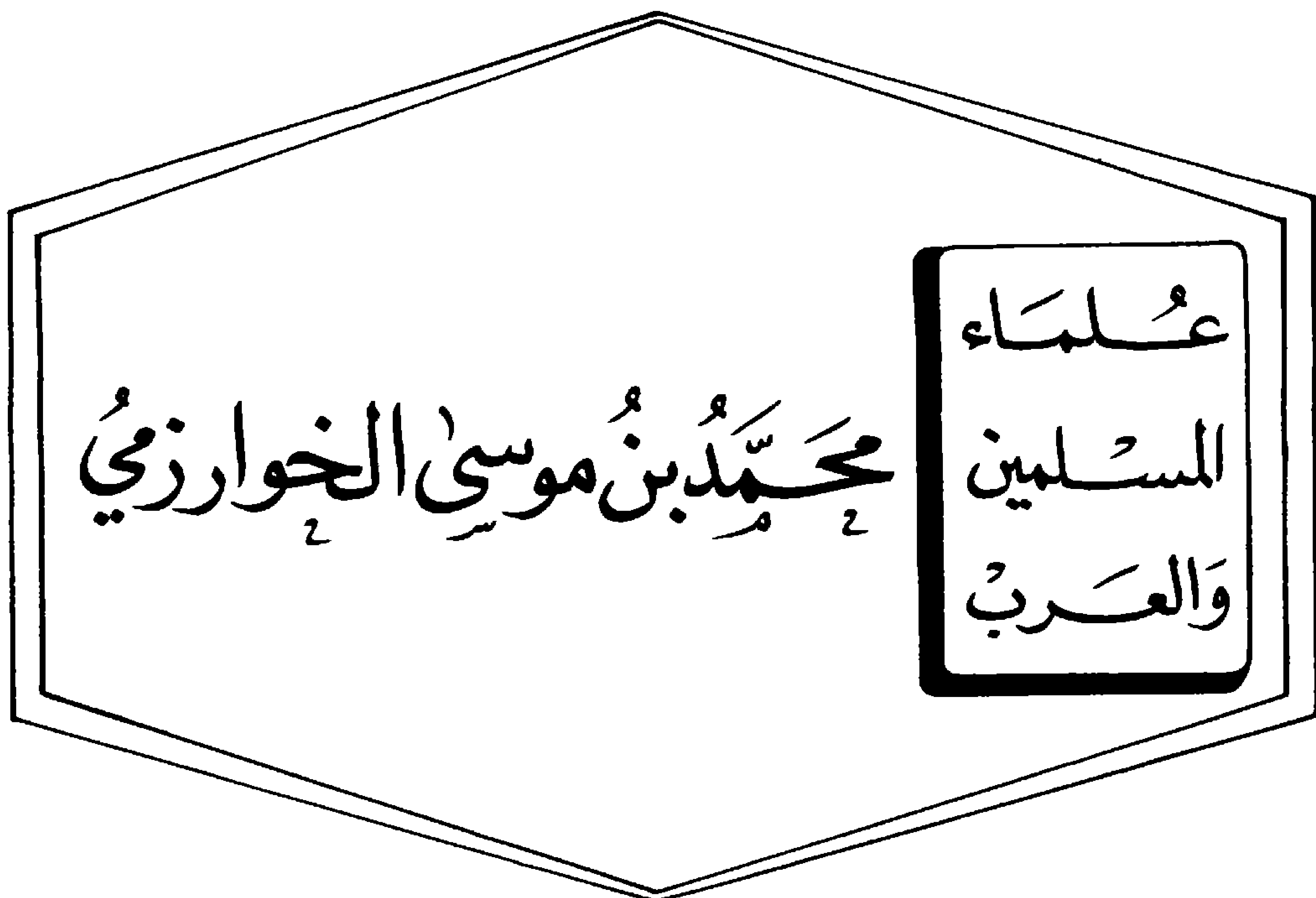
خاتمة

إن جابر بن حيان علـمٌ مـن أعـلامِ الإسـلامِ وحجـةٌ في الكيميـاء يشار إليه بالبنان ونفسٌ طاهرةٌ زكيةٌ بمبدأ الصوفيةَ وأُشرِبَتْ الإيمـانَ ، لـه أثرٌ حسنٌ في العلم وقدمٌ راسـخةٌ في البحـثِ وفيـضٌ غزيـرٌ مـن التـأليفِ وذكر مُشرِّف في الشرقِ والغربِ ، ويقول لوكلير (١) في كتابه : تاريخ الطب العربي : إن جابر بن حيان من أعظم شخصيات القرون الوسطى بلا جدل ، لايساويه عالم في عصره لسعة اطلاعِهِ ومعرفتِه وإليـه يرجـع الفضل في تشجيع الكثير من طلاب العلـم علـى متابعـة منهجـه ودراسـة أبحاثه الكيميائية مما هيأ للوصول إلى الكيمياء الحديثة .

---

(١) لوكلير : طبيب مستشرق فرنسي توفي سنة /١٨٩٢/ م .

فجر الهدى والإيمان





اعداد
فؤاد حمدو الدقس

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود

الخوارزمي

١٦٠ هـ - ٢٣٢ هـ

عالم في الرياضيات

- ٢ -

اسمه ونسبه

أَبُوْ عَبْدِ الله محمدُ بنُ موسى الخوارزميُ وأصلُه من خوارزم ، أقام في بغدادَ حيثُ اشتهرَ وذاعَ صيتُه وانتشرَ اسمُه بينَ الناسِ ، كان منقطعاً إلى خزانةِ الحكمةِ للمأمونِ وقد بدأتْ في زمنِه ترجمةُ التراثِ اليوناني والثقافةِ الهنديةِ ثم ظهرَ المأمونُ (١) بعدَ ذلكَ متشبعاً بمبادىء والدِه سائراً على نهجه وهو العالِمُ المُحقِقُ المُحِبُ للمعرفةِ والمنقطعُ لها قبلَ الخلافةِ فأرسلَ البعثاتِ في طلبِ المخطوطاتِ شراءً ونسخاً حتى إنه فرضَ على أعدائِه المنكسرينَ في المعاهداتِ التي عقدها معهم تنازلهم عن بعض المؤلفاتِ اليونانيةِ النادرةِ والثمينةِ وكان على رأسِ إحدى بعثاتِه الكبيرةِ عالمُنا الخوارزمي الذي ذهبَ إلى أفغانستان والهند ولما كثرت

(١) الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد تولى الخلافة بعد أخيه الأمين /١٩٨ -٢١٨ / هـ .

المخطوطاتُ أنشأ المأمونُ خزانةَ الحكمةِ وأوكـلَ ادارتَهـا إلى الخوارزمـي وهـي مدرسـةٌ يعيـش فيهـا علـى حسـاب الدولـة المـترجمون والمحققـون والعلماء متفرغين لأعمالهم وترجماتهم وتحقيقاتهم العلميةِ ترفدهم الجوائزُ السخيةُ متتابعةً لكل انجازٍ جديد .

مولده

وُلِدَ في خوارزم (١) سنة /١٦٠/هـ مائة وستين للهجرة .

شهرته عند العرب

ولا شكَّ في أن الخوارزميَ كان مشـهوراً عنـدَ العـربِ كعـالمٍ في الجبرِ وكثيرٌ من المؤلفين المتأخرين يعترفون صراحةً بأن الخوارزميَ مرجـعٌ مـن مراجعهـم وفي مقدمـةِ ابـنِ خلـدون اعـترافٌ صريـحٌ بسـموِ نجـمِ الخوارزمي لأنه أولُ مَنْ كتبَ في الجبر وذكرَ القزوينيُ(٢) أن الخوارزمـيَ كـان أولَ مـن ترجـمَ علـمَ الجـبرِ للمسـلمين ، ولعـل مـا ذكرنـا عـن

---

(١) خـوارزم : بـلاد واقعـة علـى نهـر امودريـا الأسـفل في تركسـتان إحـدى جمهوريات الاتحاد السوفياتي سابقاً .

(٢) القزويني : عبد الغفار بن عبد الكريم ت /٦٦٤/هـ فقيـه ورياضي اشتغل بالقضاء وعلم الفلك وله كتاب في الحساب .

الخوارزمي وهو قليلٌ من كثيرٍ كافٍ للتدليلِ على مكانتِه العلميةِ بين المسلمين في عصرِه وفي العصورِ التاليةِ .

أثَرُهُ عند الغربيين

يكفيه في ذلك أن اسمَهُ صارَ كلمةً دخلتْ معاجمَ أغلبِ لغاتِ العالمِ ففي الإنجليزية يستخدمون كلمة (الجورذم) التي هي ولا شك تحريفٌ لاسم الخوارزمي للدلالةِ على الطريقةِ الوضعيةِ في حلِّ المسائلِ كما أن الشاعرَ الإنجليزيَ يَستخدمُ كلمةَ (اوجرم) للدلالةِ على الصفرِ وذلك لأن طريقةَ الحسابِ الهندي بما في ذلك استخدامُ الصفر إنما وصلتْ إلى الغَرْبِ عن طريقِ كتابِ الخوارزمي في الحسابِ ، كما أن اسمَ علمَ الجبرِ في جميعِ لغاتِ العالم مشتقٌ من الكلمةِ العربيةِ (الجبرُ) وهي التي استخدمها الخوارزميُ اسماً لكتابه وكانتِ الأعدادُ من (١ إلى ٩) حتى أوائلِ القرنِ الثامن عشر تُسمى باللاتينية (الجورزمس) كما أن الكلمةَ الاسبانيةَ التي معناها الأعدادُ أو الأرقامُ هي (جوارزمو) وقد تعلّمَ الغربيون علمَ الحساب عن كتابِ الحسابِ للخوارزمي مترجماً إلى اللاتينية وعن كتبٍ أخرى بُنيَتْ على كتاب الخوارزمي هذا ومما تقدم يتضحُ ما للخوارزمي من الأثَر البالغِ في تقدمِ كلٍ من علمي الحساب والجبر في الشرق بحيث يصحُ القولُ بأن

الخوارزميَ وضعَ الجبرَ وعلمه وعَلّمَ الحسابَ للناسِ أجمعين والخوارزميُ من أكبرِ علماءِ المسلمين الذين تدينُ لهم المدنيةُ الحديثة بما تركوه وأضافوه من كنوزٍ جديدةٍ إلى كنوزِ المعرفةِ الثمينةِ في شتى مجالاتِ العلومِ الأخرى .

هدفُ المؤلفين من وضع كتبهم

في مقدمةِ كتابه الجبر والمقابلة يقولُ الخوارزميُ و لم تزلِ العلماءُ في الأزمنةِ الخاليةِ والأممِ الماضيةِ يكتبون الكتبَ بما يصنعونَ من صنوفِ العلمِ ووجوهِ الحكمةِ احتساباً للأجر بقدر الطاقة ويبقى لهم من لسانِ الصدقِ ما يصغر في حينه كثيرٌ مما كانوا يتكلفونُه ويحملونهُ من المشقةِ في كشفِ أسرارِ العلمِ وغامضِه ، وهمْ إما رجلٌ سبقَ إلى ما لم يكن مستخرجاً من قبلهِ وإما رجلٌ شرحَ مما أبقى الأولون ما كان غامضاً ومستغلقاً فأوضح طريقَه وسهّلَ مسلكه وقرّبَ مأخذه وإما رجل وجدَ في بعضِ الكتبِ خللاً فلمَّ شعثهُ وأقام أوده (١) وأحسنَ الظنَ بصاحبِه غيرَ رادٍ عليهِ ولا مفتخرٍ بذلك .

---

(١) أوده : معوجه .

الجبر والمقابلة

لقد وضعَ الخوارزميُ في هذا الكتاب بشكلٍ مستقلٍ عن الحساب وفي قالبٍ منطقيٍ علميٍ دقيقٍ ، ولهذا الكتاب قيمةً تاريخيةً كبرى لأنه أعظم ما توصَّلَ إليه العقلُ البشريُ لما فيه من دقةٍ وإحكامٍ في القياسِ من جهة وفي أسلوب تطبيقه على جميع مرافق الحياة من جهةٍ أخرى فعليه اعتمدَ علماءُ الغربِ في دراساتِهمُ الجبريةِ ومنه عرفَ الغربيون هذا العلمَ .

الخوارزمي والحساب

وهو أولُ من ألَّفَ في الحساب وفي الأرقامِ حيث شرحَ نظامَ استخدامِ الأعدادِ والأرقامِ الهنديةِ كما شرحَ طرقَ الجمعِ والطرحِ والقسمةِ والضربِ وحسابِ الكسورِ وكان له أعظم الفضلِ في تعريفِ العربِ والغربِ على حدٍ سواء بالنظامِ العدديِ الهندي وهو أولُ

كتابٍ دخـلَ أوروبـا حيـث بقـيَ زَمنـاً طويـلاً مرجـعَ العلمـاءِ والتجـارِ والمحاسبين وقد بقي علمُ الحساب قروناً معروفاً باسم (الغوريتمي) نسـبة إلى عالِمنا الخوارزمي .

الخوارزمي والجغرافية

وكتبَ في الجغرافية كتاباً أسماه صورة الأرضِ شـارك فيـه برسـمِ خريطة العالم ويعتمد هذا الكتابُ على جغرافيـةِ بطليمـوس (١) متوسـعاً فيه مضيفاً خرائطَ جديدة ويُعتبرُ كتابُ صورةِ الأرضِ ممثلاً لعهـد كـامل من عهودٍ ثلاثةٍ تمت فيه الخرائطُ العربيةُ وطرقُ تنفيذها .

العهد الأول :

ويبدأ بابتداءِ العلمِ العربيِ الأصيلِ ويمثله في القرن التاسع عملُ أبي موسى الخـوارزمي الذي اتبع أُسـلوب بطليمـوس وهـو الأسـلوب الـذي ساد حينذاك دون معارضة .

---

(١) بطليمــوس : كلوديــوس فلكــي وجغــــرافي يونـــاني نشــأ في الاسكندرية /٩٠ - ١٦٨ / م أشهر مؤلفاته المجسطي ، وجغرافية بطليموس .

العهد الثاني :

ويختلفُ عن الأول ويتمثل بـ /٢١/ خريطة جديدة تسمى (أطلس الاسلام) وهي تتناول العالم الاسلامي فقط دون اهتمامٍ كبيرٍ بخطوطِ العرض أو الطول .

العهد الثالث :

ويمثلُه الإدريسيُ(١) على وجهِ الخصوصِ وتتجلى بخرائطـهِ العنايةُ الدقيقةُ بالجغرافية الرياضية وبتصويرها للعالم مراعيةً خطوطَ الطولِ والعرضِ .

وله (٢) أيضاً في هذا المجالِ كتابٌ آخر اسمه (تقويمُ البلدانِ) شرحَ فيه آراءَ بطليموس شرحاً مستفيضاً واعتمد عليه في وضع كتابه السابق صورة الأرض ولذلك يعتبر الخوارزميُ مجدداً لآراءِ بطليموس لا مقلداً لها .

الخوارزمي والفلك

وأبدعَ الخوارزميُ في علمي الفلكِ وحسابِ المثلثاتِ إذ قامَ في عهدِ المأمون بإعادة صياغةِ كتاب (السند هند الكبير) الذي كتبهُ

---

(١) الإدريسي : أبو عبد الله الشريف رحالة جغرافي ولد في سبته ودرس في قرطبة وبرع في الهيئة والجغرافية والطب والحكمة والشعر من مؤلفاته (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق /٤٩٤ - ٥٦١ / هـ . (٢) له : للخوارزمي .

الفزاري (١) وترجع قصة هذا الكتاب إلى سنة /١٥٦/ هـ عندما وقف بحضرة الخليفة المنصور (٢) رجلٌ من الهند وكان عالماً في طريقة الحسابِ الهنديةِ المعروفةِ باسم (سد هانت) والتي تهتم بحركاتِ الكواكبِ وقد أمر المنصور بترجمةِ هذا الكتابِ إلى العربية وبأن يُؤلّفَ كتابٌ على نهجهِ يشرحُ للعربِ سيرَ الكواكبِ وعَهِدَ بهذا العمل إلى الفزاريِ الذي ألّفَ بهذا الصددِ كتابَهُ المعروفَ بين الفلكيين باسم (السند هند الكبير) وقد أخذ العلماءُ بهذا الكتاب امتدادَ عصرِ المأمونِ حيث أعاد محمد بن موسى الخوارزمي كتابتهُ وأضافَ إليه عدةَ زيج اشتهرتْ في البلدانِ الاسلامية ، عوّل فيه على طرق السند هند وخالفه في التعاديلِ والميلِ فجعل تعاديله على مذهبِ الفرسِ وميلُ الشمسِ فيه على مذهبِ بطليموس وقد جاءَ بعدهُ العالِم العربيُ مَسْلمةُ بنُ أحمدَ المجريطيُ (٣) فأجرى بعضَ التصحيحاتِ وحوّل الحسابَ الفارسيَ إلى الحسابِ العربي

---

(١) أبو اسحق ابراهيم بن محمد الحارث الفزاري توفي سنة /١٨٠/هـ من كبار العلماء وهو أول من عمل في الاسلام (اسطرلاباً) .

(٢) تولى الخلافة /١٣٦ - ١٥٨ / هـ .

(٣) أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي رياضي وفلكي وكيميائي وطبيب عربي ولد في مجريط (مدريد) سافر إلى الشرق وعاد بالمخطوطات اليونانية والعربية عُني بالأرصاد توفي سنة /٣٨٧ / هـ .

ويقول ابن خلدون في شرح معنى الأزياج ؛ ومن فروعِ علمِ الهيئـةِ علـمُ الأزياجِ وهي صناعةٌ حسابيةٌ على قوانين عددية فيما يخص كلَ كوكـبٍ من طريقِ حركتهِ ، وما أدى به مواضعُ الكواكبِ في أفلاكِها لأي وقـتٍ مـن كتـبِ الهيئـة   ولهـذهِ الصنعـةِ قوانـين في معرفـةِ الشـهورِ والأيـامِ والتواريـخ الماضيـةِ وأصـولٌ مقـدرةٌ في معرفـةِ الأوجِ (١) والحضيـضِ في جـداولَ مرتبـةٍ تسـهيلاً علـى المتعلمـين وتُسـمى الأزيــاجَ وقــد وضــع الخوارزميُ في مجالِ علم الفلكِ كتابَ (العمـل بالاسـطرلابِ) وكتـابَ (الرخامة) وكلها تبحث في مسائلِ الحساباتِ الفلكيةِ ورصدِها .

وتعتبر جداولُه الخاصةُ بحسـابِ المثلثـاتِ والسـطوحِ الفلكيـة ذات أهميةٍ خاصةٍ وفائدةٍ عظمى للعرب والمسلمين .

وعن طريقِ كتبِ الخوارزمي عرفَ العربُ نظامَ الأرقامِ والأعـدادِ الهنديةِ وقد ألّفَ عدةَ كتبٍ بيّنَ فيهـا النظـامَ الهنـديَ وطريقـةَ اسـتخدامِه عملياً وضربَ كثيراً مــن الأمثلةِ علـى ذلـك ليُسـهِّلَ علـى رجـالِ المـالِ والتجارِ والموظفين عملهم كمــا قدَّم الشــواهدَ على تقســيمِ الميراثِ بطريقةٍ مبسطةٍ بدلاً من العملياتِ الحسابيةِ المعقدةِ التي كـانت شـائعةً في ذلكَ الوقت ، ولقد شــرحَ البيرونيُ (٢) كتابَ الحســابِ الذي وضعهُ

---

(١) الأوج : القمة .

(٢) عالم في الرياضيات والفلك /٣٦٢ هـ - ٤٤١ هـ / .

الخوارزميُ ، ولقد اطَّلعَ الخوارزميُ في بعثتِه التي أرسله فيها المأمونُ على أشكال مختلفةٍ للأرقامِ الهنديةِ تشكلت منها سلسلتان مختلفتان سُميت الأولى بالهنديةِ وانتشرت لدى عربِ المشرقِ وبخاصةٍ في العراقِ ومصر وسورية وقد استقرت على الصورة التالية بعد تطويرها (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ٠) وسميت الثانية بالغبارية وذلك لأن أهلَ الهندِ كانوا يأخذون غباراً لطيفاً ويبسطونه على لوحٍ من خشبٍ أو غيرهِ ويرسمون عليه الأرقام التي يحتاجون إليها في عملياتهم الحسابية ومعاملاتهم التجارية وقد انتشرتْ لدى بلاد المغربِ والأندلسِ ، وعن طريق الأندلس وعن طريق المعاملاتِ التجاريةِ والرحلاتِ المتبادلةِ دخلت إلى أوروبا وعُرِفَتْ فيها باسم الأرقام العربية وقد استقرت بعد تطورها على النحو الآتي :

(1 - 2 - 3 - 4 - 5 - 6 - 7 - 8 - 9 - 0)

ويؤكد ذلك ما قاله البيرونيُ إن الأرقامَ الغبارية والهندية هي أحسن ما عند الهنودِ وهي منتخبة من أرقامِ الحسابِ المتنوعةِ التي كانت معروفةً لديهم وهناك بعضُ العلماء يقولون إن الأرقامَ التي عرفها الخوارزميُ من هندية وغبارية لها أصلٌ واحد لكن التحوير أصاب قسماً منها فتطور وتغير وحافظَ الباقي على حالته الأولى ويستشهدون مؤيدين

وجهة نظرهم بأن الواحدَ والتسعةَ حافظا على حالهما (١ ، ٩) (9.1) أما الاثنان والثلاثة فلم تتغيرا أبداً فهما تكتبان عندَ عربِ المشرقِ كتابةً رأسيةً وعند عربِ المغربِ كتابةً أفقيةً والأربعة تشبه ذلك أما بقية الأرقام فقد حصل فيها تطورٌ واختلطَ بعضُها ببعضٍ مما يستلزمُ الكثيرَ من الحَذَرِ عند التعرفِ عليها في المخطوطات القديمة .

الصفر

أما الصفرُ فهو يعبرُ عن خلوِ المرتبةِ وكانَ يَرِدُ في المخطوطاتِ القديمةِ دائرةً فيها نقطة Θ أي مرتبةً خاليةً فأخذَ عربُ المشرقِ النقطةَ • وتركوا الدائرةَ وأخذَ عربُ المغربِ الدائرةَ وتركوا النقطةَ 0 .

الأرقام

إن للأرقامِ التي جاء بها الخوارزمي مزايا عديدة فهي تقتصرُ على عشرةِ رموزٍ بما فيها الصفرُ ومن هذه الرموزِ يمكن تركيبُ أي عددٍ مهما كان كبيراً بعكسِ ما كان موجوداً عند الرومان والإغريق ، ومن أهم مزايا الأرقامِ العربيةِ التي دخلت أوروبا تحت هذا الاسم أنها تقوم على النظامِ العشري وعلى اساس القيمِ الوضعيةِ بحيث يكون للرقم قيمتان

قيمةٌ في نفسهِ وقيمةٌ بالنسبةِ للمكانِ الذي يوضع فيه بالإضافة إلى ما للصفر من أهميةٍ كبرى في الترقيمِ واستعمالِه في المواضعِ الخاليةِ من الأرقامِ ويقول الخوارزمي في ذلك (في عمليات الطرح إن لم يكن هناك باق نضعُ صفراً ولا نتركُ المكانَ خالياً حتى لا يحدثَ لبسٌ بين مرتبةِ الآحادِ ومرتبةِ العشراتِ .

إن هذا النظامَ العدديَ الذي توصّلَ إليه العقلُ البشريُ بعد قرونٍ طويلةٍ من الكفاحِ المستمرِ يعتبرُ من المخترعاتِ الأساسيةِ والابتكاراتِ الرئيسيةِ التي لا تُحصى فوائدُها ، فلم تنحصر مزاياه في تسهيل الترقيمِ وحدَهُ بل تعدى ذلك إلى تسهيلِ جميعِ أعمالِ الحسابِ ولولاه لاحتاجَ المرءُ إلى استعمالِ الطُرق العويصةِ والصعبةِ لاجراءِ العملياتِ الأربعِ (١) التي كانت تتطلب جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً لإجرائها .

ولم يقتصر الخوارزميُ على تعليم الغرب كتابةَ الأعدادِ والحسابِ بل تخطى تلك المرحلةَ إلى المعقّدِ من مشاكلِ الرياضياتِ وبذلكَ تحقق النصرُ على الطريقةِ الحسابيةِ القديمةِ المعروفةِ باسم (أباكوس) وانتشرتْ الأرقامُ العربيةُ التسعةُ يتقدمها الصفر في كل أنحاءِ أوروبا .

---

(١) الجمع والطرح والضرب والقسمة .

ومن المؤسفِ أن ذاكرةَ التاريخِ ضعيفةٌ فإنه لم يأتِ القرنُ الثالثَ عشَر الميلاديُ حتى نَسِيَ الناسُ وجهلوا أصلَ كلمةِ (الجوارزمس) وراحَ الباحثون في ذلكَ العصرِ يُجْهدون أذهانَهم في البحثِ عن أصلِ تلكَ الكلمةِ ويطرقون أبوابَ الحضاراتِ والعلومِ القديمة بحثاً عن أصلها ولا يتطرق لذهنِ أحدٍ منهم أن يبحثَ عنها عند العربِ فيقول أحدُهم إن كلمة (الجوارزمس) تتكوَّنُ مِنْ مقطعين غريبُ وملاحظةٌ فيكون معنى الكلمة ملاحظةُ الغريبِ من الأشياء ، ويقول آخر : إنها تتكوّنُ من كلمتين الأولى اغريقيةٌ والثانية اصطلاحٌ فيكون المعنى الاصطلاحات الإغريقية ويأتي ثالث فيقول إن المقطعين كلمتان يونانيتان بمعنى الرمل الأبيض ويقول آخر أصلُ الكلمةِ بمعنى الفن والكلمة الثانيةُ تعني العددَ فيكون المعنى (فن الأعدادِ) ويمسُ أحدُهم الحقيقةَ من بعيد فيقولُ إن الكلمةَ تتكونُ من الـ وهي للتعريف بالعربية وبقيةُ الكلمةِ تعني العدد بالاغريقي أما الحرفُ جي الزائد فلا يُأبَهُ له . وبقيَ الأمرُ كذلك حتى تعرَّفَ الفرنسيُ رينو (١) على اسم الخوارزمي كأصلٍ للكلمة (الجوارزمس) فوضع بذلك الحلَّ الصحيحَ للمشكلةِ التي اختلفتْ فيها الآراءُ طويلاً .

---

(١) رينو : مستشرق فرنسي - أمين المخطوطات العربية في مكتبة باريس الوطنية ومدرس اللغات الشرقية توفي /١٨٧٦/ م .

إن العقلَ العربيَ الدقيقَ في تفكيرِهِ ، السريعَ في استيعابهِ للمسائلِ كان أولَ من ألقى على علمِ الرياضياتِ وضوحاً ناصعاً كوضوحِ الشمسِ بعد أن صاغهُ الهندُ في قالبٍ شعريٍ ضبابيٍ غامضٍ فالخوارزميُ هو أولُ من طوَّر فنَ الحسابِ وجعلَ منه علماً صالحاً للاستعمال اليومي وفي خدمةِ بقيةِ العلومِ بعد أن توسَّعَ فيه ونظّمه وبذلك أصبحَ العربُ لا الهنودُ ولا الاغريقُ هم معلمي الرياضياتِ في عصر النهضةِ الأوربيةِ وكانت طريقةُ العربي أن ينشدَ الحقيقةَ بكلِ استقامةٍ وبساطةٍ وأن يجلوَها بكلِ وضوحٍ وتدقيقٍ غيرَ مغفلٍ منها شيئاً في ظل الإبهامِ والتعتيمِ وبهذه الروحِ الهادفةِ إلى الحقيقةِ والنورِ استطاع الخوارزميُ أن يحيطَ بكل ما تفرَّقَ من أبحاثِ السَلَفِ ليصوغَها علماً متكاملاً أسماه (علمَ الجبرِ) كما استطاع أن يضيفَ إليه أبحاثاً جديدةً على غايةٍ من الأهمية . جمعَها وصنفَها في كتابهِ الشهير (الجبرُ والمقابلةُ) .

وفاته

توفي الخوارزمي سنة /٢٣٢/ هـ .

خاتمة

لقد كُتِبَ للشعبِ العربيِ أن يقومَ بدورٍ عظيمٍ في ناريخِ الحضارةِ وتاريخِ الإنسانيةِ هذا الدورُ هو حملُ شارةِ الإلقاحِ والمزجِ لحضارتينِ كبيرتينِ وإن كانت المقارنةُ بينهما مستحيلةً فالأولى للحضارة اليونانية التي انحسرت من الناحيتينِ السياسية والعقلية تاركةً وراءَها مساحاتٍ أخصبَتها بعقليتِها وتقدمِها والثانية للحضارةِ الهنديةِ التي جفَّ ماؤها ونضبَ معينُها بعد أن تدفَّقَ بغزارةٍ حقبةً من الزمنِ و لم يكتفِ العربُ بالنقلِ الكاملِ لعلومِ هاتينِ الحضارتينِ إنما عملوا بجدٍ وجهدٍ كبيرين حيث أضافوا اكتشافاتِهم وأيّدوها بآرائهم وسطّروا أفكارَهم مقارنين ومرجحين مُدخلين قيماً جديدةً وابتكاراتٍ فريدةً خلّدتها الحضارةُ الإنسانيةُ إلى الأبدِ وسيبقى اسمُ الخوارزمي رايةً خفاقةً في سماءِ أوروبا لِمَالَهُ من فضلٍ عظيمٍ عليهم في التسريعِ بعجلةِ المدنيةِ والتطورِ والحضارةِ . باختراعاتِه واكتشافاتِه الرائدةِ .

الكندي
عالم في الجدليات
١٨٥ - ٢٥٨ هـ
- ٣ -

اسمه ونسبه

أبو يوسف يعقوبُ بنُ اسحاقَ بن الصبّاح (الكندي) .

وهو ذو نسب شريف وأصل كريم يرجع نسبه في الإسلام إلى الصحابي الجليل الأشعث بن قيس ومن ثم إلى يعرب بن قحطان .

مولده

ولد في الكوفة سنة /١٨٥/ هـ .

نشأته

نشأ الكندي نشأةً رفيعةً ساميةً ساعدته على تلقي علومه وفلسفته فأبوه كان أميراً للكوفة واستمرت إمارته في عهدِ ثلاثةٍ من خلفاء الدولة العباسية (١) .

قبيلته

كِندة عربيةٌ عريقةٌ في تاريخِها وأصلُها من بلاد اليمن ولكن بطوناً نزحت عنها في مناسبات مختلفة إلى أمصار أخرى فصارت ذاتَ فروعٍ في العراقِ والشامِ والأندلسِ .

---

(١) المهدي والهادي وهارون الرشيد .

رعاية أمه

لقد وُلِدَ الكندي في أواخر حياة أبيه الذي توفي في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد فنشأ في رعاية أمه التي لمست في طفلها النجابةَ والذكاءَ والميلَ الزائدَ لاكتسابِ العلمِ والإقبالِ على المعرفةِ فدفعته وشجعته على اشباع رغبته .

علومه

درس في بدايةِ حياته القرآن الكريم وتفقّه في علوم الدين وتلقى علومَ المنطق على شيوخٍ بلدتهِ في الكوفة ولكنه لم يكتف بهذا القدر من المعارف فقصدَ بغدادَ عاصمةَ الخلافة العباسية وكانت يومذاك موطنَ العلمِ ومحطّ العلماءِ وقد توفرت في خزائنها نفائسُ الكتبِ وأمهاتُ المراجعِ وكانت قُصورها ومساجدُها ومدارسُها ندواتٍ علميةً ومقراً لأهلِ العلم ومجالاً لأبحاثهم ودراساتِهم ، فلا غرابة بعد أن تهيأتْ له أسبابُ البحثِ وسبلُ الدراسةِ أن ينكبَّ على ارتشافِ ألوانِ المعرفةِ بشتى تنوعها وأن يستفيدَ من خزائنِ بغدادَ ومصادِرها العلمية .

رحلته إلى بغداد

درسَ في بغداد العلومَ العقليةَ المستقاةَ من ترجمةِ التآليفِ اليونانيةِ والسريانيةِ والهنديةِ وتبحرّ في علومِ اللغةِ والأدبِ والفلسفةِ وغيرِها .

الكندي والمأمون

بعد انتقالهِ إلى بغدادَ وقطعهِ مرحلةَ التثقيفِ الذاتي وظهور بوادر

نبوغه وعبقريته عظمت منزلته عند الخليفة المأمون (١) فكلفه بنقل العلوم اليونانية والسريانية وترجمتها إلى العربية كما أن المعتصمَ (٢) اختاره مربياً ومؤدباً ومعلماً لابنه أحمد .

ثقافته

كان الكندي قد نهل من البصرةِ حيث كانت هناك حياةٌ فكريةٌ قويةٌ سواءٌ في ناحيةِ الأدبِ واللغةِ وما يتصلُ بمشكلاتها من علومٍ ودراساتٍ أو في ناحيةِ البحثِ العقلي النظري الذي كانت مادتهُ المناظراتِ الكلاميةَ في مسائل دينيةٍ وفلسفيةٍ متنوعة ، وذلك إلى جانب تميزه ونبوغهِ المبكّر واستقلالهِ في الرأي وهذا يتجلى في نقده لآراء الفلاسفة وإنشائهِ وجهةَ نظر خاصة به ، وإقبالُهُ على دراسة العلوم الفلسفية كان مثالاً مشجعاً للعرب المسلمين في ذلك العصر الذي لم تكن فيه الفلسفةُ قد اتخذتْ لنفسها مكاناً بينهم و لم يكونوا هم أيضاً قد ملكوا ناصيةَ وضعِ المشكلاتِ وتوجيهها ولا أحكموا أداةَ معالجتها من حيث تحرير المفاهيم والاصطلاحاتِ الدالةِ عليها فضلاً عن حداثةِ عهدهم بالفلسفةِ إجمالاً .

شخصيته

لقد بلغ من المجد ما يتضاءلُ أمامه حَسَبُ الملوك من أجداده (٣)

---

(١) المأمون / ١٩٨ - ٢١٨ / هـ . (٢) المعتصم / ٢١٨ - ٢٣٢ / هـ .

(٣) تولى بعض أجداده الملك في حضرموت واليمامة والبحرين .

لقد كان ارستقراطياً في حياتـه وفي مجالسـهِ وفي تفكـيره وهـو فيمـا عـدا صلتهُ بالخلفاءِ والقليلين من أقرانه المشتغلين بالفلسفة كـان مُؤْثِـراً للعزلـة العلمية والفلسفية يستعيض فيها عن صَخَـبِ الحيـاةِ وعـن مجدِهـا الـبراق بمجد الفكر ولذته ، وكـان متمسـكاً بعقـائد الإسـلام الأساسـية مدافعـاً عنها غيوراً عليها .

أسلوبه.

إن أسلوبَ الكندي جزلٌ رصينٌ ، قويُ الألفاظِ متينُ بناءِ الجمـلِ. موصولٌ مـا بينهمـا وصـلاً منطقيـاً وهـو لا يخلـو مـن سلاسـة يستلّذها الأديبُ الرزينُ الذي لا يرجح عنده رنين الألفاظ ولا العبارات التي تحرك الخيال على كمال بناء المعاني التي هي مجال القوة الفكرية ، ولا شك أن أسلوبهُ متأثرٌ إلى أبعد حد بطبيعة الموضوع وبطبيعة الدراسة الفلسفية .

منهجه

يقوم هذا المنهـج على تحديـد المفهومـاتِ بألفاظهـا الدالـة عليهـا تحديداً دقيقاً بحيث يقصد المعنى تماماً كما يقوم على ذكر المقدمـات الـتي ربما كانتِ بديهية ثم إثباتها أحياناً علـى منهـج ريـاضي استدلالي قطعـاً لمكابرة مَنْ ينكر القضايا البينة ، وسـداً لبـاب اللجـاج مـن جـانبِ أهـلِ العنادِ وإذا كان الكندي يريد أن يبدأ مـن نقطـة واضحـة وأن يسـلكَ في النظر بعد ذلك جادة الاستدلال المحكم المؤدي على نحو منطقي ضروري إلى النتيجة فإنه يوصي بأن يكون الباحثُ على علـمٍ بالغايـة الـتي يقصـد إليها لكي تجتمع قوته في السلوك إليها وينحصر فكرهُ فيها ولكيـلا يَثْبُـطَ عزمه في أثناء سلوكه ، وتتجلى طريقة الكنـدي الاسـتنباطية في اهتمامـه

بتحديد الماهيات والعلل ومعرفتها وذلك لكي تتيسرَ معرفة ما يعرض للماهيات من أحوال وما يصدر عن العلل من آثار ، فمعرفة علة الشيء تساعد على معرفة هذا الشيء أوثق معرفة وأتمها ، هذا بالإضافة إلى أن معرفة طبيعة الشيء تعين على معرفة فعله ، ونخلص إلى أن منهَجهُ رياضيٌ يُدهَشُ الإنسانَ من إتقانه في ذلك العصر البعيد أما فيما يتعلق بطريقة العرض فإنه يريد كما يقول أن يعرض رأي المتقدمين على أقصد السبل واسهلها سلوكاً وأن يكمل بيان ما لم يستقصوا القول فيه اعتقاداً منه أن الحق الكامل لم يصلْ إليه أحدٌ وأنه يتكامل بالتدريج بفضل تضامن أجيال المفكرين .

مصادر فلسفته ومادتها

لقد خرجت الفلسفةُ الإسلامية إلى الوجود من الاتصال بين الإسلام والنزعات الفكرية الإسلامية من جهة وبين ثمرات الفكر الفلسفي الأجنبي ومناهج العقل الفلسفي وخصوصاً اليوناني من جهة أخرى ، وإذا كان هذا هو الحكم الإجمالي الذي يمكن للباحث أن يفصل في داخل حدوده كثيراً من العوامل الثانوية التي أثرتْ في نشأةِ الفلسفة الإسلامية فإن من أعسر مشكلات الدراسات الإسلامية مشكلة التحديد الدقيق لمصادر النزعات الفلسفية عند المسلمين وهذا يرجع من جهة إلى غموض عناصر الحياة العقلية في البيئة التي فيها الإسلام ومن جهة أخرى إلى عدم تميز تياراتها الفكرية فأما من حيث النقطة الأولى فإنه لا يوجد بين يدي الباحث الحديث مراجع ولا تفاصيل كاملة ، وأما من حيث النقطة الثانية فليس عنده معرفة بأصناف المفكرين وأخيراً لا يوجد بين

يديه مما كتبه الإسلاميون من الناحيتين إلا مراجع كتبت في عصر متأخر وكل منها لا يتجاوز المأثور الموروث الذي مضت عليه علة هذه الحالة مدة طويلة قبل أن يدوّن هنا بالإضافة إلى أن مؤلفي هذه المراجع كتبوا متأثرين من حيث العبارة ومن حيث بعض الآراء والمفهومات والاصطلاحات بما كانت عليه الأحوال الفكرية في عصرهم فلا يصح عند البحث عن مصادر التفكير الفلسفي في الإسلام أن يعتمد الإنسان على التخمين أو الافتراض ولا أن يجنح في ترجيح رأي بحسب آرائه الخاصة ولا أن يتأثر بطريقته العادية في تصور الأشياء بل يجب عليه أولاً وقبل كل شيء أن يعتمد على الوقائع الثابتة والنصوص الصحيحة والشواهد التي هي أجدر ما تكون بالثقة ، وبيان مصادر فلسفة الكندي ومادتها كفيل بإلقاء الضوء على نشأة التفلسف الإسلامي في ناحيته الكلامية والفلسفية الخالصة ، أما من الناحية الكلامية فمما لا شك فيه أن منشأها الأول كان حول الدين سواء في صورة محاولة التعمق في فهم نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف وتجلية ما فيها من أحكام ومفاهيم أو في صورة وضع لما نشأ عن ذلك من مشكلات أو في صورة تحديد لبعض المفاهيم الاعتقادية أو الشرعية ، أما من الناحية الفلسفية الخالصة فنجد أن أكبر مصدرين للفلسفة الإسلامية هما الإسلام والفلسفة اليونانية في صورتها الكلاسكية من حيث أن هذه الفلسفة قدمت للمفكرين الاسلاميين مادةً لبناء أرائهم وألفاظاً لبعض المفهومات الإسلامية .

مصادر النزعات الفلسفية

إن المفكرين الإسلاميين لم ينقلوا عن غيرهم نقلاً بل كان بين أيديهم مادة دينية غزيرة مصدرها الإ سلام وهم تعلّموا آراء غيرهم وتمثلوها على نحو خاص واستعملوها في إنشاء وجهة نظرهم التي يتميزون بها ووضعوها في صورة جديدة وأدخلوها في نظام جديد ووجهوها وجهات جديدة وفصلوها وأكملوها بحسب أصول حياتهم الروحية والعقلية ومهما قرّب المفكرون الإسلاميون من ظاهر النصوص أو بعدوا ومهما كانت الأصول التي حكموها عند بناء مذهبهم سواء كان العقل عند المعتزلة أو نظريات فلسفية أجنبية عند فلاسفة المسلمين جعلوها أساساً فإن ذلك لا يطعن في أن شخصيتهم إسلامية لأن الإسلام في جوهره دين عقل ونظر واستدلال وبرهان .

الدين والفلسفة عند الكندي

إن فيلسوفنا عربي مسلم ينتمي إلى دين موحى به ولا بد أن تعرض بالنسبة له مشكلة العلاقة بين الفلسفة والوحي ، ونرى بين المفكرين المسلمين المعاصرين للكندي من ضرب عن الجدل (١) صفحاً ورفض إقامة العقائد عليه تجنباً لزعزعة أساس العقائد أو جعلها قائمة على أساس ظني نسبي .

وقد أراد هذا الفريق أن يكتفي بالحقيقة التي تضمنّها الوحيُ شاعراً بها بقلبه متأملاً لأدلتها القرآنية الواضحة بعقل سليم وموجهاً

---

(١) أي أعرض عنه .

حياته في ظاهرها وباطنها نحو الحق والخير تحقيقاً لفكرة المؤمن الخيِّر كما تصورها ، وكان هذا هو مسلك المعروفين بطائفة السلف من كبار الفقهاء في ذلك العهد كما كان مسلك الزهاد والصوفية وكان هناك فريق من الباحثين في الدين بالنظر العقلي وقد حاولوا أن يضعوا أصول الدين في صورة فلسفية عقلية وأن يؤيدوها بالأدلة الجدلية والمنهج الفلسفي وأن يستعينوا بالآراء الفلسفية في بناء مذهبهم إلا أنهم أسرفوا في نزعتهم العقلية حتى اصطدموا أحياناً بالأسس التي يقوم عليها الوحي نفسه وهؤلاء هم المعتزلة ولا يخلو منطق مذهبهم من تقليل أهمية النبوات ، كما كان هناك تيار إلحادي عند بعض المفكرين يميل إلى إنكار النبوة أو على الأقل تضييق دائرة مهمتها بأن يجعلها مقصورة على نواح علمية مصلحية وتشريعية تعبدية مع ترك الجزء الجوهري في العقيدة وفي فهم الكون وتوجيه الحياة الانسانية للعقل . وكثير من العلماء المسلمين يردون أصل هذا التيار إلى البراهمة (١) .

وأخيراً كان هناك فريق العلماء المتمسكين بعلم الظاهر عقلهم غير ميّال إلى تدقيقات المتكلمين في أبحاثهم ولا إلى البحث النظري في مسائل العقيدة و لم يكن يخلو هذا الفريق من قوم لهم في ذلك أغراض دنيوية من منصب أو جاه أو منفعة ما وهذا مما يزيد في عدائهم لأهل الكفاية العقلية وفي معارضتهم للنظر الفلسفي وأصحابه مع أن الفلسفة في ذلك العهد كانت ألزم شيء لتأييد الدين ودرء الخطر الذي كان يتهدد العقيدة بالتشويش الآتي من كثرة المذاهب والآراء ومن محاولات أعداء

(١) طائفة من الهنود لا يُجَوِّزون على الله تعالى بعث الأنبياء ويحرمون لحوم الحيوان.

الإسلام من ثنوية (١) ومانويـة (٢) وديّصانيـة (٣) وغـيرهم أن يفسـدوه من الداخل ، وكان لابد للكندي من أن يُدْخِلَ الإسـلامَ في اعتبـاره مـن وجه ما ميراثاً روحياً عزيزاً يعتقد أنه يطابق العقل ثم كان لابد له من أن يتخذ في مشكلة العلاقة بين الديـن والفلسـفة موقفـاً واضحـاً وأن يعـالج المسألة من نواحيها المتعددة ويقوم بواجبه فهو لا يرفض الفلسفة لأن فيها آراء تعتمد على العقل والبرهان ثم إن الفلسفة هي بحسب تعريفه (علـم الأشياء بحقائقها) ويدخل في ذلك بحسب رأيه علم الربوبيـة والوحدانيـة وعلم الفضيلة وكل علم نافع يهدي الإنسان إلى الخير ويبتعد به عن الشر وهذا في نظر الكندي ما جاء به الرسل الصادقون عليهم السلام من عنـد الله تعالى أما عن الإسلام بنـوع خـاص كمـا يوجـد في القـرآن الكريـم فالكندي يصرح بأن كل ما أداه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الله عز وجل يمكن أن يفهم بالمقاييس العقليـة ولكنـه يشـترط بالمقـابل لفهـم معاني القرآن الكريم أن يكون المفكـر مـن أصحـاب الديـن والألبـاب ، قادراً على فهم مقاصد كلام الوحـي ، عارفـاً بخصـائص التعبـير النعـوي وأنـواع دلالـته عـند العرب كما يحاول الكندي أن يلزم خصوم الفلسفة

(١) ثنويـة : يزعمـون أن النـور والظـلام أزليـان قديمـان بخـلاف المجوس الذيـن يعتقدون بحدوث الظلام .

(٢) مانوية : ينسبون إلى ماني /٢١٥ - ٢٧٦/ ميلادي وإليه مرجع اليزيدية .

(٣) ديصانية : أصحاب ديصان اثبتوا أصلـين نـوراً وظلامـاً فـالنور يفعـل الخير قصداً واختياراً . والظلام يفعل الشر طبعاً واضطراراً .

وجوب دراستها لأنهم في دعواهم بطلانها يحتاجون إلى دليل وهذا لن يتيسر لهم إلا إذا درسوا الفلسفة ليقدموا البرهان على دعواهم ولكن ليس معنى هذا أن الكندي يتساهل مع الفلسفة إلى حد يدعوه إلى التنازل عن الوحي أو النبوة أو إلى خلط ذلك بالفلسفة بل هو يجعل بعض مؤلفاته خاصاً بإثبات النبوة على اطلاقها وهذا ما تضمنته رسالته المسماة (رسالة في تثبيت الرسل عليهم السلام) ولا شك أن هذه الرسالة موجهة ضد منكري النبوات أياً كانوا وأياً كان رأيهم في ضرورتها أو اختصاصها والكندي من جهة أخرى يضم إلى ذلك محاولة دفاعية عن الأديان السماوية من وجهة نظر أوسع ومن جهة أخرى يُنبِّه على الفرق بين علوم الأنبياء وعلوم الفلاسفة من حيث الطريق المؤدية إليها ومن حيث مصدرها وخصائصها وهو يعالج هذه المسألة في رسالته المسماة (رسالة في كمية كتب ارسطوطاليس وما يُحتاج إليه في تحصيل الفلسفة) وهو يواجه فيها مذهب أرسطو في شموله وقوته وما يتجلى فيه من جهد إنساني عظيم ى يقول الكندي إن علوم الفلاسفة والعلوم البشرية العادية إنما تأتي ثمرة لتكلف البحث والقصد إلى المعرفة والاعتداد بالرياضيات والمنطق في زمان طويل طبقاً للمنهج العلمي والفلسفي ، أما علوم الأنبياء وهي تشمل ما تشمله علوم الفلسفة من حقائق ظاهرة وخفية فهي غير محتاجة إلى شيء مما تقدم لأنها تكون من طريق فعل إلهي في نفوس الأنبياء وهذا الفعل يطهرها ويغيرها ويُعدُها للعلوم الإلهامية بإرادة الله ، وهذه في نظرة خاصية عجيبة تعلو على الطبيعة وهي تميز بين

الأنبياء وغيرهم ، أما من حيث الخصائص فإننا نجد علوم الأنبياء عند تأمل صورتها اللفظية موجزة بينة محيطة بالمطلوب قريبة السبيل إلى العقل النير الصافي لأنها تفيض من معين العلم الإلهي الأزلي الكامل الذي لا نهاية له ويضرب الكندي لذلك مثلاً عن الوحي الذي نزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو في القرآن ما جاء جواباً عن سؤال وَجهّه منكرو البعث من العرب وهو قوله سبحانه ﴿ وضربَ لنا مثلاً ونسي خلقَه قالَ من يحيي العظام وهي رميم ﴾ (١) وهنا يفسر الكندي الآيات التي أوحاها الله جواباً على ذلك من قوله تعالى : ﴿الذي أنشأَها أوّلَ مرة وهو بكلِّ خلقٍ عليمٌ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ إنّما أمرُه إذا أراد شيئاً أن يقولَ له كنْ فيكون ﴾ صدق الله العظيم . تفسيراً فلسفياً هو مثال للتفسير الفلسفي في ذلك العصر وفيه يبرز الكندي الأصول النظرية التي تتضمنها هذه الآيات من جهة ويستخرج النتائج التي تلزم عنها من جهة أخرى وهي :

١- أن وجود الشيء من جديد بعد كونه وتحلله السابقين ممكن بدليل مشاهدة وجوده بالعقل مرة لا سيما أن جمع المتفرق أسهل من إيجاده وإبداعه عن عدم وإن كان لا يوجد بالنسبة لله عز وجل شيء هو أسهل وشيء هو أصعب وهذا الدليل موجود في قوله تعالى ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أولَ مرةٍ وهو بكلِّ خلقٍ عليمٌ ﴾صدق الله العظيم .

---

(١) الآيات الأخيرة من سورة يسن .

٢- ظهور الشيء من نقيضه كظهور النار من الشجر الأخضر ممكن وواقع تحت الحس فإذن يمكن أن تَدُبَّ الحياة في الجسد المتحلل الهامد مرة أخرى وذلك أيضاً على أساس المبدأ الأكبر وهو أن الشيء يمكن أن يوجد من العَدَم المطلق بفعل المبدع الحق وهذا الدليل موجود بقوله تعالى ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾ صدق الله العظيم .

٣- خلق الإنسان أو إحياؤه بعد الموت أيسر من خلق العالم الأكبر بعد أن لم يكن وهو مضمون قوله تعالى ﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادرٍ على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ صدق الله العظيم .

٤- الخلق والفعل مطلقاً مهما عظم المخلوق لا يحتاج من جانب الله المبدع سبحانه لا إلى مادة ولا إلى زمان خلافاً لفعل البشر لا يتم إلا في زمان ويحتاج إلى مادة تكون موضوع الفعل وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ صدق الله العظيم وهذه الآية إجابة عما في قلوب الكفار من النكير بسبب ظنهم أن الفعل الإلهي المتجلي في خلق العالم الكبير يحتاج إلى زمان يناسب عظمته قياساً منهم لفعل الله على فعل البشر ، لأن الآية حاسمة في بيان نوع الفعل الإلهي وأنه إبداع بإرادة الخالق والقدرة المطلقة لا يحتاج إلى مادة ولا إلى امتداد زماني ولا يغفل الكندي عن اعتراض شكلي يمكن توجيهه إلى فكرة الخلق من طريق أمر التكوين الإلهي وهو قوله للشيء كن ذلك أن الشيء ما دام لم يبرز إلى عالم الوجود لا يمكن أن يوجّه إليه

خطاب ، يردُّ الكندي في ذلك أن التعبير في قولـه تعـالى ﴿ إنمـا أمـره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ صدق الله العظيم تعبير مجـازي فيـه يوصف الشيء بما ليس فيه وهذا النوع من المجاز معروف في لغـة العـرب الذيـن خوطبـوا بـالقرآن الكريـم والذيـن مـن عـاداتهم أن يسـتعملوا في كلامهم عن الأشياء ما لا يكون لها بالطبع . ويقول الكندي بعد تفسيره هذه الآيات الكريمة فأي بشر يقدر بفلسفة البشر أن يجمع في قول بقـدر حروف هذه الآيات ما جمع الله جل وعـلا إلى رسـوله صلـى الله عليـه وآله وسلم فيها من إيضاح أن العظام تحيا بعد أن تصير رميماً وأن قدرته تخلق مثل السموات والأرض وأن الشيء يكون من نقيضه ، كَلَّتْ عـن ذلك الألسن وقصرت عـن مثلـه نهايـات البشـر وحجبـت عنـه العقـول الجزئية .

ومجمل القول إن الكندي مع سعة اطلاعه ومعرفته الجيدة بمذاهب اليونـان وخصوصـاً أرسـطو يقـف في أرض الديـن بقـدم ثابتـة وراسـخة فيدافع عن النبوة بالإجمال وعــن النبـوة المحمديـة بوجـه خـاص ، ويفهـم الوحـي الإسـلامي فهمـاً فلسـفياً ، ولا تفتـأ تظهـر في رسـائله عبـارات واضحة تدل على روح الإيمان العميق في مكنون صدره .

أرسطو والكندي

وها هو الكندي يخالف أرسطو في قِدَم العالم ويؤكد العناية الإلهية وصفات الإله المبدع الفعّال المدبـر الحكيـم ويخـرج مـن نظـرة الفلسـفي بوجهة نظر عامـة تقـوم علـى فهـم الديـن بـالعقل الفلسـفي وتنتهـي إلى

مذهب ديني فلسفي معاً فقد جمع بعض تصانيفه بين أصول الشرع وأصول المعقولات .

الكندي والموسيقا

قد نجد في تاريخ الإسلام من سبق الكندي إلى وضع بعض العلوم التي أسهم فيلسوف العرب فيها مثل علوم الحساب والهندسة والفلك والكيمياء والطب ولكنه كان على التحقيق أول من وضع علم الموسيقا فشق الطريق أمام الفارابي ثم ابن سينا وهما اللذان طورا هذا العلم وهذباه حتى أصبح علماً بمعنى الكلمة ليس معنى هذا أن الكندي ابتدع هذا العلم لأن الموسيقا فطرة في النفس البشرية لا تخلو أمة من الأخذ بطرف منها وكان البدوي في الجاهلية شاعراً بطبعه بغير علم (١) ولا صناعة يتغنى بالرجز لبساطة تفعيلاته وهو يحدو الإبل فكان الحداء أصل الغناء العربي وظهر منه النَّصْبُ أحب الأنواع للناس وأكثرها ملاءمة للغناء المرتجل كما اصطنع العرب الذين كانوا يقطنون الحضر كاليمنيين في الجنوب والغساسنة في الشام والمناذرة في العراق شيئاً من الموسيقا أرقى من موسيقا البدو ، واستمرت الموسيقا العربية في الإسلام مصاحبة للشعر ومع استقرار الدولة الأموية تأثر المسلمون بالحضارتين الفارسية والبيزنطية (٢) وتأثرت الموسيقا بما كان موجوداً عندهم وأخذت تتطور شيئاً فشيئاً متجهة إلى الانفصال عن الغناء فتضبط لها الأصول ويكشف فيها عن القوانين فلما ظهرت الدولة العباسية ورعى

(١) حتى جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي فوضع علم العروض وقنَّن الشعر .

(٢) حضارة الروم .

خلفاؤها حرية العلم والفن والثقافة والدين إلى أقصى حد صحب ذلك كله ارتقاء بالموسيقا وفي هذا الجو المعبق بعبير الغناء والموسيقا المملوء بالمناقشات الحامية حول محاسن الألحان ونقدها وتقديرها والمنازعات الشديدة حول تمسك بقديم عربي مأثور ومحافظة عليه أو تحرر وتجديد وأخذ بما عند الفرس والروم وخاصة بعد ترجمة كتب اليونان في الموسيقا ، ظهر الكندي يَفْصِلُ علمياً في الاختلافات ويشد أزر الروح العربية ويضع للمغنيين والموسيقيين الأصول النظرية التي تبنى عليها أنواع الغناء والألحان الموسيقية بما يكفل لها أن تكون سبيلاً واضحاً أمام المتعلمين .

مواضيع بحثه

أما المواضيع التي بحثها في مؤلفاته فهي في الطب والهندسة والجدليات والفلكيات والأحداثيات (١) والأنواعيات (٢) والسياسة والحسابيات والأحكاميات (٣) وفي الموسيقا .

مصادرة مكتبته

إن حياة هذا المعلم الكبير التي عاشها بين ترف الجاه والمال والعلم كانت محاطة بالحسد والغيرة والضغينة والشحناء ممن حوله فتراهم يدبّرون له المكائد ليوقعوه في المآزق الحرجة وقد دبروا له مرة مكيدة

---

(١) الأحداثيات : أحداث الحر والبرد والضباب .

(٢) الأنواعيات : أنواع الجواهر والحجارة وتلويح الزجاج .

(٣) الأحكاميات : علم التنجيم .

عند المتوكل (١) كادت تذهب به ، لقد وجه إليه المتوكل ضربة قاصمة حيث صادر مكتبته التي حوت أمهات المراجع وأنفس الكتب والمخطوطات الفريدة من نوعها ووضعها في خزانة عامة سميت بالخزانة الكندية .

وفاته

توفي في بغداد سنة /٢٥٨/ هـ .

خاتمة

كان الكندي مسجلاً للحضارة العربية التي عاش في ظلها إبان القرنين الثاني والثالث الهجري كما كان راسماً طريق هذه الحضارة في المستقبل لعدة قرون من الزمان وكان مسجلاً لحركة الترجمة التي نقلت تراث اليونان بوجه خاص إلى ما كان موجوداً عند الفرس والهند .

---

(١) المتوكل / ٢٣٢ - ٢٤٧ / هـ .

فجر الهدى والإيمان

علماء المسلمين والعرب

أحمد بن داود الدينوري



إعداد
فؤاد محمود الرفش

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود

الدينوري
عالم في النباتات
٢٠٥ - ٢٨٢ هـ
- ٤ -

اسمه ونسبه

أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري وهو فارسي الأصل تجري في عروقه دماء الفرس وتنصهر في نفسه عزة العرب وأمجاد الإسلام .

مولده

ولد في دينور (١) سنة /٢٠٥/ هـ .

نشأته

عاش رفيع القدر أصلاً ومعاشاً حتى صار إماماً من أئمة

---

(١) دينور مدينة من كبرى مدن الجبال في كردستان الإيراني سماها العرب (ماه الكوفة) .

العلـم (١) واللغـة والأدب ، نشـأ في دينـور وعـاش معظـم حياتـه فــيها أمضى شبابه في الرحلات وقادته خطواتـه إلى قلـب الحضـارة العربيـة في بلاد ما بين النهرين (دجلة والفرات) ثم امتدت بـه أسـفاره إلى المدينـة المنورة وإلى فلسطين وإلى شواطئ الخليج العربي فعاش فيها فـترة تركـت في نفسه ذكراً وفي فكره علماً .

شيوخه

وقد أخذ الدينوري دروسه عــن البصريـين والكوفيـين وتتلمـذ في فقـه اللغـة علـى والـد النحـوي الكـوفي ابـن السـكيت (٢) وعلـى ابـن السكيت نفسه ودرس معارف كثيرة وكان مفتوناً في علوم النحو واللغـة والهندسة والهيئة والحساب ، ثقة فيما يرويه ويمليه .

من رحلاته

انتقل إلى أصفهان (٣) سنة /٢٣٥/ هـ وعاش بها مدة من الزمــن

---

(١) عالم في الفلك والتنجيم والنبات والتاريخ والجغرافية .

(١) ابن السكيت : يعقوب أبو يوسف إمام في اللغة والأدب عينه المتوكل مؤدباً لابنه المعتز / ١٨٥ - ٢٤٧ / .

(٣) اصفهان : مدينة في ايران بين شيراز وطهران انجبت كثيراً من الأدباء .

اشتغل فيها برصد الكواكب وتسجيل نتائج الأرصاد التي يقوم بها في معمله الفلكي والمصادر التاريخية تجمع على أنه كان نحوياً لغوياً ومهندساً منجماً حاسباً ، راوية ، ثقة .

مكانته

يقول العالم اللغوي أبو حيان التوحيدي (١) في كتابه تقريظ الجاحظ (٢) : قلت لأبي محمد الأندلسي – وكان من أصحاب السيرافي (٣) – قد اختلف أصحابنا في مجلس أبي سعيد السيرافي في بلاغة الجاحظ وأبي حنيفة الدينوري . ووقع الرضى بحكمك فما قولك فقال : أنا أُحَقِّرُ نفسي عن الحكم لهما أو عليهما ، فقال : لا بد من قول : قال : أبو حنيفة أكثر نداوة وأبو عثمان أكثر حلاوة ، ومعاني أبي عثمان لائطة بالنفس (٤) ، سهلة في السمع ، ولفظ أبي حنيفة

---

(١) أبو حيان التوحيدي : علي بن محمد توفي حوالي /٤٠٠/ هـ . حكيم وفيلسوف صوفي ذو مشاركة في علوم شتى .

(٢) الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر من ائمة الأدب العباسي والعربي / ١٤١ – ٢٥٦ / له البخلاء – الحيوان – البيان والتبيين .

(٣) السيرافي : أبو سعيد الحسن بن عبدا لله نحوي وعالم بالأدب توفي في بغداد / ٢٨٤ – ٣٦٨ / هـ .

(٤) لائطة بالنفس : أي ملتصقة بها .

أعذب وأعرب وأدخل في أساليب العرب قال أبو حيان : والذي أقول وأعتقده وآخذ به وأسْتَهام (١) عليه أني لم أجد في جميع من تقدم وتأخر إلا ثلاثة لو اجتمع الثقلان (٢) على تقريظهم (٣) ومدحهم ونشر فضائلهم في أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ووسائلهم مدى الدنيا إلى أن يأذن الله بزوالها لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم أحدهم أبو عثمان (عمرو بن بحر الجاحظ) والثاني أبو حنيفة الدينوري فإنه من نوادر الرجال ، جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب ، له في كل فن ساق وقدم ورواء وحكم .

علمه وفضله

حكى ابن رواحة البَروُجِرْدي قال : زعموا أن أبا العباس المُبَرِّد (٤) ورد الدينور زائراً لعيسى بن ماهان (٥) ، فأول ما دخل عليه

---

(١) استُهام : من الهيام والوجد .

(٢) الثقلان : الإنس والجان .

(٣) تقريظهم : مدحهم .

(٤) المبرد : أبو العباس محمد بن يزيد نحوي تلميذ المازني والسجستاني / ٢١٥ - ٢٨٥ / هـ .

(٥) عيسى بن ماهان : وكان والياً على الدينور .

وقضى سلامَةُ قال له : أيها الشيخ ، ما الشـاة المُجثّمـة الـتي نهـى النـبي صلى الله عليه وسلم عن أكل لحمها ؟ قال : هـي الشـاة القليلـة اللـبن مثل اللّحْبَة (١) فقال : هل من شاهد ، قال : نعم قول الراجز :

لم يبق من آل الجُعَيْد نسمه   إلا عُنَيْزٌ لَحبةٌ مُجثَّمه

فإذا بالحاجب يستأذن لأبي حنيفة الدينوري فأذن لـه فلمـا دخـل قال له عيسى بن ماهان : ما الشاة المجثمة التي نهى النبي صلـى الله عليـه وسلم عن أكلها ؟ قال : هـي الـتي جثمـت علـى ركبتيهـا ونحـرت مـن قـفاهـا فقال : كيف تقول وهذا شيخ العراق (المبرد) يقـول هـي مثـل اللجبة وهي قليلة اللبن وذكر الشاهد فقال أبو حنيفة : أيمان البيعـة تـلزم أبا حنيفـة إن كـان هـذا الشـيخ سمـع هـذا التفسـير وإن كـان البيـت إلا لساعته هذه فقـال المـبرد : (صـدق الشـيخ أبـو حنيفـة ، أَنْفِـتُ أن أردَ عليك من العراق وذكـري قـد شـاع ، فـأول مـا تسـألني عنـه لا أعرفـه فاستحسن منه هذا الإقرار ، وحفظ للدينوري مقامه ومكانتـه العاليـة في الالمام والاطلاع على شتى الفنون والعلوم .

---

(١) اللحبة : وهي الشاة القليلة اللبن .

نبوغه

لقد كان الدينوري عالماً بحق في جميع أنواع العلوم والمعارف حباه الله بعقلية واسعة استوعبت معارف كثيرة ، وأنفرد بها عن علماء تلك الفترة وما تلاها ممن كان لهم شأن في تاريخ الأدب العربي ، وعلوم اللغة ، فقد كان الدينوري مجدداً ومبدعاً دون تكرار عن أسلافه ومعاصريه وإن مؤلفات الجاحظ تثبت إثباتاً قاطعاً ما شهد به الجاحظ في حرارة وتحمس لأبي حنيفة وتوضح في نفس الوقت الاختلاف الموجود بينهما من ناحية طبيعة عقل كل واحد منهما وتأثره بالتكوين العلمي فآفاق الدينوري كانت أكثر اتساعاً من آفاق معاصريه ، بل ومن أساتذته الذين اتخذوا الوسائل اللغوية وسيلة للشهرة وضحوا في سبيلها بكل شيء .

مؤلفاته

لقد حظيت بعناية رجال التراجم قديماً وحديثاً وبلغت جملتها عشرين كتاباً في أنواع مختلفة وهذه الكتب هي :

- تفسير القرآن الكريم ويقع في ثلاثة عشر مجلداً .

- كتاب الوصايا : وموضوعه أحكام المواريث في الشريعة الإسلامية .
- كتاب في حساب الدَّوْر والعول ويدور حول أجزاء الميراث التي تردّ على الورثة الأصليين إذا لم تستوفها أنصبتهم الشرعية.
- كتاب إصلاح المنطق : وقد اعتبره بعض العلماء الأوربين رسالة في المنطق .
- كتاب الجمع والتفريق ويشمل جزءاً من علوم البلاغة .
- كتاب الشعر والشعراء ويغلب عليه صفة كتب التراجم .
- رسالة في الطب وكتاب البحث في حساب الهند وكتاب الجبر والمقابلة وكتاب نوادر الخبر وكتاب في الفصاحة وآخر فيما يلحن فيه العامة وقد أورد فيه الدينوري ما شاع بين الناس من أخطاء لغوية .
- وهناك كتاب الأنواء وهو يدل على حظ وافر من علم النجوم وأسرار الفلك وعجائب القبة السماوية وقد اعتبر البيروني (١) إمام الفلك هذا الكتاب اعتباراً كبيراً وسجّل منه في لوحاته أجزاء كاملة اقتبسها كلها من الدينوري ، وهناك كتاب القِبلة والزوال وكتاب الكسوف وكتاب البلدان وسنلقي الضوء على بعض أهم كتبه .

---

(١) البيروني : عالم فلكي / ٣٦٢ - ٤٤١ / هـ .

كتاب النبات

وقد اشتهر به صاحبه وهـذا الكتـاب يُعَّدُ ثمرة لدراسة الشعراء الأقدمين دراسة لغوية والغرض من تأليفه هو شرحُ النباتات الكثيرة التي ذكرها الشعراء العرب في أشعارهم وتوضيحُ مدلولاتها حتى يعلم العقل العربي المنابت الأولى لحياته العربية .

أهمية هذا الكتاب :

ولهذا الكتاب أهمية عظمى لدى علماء الغرب ، الذين اعتمدوا عليه في مؤلفاتهم حيناً طويلاً من الزمان واعتبروه دائرة معارف نباتية عربية على درجة كبيرة من الوضوح ، وإنه لمن القدرة الفائقة أن يصنف الدينوري – وهو فارسي الأصل – مُؤَلَفاً علمياً في نباتات التربة العربية . ويكون لذلك المؤَلَّف ذلك الصيت الذائع في المباحث العلمية .

مضمون هذا الكتاب :

ويبدأ هـذا الكتـاب بوصـف تفصيلي لأنواع تربة بلاد العرب وتركيبها ، ومناخها ، وتوزيع مائها ، والأحوال العامة اللازمة لنمو النباتات ، ثم يتناول الكتاب تصنيف النباتات بصفة عامة ، وتركيب كل نبات على حدة ، مقسماً النبات إلى ثلاثة أنواع ، نباتات تزرع

ليقتات الناس بها ونباتات برية ونباتات تثمر ما يؤكل ، ويتناول الكتاب النوع الثاني من النباتات حسب أماكن وجودها ثم وفق طبيعتها وخواصها وعلى قدر قيمتها الاقتصادية ، وقد أصبح الدينوري مرجعاً لفقهاء اللغة المتأخرين في أسماء النباتات .

كتاب الأخبار الطوال

ويذكر فيه الدينوري ، قصة آدم وقصص الأنبياء من بعده وتاريخ الوثنية عند الفرس وفي اليمن ، وقصة الاسكندر الأكبر ، ويعرض الكتاب تاريخ الساسانيين في خطوط واضحة المعالم ، وغزوات العرب الأولى على حدودهم عندما بدؤوا دورهم الأساسي في المجال العالمي ويحكي الكتاب بالتفصيل حملات خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح وموقعة نهاوند والقادسية ، ويذكر سقوط امبراطورية الفرس تحت سلطان العرب ولا يكاد الدينوري يعرض في كتابه لتاريخ الخلفاء الراشدين إلا بقدر صلته بفتح بلاد فارس ، ثم يروي الكتاب المتاعب التي لحقت بالمسلمين بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ويُصَوِّرُ حرب صفين مبتدئاً بأمتع فصل من فصولها التاريخية بفصل المنافسة بين معاوية وعلي ولا يفوته أن يبرز تاريخ الحسين بن علي رضي الله عنهما فيذكر حياته وأعماله ويصف مقتلة كربلاء وصفاً دقيقاً مؤثراً ، مبيناً

أسبابها وموضحاً تخاذل أهل العراق عن نصرة إمامهم الذي دعوه إليهم مما كان له عظيم الأثر في تفتيت الجبهة العربية ، ولا يمس الدينوري تاريخ الحكام الأمويين إلا بالقدر الذي يتصل بالحركات الدينية والسياسية في أيامهم ثم يعود الدينوري فيكمل تاريخه في اختصار من موت مروان بن محمد (١) آخر الخلفاء من بني أمية وقيام الدولة العباسية (٢) إلى موت الخليفة المعتصم بالله /٢٢٧/ هـ ، وإنه لما يلفت النظر في هذا الكتاب أن الدينوري وقف فيه سنة /٢٢٧/ هـ وأهمل تدوينَ الحوادث التاريخية في الحقبة التي عاشها أبو حنيفة الدينوري بعد ذلك حتى /٢٨٢/ هـ . وعاصر فيها الأحداث الجسام وهي قائمة بين الأحزاب المتطاحنة على السيادة في الدولة وهي الحزب العربي والفارسي والتركي ويبدو أن الدينوري عني في كتابه هذا بالتأريخ للحياة الفارسية في ظل الحكام فُرُساً كانوا في عربا ، أكثر من عنايته بالتأريخ للحياة العربية في بلاد فارس ، وهو حين يعرض الحوادث يسوق منابتها الأولى دائماً ومراجعها الأصلية وملابساتها الدخيلة ويذكر حولها كل ما يستبين به الباحث فيها إلى الحقائق (والفترة المهملة في التأريخ كانت فترة اضطراب سياسي وكان العصر عصر كيد وحذر .

---

(١) مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين قتل سنة / ١٣٢ / هـ .

(٢) قيام الدولة العباسية : / ١٣٢ / هـ .

المؤلفات ودورها

وكانت المؤلفات في عصر الدينوري تلعب دوراً كبيراً في توجيه سياسة الدولة وتركيز سلطان الحكم وفي بعث روح النقد الاجتماعي والسياسي ، وقد جرّت المؤلَفات الوبال (١) على أصحابها أحياناً فكان القتل نهاية ابن المقفع (٢) وقد خشي أبو حنيفة إن هو أرَّخ لهذه الفترة المضطربة أن يَجُرَّ عليه كتابه الوبال وأن يتخذ منه مناهضوه (٣) مادة مسمومة تجلب عليه الشر ، والدينوري وهو عالم فلك وصاحب المرصد قد غلب عليه عقله العلمي في كتابة التاريخ فلم يتناول في كتابه الحوادث القصيرة الأجل وإنما عني بكتابة الأخبار التاريخية التي طالت أزمانها وبعدت نتائجها وكثر الحديث عنها ، إنه بالرغم من أن المعارف العلمية البحتة كانت تشغل باله أكثر مما يشغله غيرها إلا أنه استطاع في كتابه هذا أن يكتسب نبوغاً ممتازاً في تصوير الحوادث التاريخية بأسلوب عربي مبين وبطراز فريد من المنهج التأليفي فهو لا يذكر التاريخ عاماً بعد عام كما يفعل مؤرخو العرب وإنما يحكي الأحداث والحوادث من

---

(١) الوبال : الشِدة وسوء العاقبة .

(٢) ابن المقفع : عبدالله أصله فارسي اشتهر بكليلة ودمنة توفي سنة/٢٤٢/ هـ.

(٣) مناهضوه : أعداؤه .

بدئها إلى ما صارت إليه ويتبعها بما يلزم ذكره من ملابساتها مما جعل كتابهُ مجموعة أدبية من القصص التاريخي وقد حرص أن يذكر المصادر التي يروي عنها ولكنه لا يورد السند كاملاً وإن أبرز مؤرخ روى عنه هو الهيثم بن عدي كما اعتمد على الشعبي أبي عمرو بن شرحبيل عظيم الدراية كثير الرواية ، كما روى عن الأصمعي (١) وكان إماماً في الأخبار والنوادر والمُلَحِ والغرائب .

كتب التاريخ القديمة

وهي ذات شأن واحد في معالجة تاريخ النشاط للجنس البشري في حياته الأولى وكل الكتب تسير على هذا النمط من الاعتماد على المصادر الدينية وعلى القصص الشائع في أدب الشعوب وعلى الوقائع المترسبة في عقول الأجيال بعضها عن بعض وهذه كلها تحوي بعض المعارف من الميثولوجيا (٢) التاريخية التي تعوزها الأسانيد المادية العلمية .

---

(١) الأصمعي : أبو سعيد عبدالملك بن قريب الباهلي من مشاهير علماء اللغة العربية عهد إليه هارون الرشيد بتعليم ابنه الأمين / ١٢١ - ٢١١ / هـ .

(٢) الميثولوجيا : الأساطير .

الأقسام الرئيسية في الكتاب

ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول ويتناول فيه الدينوري الأحداث التاريخية ابتداء من آدم عليه السلام والأنبياء من بعده ثم يتناول أخبار العرب البائدة وملوك الحبشة والفرس واليمن ومملكة داود وعرش بلقيس ودولة سليمان ثم يذكر بني اسرائيل وملك تبّع ، أما القسم الثاني فهو الجزء الخاص بتاريخ بلاد الفرس وقد بدأه المؤلف بتاريخ الاسكندر وفتوحاته شرقاً وغرباً ثم خلص منه إلى ذكر ملوك الطوائف وأحوال بلادهم المذهبية والحربية وقد خصّ بلاد الفرس بكثير من الإفاضة فاستوعب ملوكهم واحداً بعد واحد وذكر من أحوالهم قصصاً تاريخياً رائعاً صورّه بأسلوب أدبي ممتاز كما عرض في هذا القسم لأحوال الفرس والروم في عهد كسرى تقدمةً لتاريخ العرب بعد ظهور الإسلام ، أما القسم الثالث من هذا الكتاب فيذكر فيه الدينوري حروب العرب مع العجم والفتوحات الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفي عهد الحكام من بعده ويتناول أيضاً أشعارهم ومأثور أقوالهم ومشهور أيامهم ويذكر فيه خلافاتهم وما صارت إليه أمورهم دولة بعد دولة حتى يصل إلى موت المعتصم وهو نهاية الكتاب . وهذا القسم أهم أقسام الكتاب وأكبرها وقد عني فيه المؤلف بذكر تفاصيل الوقائع وربط الأسباب والمسببات والإبانة عن العوامل الذاتية والاتجاهات الشعوبية التي قوضت أركان

الكيان العربي وفرّقت المذهب الإسلامي إلى شيّع وطوائف متنابزة قد نسيت في معترك قتالها السياسي الأهداف السامية ، التي قامت على تحقيقها الدولة الإسلامية في المجال الدولي ، تمكيناً للعدالة ونشراً لمبادئ التكافل الاجتماعي .

أسلوبه

ويمتاز أسلوب الدينوري في كتابته بأنه أسلوب منطقي ، يخاطب العقل قبل أن يثير العاطفة ويستهوي القارئ فيدفعه إلى قراءة الكتاب غير عَجِلٍ ولا ضَجِرٍ في لفظ سهل وجرس موسيقي متلاحق وعبارة متصلة أخاذّة ، نسجها بدِقة وبراعة وتفرد ، ولغته في الكتابة ليست علمية ولا فلسفية ولا تاريخية ولكنها نثر فيه كثير من الفن وفيه ميل إلى إحداث المتعة عند القارئ وقد تأثر الدينوري إلى حد كبير بما تأثر به النثر في العصر الأول من عهد الدولة العباسية بأسلوب القرآن الكريم والفلسفة والفكر اليوناني والفن الفارسي وهي العناصر التي تفاعلت في كيان اللغة العربية .

تفرد الكتاب

ويكاد كتاب الأخبار الطوال ينفرد بأنه من أوائل الكتب المتكاملة التي وضعت باللغة العربية لتأريخ حياة العزة القومية وقت الحكم العربي الذي شملت حدوده البلاد شرقاً وغرباً من الصين إلى المحيط الأطلسي فالكتاب يكشف إلى حد بعيد عما ابتكر الإسلام وأبدع في الحرب والإدارة والسياسة بعد أن انتشر حملة لوائه من جزيرتهم فسادوا في بلاد الله من أرض المعمورة وأبانوا في مواقفهم العديدة عن عقول مثقفة ونفوس شريفة وبُعْدِ نظرٍ في إدارة الممالك والشعوب .

وفاته

توفي سنة /٢٨٢/ هـ .

خاتمة

إن المتأمل لحياة أولئك المبدعين يجد أن كل واحد منهم عالم موسوعي والدينوري نراه فلكياً وصاحب مرصد كما أنه عالم بالفرائض واللغة والنحو والأدب بالإضافة إلى نبوغه في الطب والهندسة والحساب ويُعدُ عالماً متفرداً في علم النبات كما كتب في الجبر والمنطق .

الطبري
عالم في التاريخ
٢٢٤ هـ - ٣١٠ هـ

- ٥ -

اسمه ونسبه

أَبُو جعفر محمدُ بنُ جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري.

مولده

ولد (بآمل) عاصمةِ اقليمِ طبرستان سنة /٢٢٤/ هـ .

مكانة والده

كان أبوه رجلاً صالحاً ، رأى في نومه أن ابنه أبا جعفر واقف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه مخلاةٌ (١) مملوءةٌ بالأحجار وهو يرمي بين يديه وراح الأبُ يخبر ابنَه الصغيرَ بهذه الرؤية مرات ومرات فكانت هذه البشارةُ حافزاً له على الاجتهاد في طلبِ العلمِ والدأبِ النشيطِ في الاستزادةِ من ينابيعه ثم الكد المتصل في التدريسِ والتأليفِ طيلةَ حياتِهِ .

---

(١) مخلاة : كيس من القماش .

عصره العلمي

سنعود إلى الوراء لنرى على أشرطةِ الزمن ما يعنينا من الجو الفكري الذي عاشَ فيهِ الطبري وتأثر به ، الجو العام في العالم الإسلامي والجو الخاص في الأقاليم التي ارتحلَ إليها وأقامَ بها وارتوى من ينابيعها سنرى في هذه العودة أن الفترة بين شروق حياة الطبري وغروبها أعظم الفترات ثراءً بالعلمِ والعلماءِ فقد عاشَ معظم القرن الثالث وأدركَ عقداً من القرن الرابع الهجري ، فإذا نظرنا إلى العلومِ الدينية من قراءات وتفسير حديث وفقه وجدناها قد وصلت إلى قمتها وبسطت (١) فروعها حيث استقرت دعائم المذاهب (٢) الأربعة وكثرت مؤلفاتها وانتهت القراءات إلى غاياتها ، وسُطِّرَت كتب الصحاح (٣) في الحديث وراحت روايات التفسير بالمأثور تشرق وتغرب وأصبح التفسير بالرأي يزاحمها وينافسها ، أما العلوم اللغوية من نحو وصرف وعروض وأدب وبلاغة فقد كانت تسارع إلى النضج والاستقرار على مذاهب وآراء ومؤلفاتها تتوالى وتتنافس وفي هذه الفترة وُضِعَتْ كتب كثيرة في السير والمغازي والفتوحات ، وكان المسلمون قد ترجموا كثيراً من كتبِ اليونان والفرسِ والهنود واستفادوا منها وأضافوا إليها كثيراً من ثمرات تفكيرهم وابتكاراتهم .

---

(١) طالت .

(٢) الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي .

(٣) البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه وأبو دا ود والنسائي .

أحوال الدولة الإسلامية

وإذا كانت الدولة قد اعتراها الوهن السياسي ، فضعفَ (١) الخلفاء العباسيون حتى انتسخ ظلهم وتمزقت مملكتهم الكبرى إلى ممالك وولايات وإمارات ، فإن النهضة العلمية والأدبية لم تتأثر ولم تتوقف بل استمرت تشق طريقها متأثرةً بدوافعها الأولى أثناءَ كانت الدولة قوية جادة في تنشيطِ العلم وتشجيعِ رجالهِ ومتأثرةً بدوافعِ جديدةٍ من تقدير الحكامِ للعلمِ والعلماءِ ومن شغفِ العلماءِ والأدباءِ بالدرسِ والتحصيلِ وتنافسِ العواصم وباقي المدن في الإنتاجِ والابتكارِ وقيادةِ الحركةِ الفكرية والأدبية ولم يختص إقليم دون آخر بل إن هذه التيارات جرت في العالم الإسلامي كله من الري إلى الأندلس وقد تنقل الطبري بين طبرستان والعراق والشام ومصر واستقى من ينابيع الثقافة في تلك البلدان .

رحلاته

ها هو أبو جعفر يقضي سنواتٍ في آمل تزيده إلى المعرفة ظمأ فينتقل بين مدنِ طبرستان وغيرها من بلاد الفرس يستقي من ينابيعها المعرفة فيبدأ بالسفر إلى الرَّي (٢) فيأخذ الحديث عن محمد بن حميد

(١) تولى الخلافة في حياة الطبري كل من المعتصم والواثق والمتوكل والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر وكانت الدولة الطولونية قد قامت بمصر /٢٤٥ - ٢٩٢ / والدولة السامانية في بخارى /٢٦١ - ٣٨٩ / والدولة الحمدانية في حلب والموصل /٢٧٢ - ٣٧١ / هـ .

(٢) الـرَّيْ : مدينة في شمال ايران فتحها العرب في زمن عمر بن الخطاب وفيها ولد هارون الرشيد .

الرازي والمثنى بن إبراهيم الأبسلي .

ويدرسُ التاريخَ على يد محمد بن أحمد بن حماد الدولابي ثم يشد رحاله إلى بغداد ليسمع من عالِمها الجليلِ المحدِّثِ الفقيهِ أحمد بن حنبل ولكنه قبل أن يصلَ إليها يتناهى إلى سمعهِ موتُ الإمام ابن حنبل فينصرفُ عن بغدادَ ولا يدخلها ولكنه يكملُ مسيرَهُ إلى البصرة فيسمع من علمائِها ثم ينتقلُ إلى واسط فيسمعُ من شيوخها ثم يرحل إلى الكوفة ثم ما يلبثُ أن يفكرَ بالعودة إلى بغداد حيث منارةُ العلمِ والمعرفةِ فيدرسُ هناك القراءات على أحمد بن يوسف التغلبي ويتلقى فقه الشافعية على الحسن الزعفراني وعلى أبي سعيد الاصطخري ولكن ظمأه لا يرتوي فيعزمُ على الرحيل إلى مصر لينهل من علومها لكن شوقَه إلى المعرفةِ يُعرِّجُ به إلى الشام فيقيم في بيروت مدةً يلقى فيها العباسَ بن الوليد البيروتي ويقرأ عليه القرآنَ كلَّهُ برواية أهلِ الشامِ ، ويندفعُ إلى مصرَ - بعد أن قضى أربَهُ من الشام - فيدخلها سنة /٢٥٣/ هـ أوائل عهد أحمد بن طولون أقام مدة في الفسطاط (١) ثم عنَّ (٢) له أن يعود إلى الشام فلما قضى من هناك إرباً علمياً رجع إلى مصر سنة /٢٥٦/ هـ وكانت مصرُ آنئذٍ ثريةً بعلمائها الذين استسقاهم الطبريُ وغرفَ من معين (٣) معرفتهم ولكن الحنينَ إلى بغداد يشدهُ إليها مرة أخرى ثم يعودُ إلى طبرستان في أولِ زيارةٍ لها منذ

(١) الفسطاط مصر القديمة بناها عمرو بن العاص وفيها جامع الفسطاط .

(٢)عنَّ : عرضَ .

(٣) المعين : الماء الجاري العذب .

أن فارقها فيقضي فيها مدةً ثم يعود إلى بغداد ومما يذكر أنه يعود مرة أخرى إلى طبرستان لكن بغدادَ أبتْ إلا أن تجتذبَهُ فعاد إليها وأقام بها وانقطعَ للتدريس والتأليفِ إلى أن ودّعَ الحياة .

جرأته في الحق ورفضه القضاء

لا غرابةَ في أن يكون الطبريُ شجاعَ القلبَ جريئاً في إعلان ما يعتقده حقاً لأنه قد استكملَ الأسبابَ التي تُسَلِحُه بهذ الجرأةِ من علمٍ واسعٍ وورعٍ مشهودٍ وإباءٍ مترفعٍ واستهانةٍ بالدنيا ومظاهرِها لهذاكلهِ كان أبُو جعفر ممن لا يأخذُه في الحقِ لومةُ لائمٍ وقد عُرِضَ عليه القضاءُ فأبى أن يقبلَهُ ومبعثُ رفضهِ أنه جرىءٌ في الحق لا يراعي غيرَ الله سبحانه وتعالى ومن شأن القاضي أن تُعرضَ عليه منازعاتٌ يتصلُ بعضها بأمراءِ ذلكَ العصرِ وحكامهِ وهو لا يستطيعُ أن يمالىءَ (١) أميراً أو يجاملَ وزيراً أو يحابي كبيراً فمن الخيرِ له أن يكون بعيداً عن هذه المآزقِ والمتاهاتِ وأن يفرغَ للعلمِ والتأليفِ وتثقيفِ طلابِ العلمِ ، ناعماً بحريتهِ وراحةِ ضميرهِ ، وربما كان ورعُهُ هو السبب في رفضِهِ أيضاً ولايةَ المظالمِ مخافةَ أن يجورَ في حكمٍ من أحكامه متأسياً بالإمامِ الأعظمِ أبي حنيفةَ النعمان في رفضهِ منصبَ القضاءِ وليس بمستبعدٍ أن يكونَ الطبريُ قد رفَضَ القضاءَ حتى لا يكونَ لحاكمٍ ولايةٌ عليه أو سلطانٌ .

---

(١) يمالىء : يجامل ويحابي .

تواضعه

كان الطبريُ ورعاً زاهداً في الدنيا راغباً عما في أيـدي النـاس وكـان عظيمَ الأنفةِ والإباءِ واسـعَ العلـم عزيـزَ الثقافـةِ ذائـعَ الصيـتِ كثيـرَ الأتبـاعِ فاستغنى بذلك كله عن الزهوِ والخيلاءِ .

أثر شخصيته

بهذه الشخصية القوية وبهذه الأخلاق العاليـة النبيلـة وبهـذا التفـوق الفكري والثقافة الزاخرة التي أفاض منهـا الطـبري علـى تلامذتـه ومعاصريـه ومَنْ بعدهم لقد تبوأ الطبري مكانةً رفيعةً في حياتِه وبعد مماته وحقَّ لتلامِذتِهِ (١) والمعجبين (٢) بعلمهِ أن يؤرخوا له في كتبٍ مستقلةٍ وهناك العديـد مـن المؤرخـين لطبقـات العلمـاء بجمعـون علـى الإشـادةِ بـه في الفقـهِ والحديـثِ والتفسـير والقـراءات والتـاريخ ومجمعـون علـى التنويـهِ بورعـهِ ودينِـه ونُبـلِ أخلاقهِ ولهذا بكاه الناس يوم موتِه بكاءَ العارفين المحزونين لفراقِه .

تلامذته

من شأنِ المنهلِ العذبِ أن يكثر وراده ويتتـابع قصـاده ثـم لا يـزداد على الأيام إلا كثرة وراد وقصّاد ، وقـد كـان الطـبري منهـلاً عذبـاً للثقافـةِ الشـــائعة في عصـره وإن شـئتَ فقل إنه ينـابيع الثقافـة الدينيـة والأدبيـة والتاريخية فليس غريباً أن يتحلقَ التلاميذ وطلاب العلم حوله في كـل مكـان يحل به لينهل كـل منهم ما يسـتطيع أن ينهـل ، وكـان هــؤلاء يُحِلُّـون

(١) ابن كامل وابن حبيب وابن علم الدين .

(٢) القطفي ألّف كتاباً أسماه (التحرير في أخبار محمد بن جرير) .

أستاذهم ويحبونه لعلمه وسمو خلقه وحرصه على إمدادهم بالمعرفة وكان الطبري بالمقابل يحبهم لأنهم وارثو علمه وحاملو مذهبه وناقلو آرائه وقد أضفى عليهم أبوته إذ لم يكن له ولد ، وهم يصفونه بأنه كان لا يرضى أن يخصَّ أحداً منهم بشيء من علمه ، فإذا قرأ على جماعة كتاباً وتخلف أحدهم أجَّلَ القراءةَ حتى يحضر الغائب و لم يكن يجد غضاضةً في أن يعامل كبارهم معاملةَ الإخوة وصغارهم معاملةَ الأبناء ، والذي يتتبع تاريخ تلامذته يجد بعضهم قد سلكوا طريق أستاذهم في التأليفِ ويجد بعضهم قد نَصَّبَ نفسه للدفاعِ عن مذهبه والذود عن آرائه ، وآخرين منهم أرخوا حياة أستاذهم في تفصيلٍ تارةً وفي إجمالٍ تارةً أخرى وبهذا كله كانوا أوفياءَ لأستاذهم بعد مماته كما ودوه (١) في حياته لقد انتهجوا منهجه وسلكوا مسلكه واصطبغوا بصبغته فصار الطابع المميز لكل منهم أنه تخرَّجَ من مدرسةِ الطبري .

نبوغه

وليس على الطبري من لوم في أنَّ أيَ واحدٍ من تلامذته ومريديه لم ينبغ نبوغَ أستاذه و لم يبلغ المكانة العليا التي بلغها لأن الطبري فذ موهوب والنبوغ يتدفق من بذرةٍ لا يهبها أستاذ بل واهبها هو الخالق جلَّ وعلا وغاية ما يصنع الأستاذ أن يتعهدَ هذه البذرة برعايته وعنايته وتربيته لتشقَّ تربتها وتتنسمَ الحياة ثم تؤتي أكلها بعد أن تكون قد أزهرت وأينعت

(١) ودوه : أحبوه .

والطبري قد أدى رسالته خيرَ أداء تجاه تلاميذه ومريديه ووجّهَهُم وشجعهم وغذّى عقولهم ونوَّر قلوبهم وأضاءَ بصيرتهم وكان قدوتهم في عمله وأخلاقه وسيرته العطرة .

ورعه

كان الطبري ورعاً تقياً زاهداً شديدَ التوخي والحذر من الوقوعِ فيما ينافي التدين والورع وكان على قسطٍ عظيمٍ من النزاهةِ ، ومن مظاهرِ ورعه أنه كان مع اشتغاله بالتأليف والتدريس يحرص على قراءةِ قدرٍ من القرآنِ اعتادَ أن يقرأه وكانت قراءته تجمعُ بين الترتيلِ وبين الخشوعِ حتى لقد قال بعضُ سامعيهِ إنه لم يكن يظن أنَّ إنساناً يحسن القراءةَ مثله .

إباؤه وعزة نفسه

ينبيء تعقب أخلاقه في جميعِ حالاته عن أنفة وعزة نفس وإباء وشمم فلم يذلَ (١) مرةً و لم يستهن بكرامته قط ويقول بهذا الصدد : لما ترعرتُ سمح لي أبي بالسفرِ من مدينةِ (آمل) وكان يبعثُ إليَّ بالمالِ فأبطأتْ عليَّ النفقةُ مرةً فاضطررتُ إلى أن فتقتُ كمَّي القميص فبعتهما لقد كان يستطيع أن يقترض ثم يردَ القرض بعد أيام قليلة ولكنه لم يفعل وكان يستطيع أن يلجأَ إلى ما يلجأُ إليه الطلاب الغرباء في عصره من الاستعانةِ بذوي الثراءِ ومحبي العلم لكنه آثر أن يفتق كمَي قميصه ويبيعهما حتى توافيه نقود أبيه ، ولقد لازمته عزة النفس طيلة عمره حتى كان يرفض الهدايا والعطايا والمنح لأنه خط لنفسه خطاً لا يتجاوزه على ألا يقبل هدية لا يستطيع أن

---

(١) يذل : ينحرف .

يكافئ بمثلها ، فإذا كانت فوق طاقته ردها واعتذر إلى هاديها ، وكثيراً ما رفضَ هدايا الوزراء والكبراء مع تشوقهم لقبول هداياهم .

ظرفه

لم يكنْ ليصرفه الجدُ الدائبُ في تحصيل العلم والتدريسِ والتأليف عن الدعابةِ ووهاجةِ السمت (١) والعنايةِ بالنظافةِ وأناقةِ المظهرِ والتنعمِ بما أحلّهُ الله فقد كان ظريفاً في ظاهره نظيفاً في باطنه ، حسَنَ العُشرةِ لمجالسيه مهذباً في جميع أحوالِهِ لا يقول إلا الصدقَ والحق .

الطبري المفسر

علومٌ ثلاثةٌ لا يُذكَرُ الطبريُ إلا مقروناً بها كلها : التفسيرُ والتاريخُ والفقهُ فوضعَ الطبريُ في التفسيرِ كتاباً أسماه (جامع البيان في تفسير القرآن) واعتمد فيه على المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آراء الصحابةِ والتابعين ، ويبدو من تتبُعِ الرواياتِ التي سجَّلها في كتابه أنه رجعَ إلى كتبِ التفسيرِ المصنفةِ عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن سعيد بن جبير وعن مجاهد بن جبر وعن قتادة بن دعامة وعن الحسن البصري وعن عكرمة وعن الضحاك بن مزاحم وكذلك الصحابيِ الجليلِ عبد الله بن مسعود ، ثم أضاف إلى التفسير بالمأثور ما عُرِفَ ونُسِبَ إلى عصرهِ من نحوٍ ولغةٍ وشعرٍ .

كما أنه رجع إلى القراءات وهو عالمٌ بها وتخيَّر منها ورجَّحَ ما تخيره واستعان بكتبِ الفقهِ فعرض كثيراً من آراءِ الفقهاءِ في مناسباتها وكذلك

---

(١) هيئة أهل الخير .

استعان بكتبِ التاريخِ فنقلَ بعضَ أخبارِ العجمِ عن ابن اسحاق (١) وغيرِهِ كما نقلَ عن وهب (٢) بن منبه وكذلك عرض بعضَ آراءَالمتكلمين وبخاصةٍ المعتزلة وكان يسميهم أهلَ الجدلِ وكثيراً ما أعلنَ رأيَهُ فرفضَ رأياً ورجَّحَ آخر مدللاً على أسباب الرفضِ والترجيحِ معللاً تصويبِ ما ذهب إليه كما قلّل من ذكر الإسرائيليات (٣) لأنها كما ذكر لا قيمةَ لها .

قيمة جامع البيان في تفسير القرآن

لعله قد تبيَّنَ من مصادرِهِ ومن منهجه أنه السجلُ الجامعُ الأمينُ لما رُوِي عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابةِ وعن التابعين من آراءٍ في التفسير وبهذه الصيغةِ ينفردُ بين كتبِ المفسرين وينهض وحدَهُ بإسعاف الباحثين إذا ما أرادوا التعرفَ على آراءِ السلفِ وهو إلى هذا لم يكن مسجلَ آراءٍ وأسانيدَ فحسب بل كان يشفعُ بهذا التسجيل رأيَهُ ويُدلِلُ عليه كما سبق وذكرنا وبخلاف ما سلكه في كتاب التاريخ والذي سنأتي على ذكره فقد اتسم بالتسجيل المحايد بدون إبداء رأي أما منهجهُ التفسيريُ في جامع البيان فقد حملَ التسجيلَ والتعليقَ وإبداء الرأي فلهذا عرفَ الأقدمون قدرَهُ وعظموا مكانته .

---

(١) ابن اسحاق : أبو بكر ت/١٠١/ هـ محدث ومؤرخ من أصحاب السير والمغازي .

(٢) وهب بن منبه : مؤرخ من التابعين ت/١١٤/ هـ ولد باليمن وهو فارسي الأصل .

(٣) الإسرائيليات : الأساطير والخرافات .

الطبري المؤرخ

كان التاريخُ قبيل الطبري وفي عصره قد خطا خطوتين واسعتين في ميدان تطورهِ أولاهما : استقلالُه وانفصالهُ عن الحديث فراح كلُ مؤرخٍ يختصُ باتجاهٍ معين فهذا يكتب في تاريخِ الشامِ وهذا في تارخِ مصرَ وهذا في تارخ العراقِ وهذا يكتب في حربِ الردةِ وذاك يكتب في تدوين أخبار الأوائل وهذا في تاريخ الأقاليم وكان من أثر هذا الاستقلال أن ازدهرَ التاريخُ الإقليميُ على أن الكتابة في التاريخ العام لم تتوقفْ عن مسايرةِ هذه الاتجاهات والخطوةُ الأخرى : كانت تُمثِلُ المكانةَ العاليةَ للتاريخِ والمؤرخين فنرى الطبريَ وهو لا يعتمدُ على الأساطيرِ والأخبارِ التي لا ضابطَ لها بل الاعتمادُ كلُهُ على كتبٍ مدونةٍ في السيرةِ وتاريخِ الأقاليمِ والتاريخ العام وعلى الوثائق والسجلات وعلى الكتب المترجمة من اللغات الأخرى وبهذا صار التاريخُ عِلْماً قيماً لا يستنكفُ العلماءُ والفقهاءُ عن دراستِهِ وعلى هذا النحو سارَ مؤرخو عصرِ الطبري وما بعدهم فأصبحَ المؤرخون أصحابَ مكانةٍ عاليةٍ .

تاريخ الأمم والملوك

ينبيء اسمُ الكتاب عن موضوعهِ فالكتابُ ينقسمُ إلى قسمين الأولُ تناول فيه الطبري بدءَ الخليقة فتكلم عن الزمان ما هو وكم سنة مضت على بدءِ الخليقة ومتى تنتهي وذكر إبليس وما قيل في حقيقته وذكر مكانتَهُ قبل خلقِ آدم ثم استكبارَهُ وعصيانَهُ حتى طُرِدَ من رحمةِ اللهِ ، كما عرضَ في هذا القسم للأنبياء والرسلِ وأما الأممُ التي أرّخَ لها فهم الفرسُ والرومُ

والعربُ واليهودُ وتحدث عن أنبياءِ بني اسرائيل وذكر النبي الملك سليمانَ بن داود وذكر علاقته بملكة سبأ (١) وذكر ملوك الرومِ منذ المسيحيةِ إلى الإسلام كما تحدث عن عاد وقوتهم وظلمهم وعصيانهم نبيهم هوداً وإهلاك الله لهم وتحدث عن ثمود وكفرهم وعتوهم ومعصيتهم لنبيهم صالح وهلاكهم بسبب عصيانهم وتحدث عن غزو بختنصر للعرب في زمن معد بن عدنان ، كما ذكر ملوك اليمن وعلاقتهم بالأحباش ثم بالفرس وتحدث عن بعض المشهورين من الأفراد مثل عمرو بن الظرب والزباء (٢) ، كما ذكر أجداد النبي صلى الله عليه وسلم من عدنان إلى عبد المطلب وذكر طرفاً من أخبار الرسول الكريم قبلَ البعثةِ .

أما القسم الثاني من الكتاب فقد تناول فيه حياةَ النبي صلى الله عليه وسلم وأخبارَهُ وغزواتِهِ ثم ذكر تاريخَ الخلفاءِ الراشدين وفتوحاتِهم وجعل يتتبعُ تاريخَ المسلمين بعد ذلك في الدولتين الأمويةِ والعباسيةِ حتى سنة /٣٠٢/ هـ .

مصادره

استقى الطبريُ من عدةِ مصادر اطمأنَ قلبُهُ إليها في أنها حجةٌ في موضوعاتها موثوقٌ بها فاعتمدها وهي : في تاريخ الرسل والأنبياء اعتمد على كتب التفسير والسير واستمد تاريخ الفرس من ترجمات عربية لكتب

---

(١) بلقيس

(٢) زنوبيا : ملكة تدمر العربية خلفت زوجها أذينة بالوصاية على ابنها وهب اللات /٢٦٦/ م - /٢٧٢/ م .

فارسية وعوّل في تاريخ الروم على ما نقله من كتب نصارى الشام ونقلَ تاريخَ اليهودِ من كتبٍ يهوديةٍ واعتمد في تاريخ العرب قبلَ الإسلام على ما كتبهُ عبيدُ بنُ شريه الجهميُ ومحمدُبن كعبٍ القرظيُ وغيرهُم ، أما السيرةُ النبويةُ فقد عوَّل فيها على مؤلفات أبان بن عثمان بن عفان وموسى بن عقبة وابن شهاب الزهري وغيرهم فإذا ما انتقل إلى حربِ الردةِ والفتوحات وموقعتي صفين والجمل راح يستمد مادتَهُ من المؤرخ الأسدي ومن المدائني،ثم كان اعتماده في تاريخ بني أمية على مدونات عوانة ابن الحكم الكلبي والواقدي فإذا ما جاء دور بني العباس عوّل على كتب الهيثم بن عدي وأحمد بن أبي خيثمة وكان لهؤلاء كتبٌ كثيرةٌ متداولةٌ .

منهجُهُ في كتابة التاريخ

انفردَ الطبريُ بمنهجٍ في تاريخهِ موسومٍ بسماتٍ خاصةٍ على ما به من مزايا وعيوب وهي التعديلاتُ على الروايات ثم الحرصُ على السند ونظام السنين مرتبةً فيها الأحداث ترتيباً دقيقاً وذلك في القسم الخاص بالإسلام ابتداءمن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، أما القسم الأول من الكتاب فلم يحرصْ فيه على ترتيب الأحداث على حسب السنين فبدأ بالخليقة ثم بالأنبياء وما في عهودهم من أحداث ثم بالملوك الذين عاصروهم وما كان في زمانهم ثم ذكر الأممَ التي جاءتْ بعدَ الأنبياءِ إلى أن ظهرَ الإسلامُ ثم يذكرُ الأخبارَ العامَة التي لا ترتبط بزمنٍ معين ثم يقوم بتسجيلِ النصوصِ الأدبيةِ ، ومن المآخذ على الكتاب أنه حرص على تسجيل الروايات و لم يُعدِّلْ أو يجرحْ رواتها ثم ذكرَ العلماءَ والرواةَ و لم يذكر مؤلفاتِهم التي نقل منها ولأكثرِهم كتبٌ عدةٌ ، وكان في سرد الروايات المتخالفة يقطعُ الروايةَ

إذا ما وصل إلى موضعِ خلافٍ ليذكرَ أوجهَ الاختـلافِ فـإذا مـا انتهـى مـن ذكرهِ عاد إلى استئنافِ الكلامِ من حيث توقفٌ وقطعَ وبهذا كثيراً ما كانت الرواياتُ تتداخلُ وتتشابكُ ومما يؤخذ عليه أيضاً أنه عني بالتاريخِ السياسـي وحده إذ أرخَّ للملوكِ والحـروبِ والقـوادِ و لم يسـجل الأحـوالَ الاقتصاديـةَ والاجتماعيـةَ للمسـلمين قبـلَ عصـرهِ وفي عصـرهِ وتنقـل في أهــم الأقطــار الإسلامية التي كانت مراكزَ الثقافةِ في عصرهِ وزار مدناً كثيرةً لكنه لم يدونْ تاريخَها الذي شاهده وعاصره و لم يسجل شيئاً مــن مشـاهداتِهِ و لم يتحـدثْ عن الخرائب والآثارِ التي مرَّ بها وكانت حديثَ الناسِ ويؤخذ عليه أيضاً أنـه ذكر أحياناً أساطير وإسرائيليات و لم يقدمْ لها و لم يعلقْ عليها بما يـدلُ علـى تكذيبه لها.

قيمة الكتاب

إنه كتابٌ جليلُ القدرِ عظيمُ القيمةِ لأنه أولُ كتابٍ في التـاريخِ العـامِ أكملَ به الطبريُ ما ابتدأه سابقوه وهو تمهيدٌ لمن جاء بعدَه ومصدرٌ هامٌ مـن أهم مصادرهم وأنه جمعَ كثـيراً مـن أخبـار العـربِ في الجاهليـةِ ودوّنهـا مـن الضياع ، كذلك سجل كثيراً من الحقائقِ التاريخيـةِ عـن العصـورِ الإسـلاميةِ مُوثقةً بالإسناد إلى أصحابها وذكـر في تـاريخِ الفـرسِ كثـيراً مـن الحقـائق لا نجدها في غيره لمن أراد أن يدرسَ تاريخَهم ، علـى أنـه قـد تبـين مـن البحـثِ المفصـلِ في تـاريخِ الرومـانِ أن الطـبريَ دقيـقٌ فيمـا ذكـره عنهـم لأنـه نقـل أخبـارهَمْ مـن مصـادرَ صحيحـةٍ وموثقـةٍ والكتـابُ فـوق هـذا كلـهِ حــافلٌ بالنصوصِ الأدبيةِ مــن شـعرٍ وخطـبٍ ورسـائل ومحـاوراتٍ ولا غرابـةَ في أن يعتمدَ عليه المؤرخون من بعده .

وهذا المؤرخُ ابن الأثير يقول في مقدمةِ كتابهِ : لقد جمعتُ في كتابي هذا ما لم يجتمعْ في كتابٍ واحدٍ فابتدأتُ بالتاريخِ الكبيرِ الذي صنّفهُ الامام أبو جعفر الطبري إذ هو الكتاب المعوّلُ عليه عند الكافة وهو المرجحُ عند الاختلاف .

الطبري الفقيه

عاش الطبريُ أكثرَ حياتِهِ في القرن الثالث فدرس المذاهبَ واعتنقَ المذهبَ الشافعيَ ردحاً من حياتِهِ ثم استقلَ بمذهبٍ خاصٍ به واحتجَ له بكتابٍ اسماه (لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام) واعتنقه بعضُ تلاميذه وروّجوا له ثم انقطع أتباعُ مذهبِهِ بعد القرنِ الرابعِ ، وكتبُه التي ألّفها في مذهبِهِ فُقِدَتْ فلا نعرف من آرائِه إلا ما ذكره في كتابِهِ (اختلافُ الفقهاءِ) فنراه يذكرُ آراءَهم ثم يعقّبُ عليها برأيه ومن آرائه الفقهية أنه أجازَ قضاءَ المرأةِ في المُطلَقِ بينما نجد الإمام الأعظم أبا حنيفة يجيز قضاءها فيما عدا الحدودَ والقصاص بينما الأئمة مالك والشافعي وابن حنبل لا يجيزون تولي المرأة للقضاء أبداً .

مؤلفاته

ماذا تثمر هذه العوامل مجتمعةً ؟ شغفٌ بالمعرفةِ منذ الصغر إلى نهايةِ العمرِ في حياةٍ من بدايتِها إلى نهايتها قراءة وبحث وتأليف وتدريس امتدت إلى ستةٍ وثمانينَ عاماً تحكمها ثقافةٌ متنوعةٌ وعلمٌ غزيرٌ متعمقٌ في شتى ألوانِ المعرفةِ وذكاء خارق وعقل ناضج وصبر دائب ومع هذا كله تخففُ من تبعاتِ الزواج والذرية وانقطع للعلمِ ، ولا شكَّ إنها تثمرُ ثروةً عظيمةً من

المؤلفات نذكر منها جامع البيان في تفسير القرآن - تاريخ الأمم والملوك - ذيل المذيل - اختلاف الفقهاء - لطيف القول في أحكام وشرائع الإسلام تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأخبارِ ومات الطبري قبل أن يكمل هذا الكتاب وبسيط القول في أحكام وشرائع الإسلام وكتاب آدابِ القضاة وكتابُ أدبِ النفوسِ الجيدةِ وكتابُ الأخلاقِ النفسيةِ وكتاب المسند المجردِ وكتابُ القراءات ، إلى غيرها من الكتبِ التي لا يتسعُ المجالُ لذكرها .

وفاته

وكانت وفاتُه ببغدادَ في شوال من سنةِ /٣١٠/ هـ .

خاتمة

لعله يتضحُ من دراسةِ الطبريِ أنه عالمٌ في الطليعةِ من علماءِ عصرهِ عالمٌ متعددُ الثقافاتِ ، وحجةٌ في بعضها ، عظيمُ الآثار في كثيرٍ من معاصريهِ وكثيرٍ من لاحقيه ولعلهُ يتضحُ كذلك أنه كان بالإضافة إلى علمهِ أستاذاً يأخذ نفسَهُ بالفضائلِ التي يجبُ أن يتصفَ بها العالمُ الذي وهَبَ نفسَهُ للعلم ووقَفَ حياتَهُ على المعرفةِ والتأليفِ والتدريسِ فقد ترك من المؤلفاتِ ثروةً ضخمةً استمدها معاصروهُ ولاحقوهُ وما زالت كنوزُها حِلاً للباحثين ومرتعاً خصباً يقطفون منه أطيبَ الثمرِ وأحلاه كما كان الطبريُ يمتلكُ الخلالَ العاليةَ والخصالَ الجيدةَ والسيرةَ المحمودةَ والأخلاقَ الرفيعةَ في علاقاتهِ وصِلاتِهِ ، وشغفُهُ بالعلمِ وصبرُهُ على البحثِ والانتاجِ والتثقيفِ جعلتْ منه عالماً عظيماً وطوداً شامخاً .

الفارابي
عالم في الفلسفة
٢٥٩ هـ - ٣٣٩ هـ

- ٦ -

اسمه ونسبه

أبو النصر محمد بنُ اولزغ بن طرخان الفارابي .

لُقِّبَ

بالمعلمِ الثاني لأنه تعمقَّ في التفسير والتحليل حتـى أجمـعَ الأولـون والمتأخرون على تفوقِه على جميعِ الحكماءِ والفلاسفةِ الذين تقدموه وهـو واضعُ كتابِ (أغراض كتاب ما وراء الطبيعة) للمعلم الأول أرسطو .

مولده

وُلد أبو النصر في فاراب إحـدى المـدنِ التركيـةِ الواقعـةِ وراء نهـر سيحون في أطراف بلاد فارس سنة /٢٥٩/ هـ

رحلته الأولى

لما شبَّ أبو النصر خرج من بلدِه قاصداً بغداد وهناك التقى بشيخ المنطقيين أبي بشر متى بن يونس كما قرأ صناعةَ المنطق علـى يـد يوحنـا ابن حيلان الفيلسوف .

رحلته إلى حلب

لم يطبْ له العيشُ في بغداد فشد الرحالَ إلى حلب ملتمسـاً بلاطَ

سيف الدولة وهناك قرّبَهُ الأمير وأجازه ثم فرض له راتباً شهرياً ومن غريب ما حكاه ابن خلكان (١) أنه: لما ورد على سيف الدولة وكان مجلسُهُ مجمعَ الفضلاءِ والعلماءِ في جميع المعارف فأُدْخِلَ عليه وهو بزي الأتراكِ وكان ذلك زيه دائماً فوقف فقال له سيف الدولة اقعدْ فقال أبو النصر حيث أنا أم حيثُ أنت فقال حيث أنت فتخطى رقابَ الناسِ حتى انتهى إلى مسندِ سيفِ الدولة وزاحمه فيه حتى أخرجه عنه وكان على رأس (٢) سيف الدولة مماليكُ وله معهم لسان (٣) خاص فقال سيف الدولة بذلك اللسان إن هذا الشيخَ قد أساء الأدب وإني لسائله عن أشياء إن لم يجبني فعليكم به وعاقبوه على إساءته فقال أبو النصر باللسان ذاتِه أيها الأمير اصبرْ فإنَ الأمورَ بعواقِبِها ، فعجبَ سيفُ الدولة منه وقال له أتُحسِنَ هذا اللسان فقال نعم أحسن أكثر من سبعين لساناً ، ثم أخذ يتكلمُ مع العلماءِ الحاضرين في المجلسِ في كل فنٍ وعلمٍ فلم يزل كلامُه يعلو وكلامهم يخفت حتى صمتَ الجميعُ وبقي هو الوحيد الذي يتكلم والكل يستمع إليه ما بين معجبٍ ومنبهر وحاسدٍ ، فصرفهم سيف الدولة وخلا به فقال له هل لك في أن تأكل فقال لا فقال فهل تشرب فقال لا فقال فهل تسمع.قال نعم فأمر سيف الدولة بإحضار كلِ ماهرٍ في هذه الصناعة فلم يحركْ أحدٌ منهم آلتَهُ الموسيقيةَ إلاعابهُ أبو النصر وقال له أخطأت فقال له سيف الدولة وهل تحسن في

---

(١) ابن خلكان : هو أحمد بن محمد بن ابراهيم بن أبي بكر خلكان /٦٠٨ - ٦٨١/ هـ (له كتاب وفيات الأعيان في أنباء أبناء زمان) .

(٢) بين يديه لخدمته . (٣) لغة

هذه الصناعة شيئاً فقال نعم ثم أخرج من وسط ثيابه خريطةً ففتحها وأخرج منها عيداناً وركبها ثم لعب بها فضحك كلُ من كان بالمجلس ثم فكها وركبها تركيباً آخر وضرب بها فبكى كل من كان بالمجلس ثم فكها وركبها تركيباً آخر وضرب بها فنام كل من كان بالمجلس فتركهم أبو النصر نياماً وخرج .

حياته الداخلية

لم يُدونْ لنا التاريخ شيئاً يُذكر عن حياتِه الداخلية لكننا نستنتجُ تموجاتِها واتجاهاتِها من المؤلفاتِ التي تركها لنا ومن بعض الملاحظات التي نبَّه إليها مؤرخون عن أخلاقه فمن هذه وتلك يظهر لنا الفارابي فيلسوفاً عظيماً قد استولت عليه الحكمةُ وصبغتْ عقليتهُ ونزعاتِه وكلَّ أعمالِه بلونها الخاص فهو لم يُقْبلْ على طلب الحكمة رغبةً في منفعةٍ أو أملاً بنيلِ كرامةٍ . إنما طمعاً في إرواء ظمأ داخلي كان يدفعُهُ إلى التفتيشِ عن الحقائقِ المجردةِ الشاملةِ ، ولم يكن عقلُه الكبيرُ ليرضى بعلمٍ دون آخر فعطشُ المعرفةِ لا يكتفي إلا باللامتناهي وهذا كتابه (إحصاء العلوم) دليلٌ ساطعٌ على تفوقه في كل أصناف المعرفةِ فقد درس أغراضَها وحلل أساليبها وبيَّن الروحَ الكامنة في أعماقِها فكشفَ أغوارَها .

ترتيب العلوم عند الفارابي

قسّم الفارابيُ كتابَ إحصاء العلوم إلى خمسةِ فصولٍ الفصلُ الأول عَقَدهُ في علم اللسان وفروعِه من نحو وصرف وبيان وشعر وقوانينِ الكتابةِ وقوانينِ القراءةِ والفصلُ الثاني في علمِ المنطقِ وأجزائه

والفصل الثالث في علم التعـاليم أي العلـوم الرياضيـة والفصـلُ الرابـع في العلم الإلهي والطبيعي والفصل الخـامس في العلـم المدنـي ، فهـاهو يقـدم علم اللسان وفروعه ثم يعقبه بالمنطق لأن علمَ اللسان عندَ كـلِ أمـةٍ أداةٌ لتصحيح ألفاظِها وتقويم عباراتها فوجب تقديمه على سائر العلـوم وقـدّم المنطق علـى العلـوم الأخرى لأنـه يعطـي جملـةَ القوانـين الـتي لابـد مـن مراعاتها في أي علم كان لتعصمَ من الزللِ جميعَ الألسنِ والأذهانِ وبهـذا الاعتبار كان الفارابيُ ينظرُ إلى علـمِ المنطـقِ ويعـدُه رئيـسَ العلـومِ لنفـاذِ حكمهِ فيـهـا ويـذكـر لـنـا أجـزاء الـمنطق الثمانيـة وكـل جزء منهـا وَضَعَهُ في كتاب ، (الأول) في المقولات (١) (والثاني) في العبارة (٢) و(الثالث) في القياس (٣) و(الرابع) في البرهـان (٤) و(الخـامس) في المواضع الجدلية (٥) و(السادس) في الحكمـة المموهـة (٦) و(السـابع) في الخطابة (٧) و(الثامن) في الشعر (٨) .

ولو انتقلنا إلى مـا بعـد علـم اللسـان وعلـم المنطـق لوجدنـا علـم التعاليم وهو سبعةُ أجـزاءٍ عظمـى هـي علـمُ العـددِ وهـو نوعـان عملـي ونظري أما العملي فيبحث عن الأعداد وما يضبـط عددهـا مـن أجسـام وغيرها أما النظري فإنه يبحث عن الأعدادِ بالإطلاقِ على أنها مجـردةٌ في

---

(١) المقولات : (قاطيغورياس) . (٢) العبارة : (باري ارمينياس) .

(٣) القياس : (أنولوطبقا الأولى) . (٤) البرهان : (أنولو طبقا الثانية) .

(٥) المواضع الجدلية : طوبيقا) . (٦) الحكمة المموهة : (سفسطيقا) .

(٧) الخطابة : (ريطوريقا) . (٨) الشعر : (بويطيقا)

الذهنِ من الأجسام والجزء الثاني علم الهندسة الذي ينقسمُ إلى عملي ونظري أما العملي فإنه ينظر في خطوطٍ وسطوحٍ في جسمٍ خشبٍ إن كان الذي يستعمله نجاراً أو جسمٍ حديدٍ إن كان الذي يستعملهُ حداداً ، أما النظري فإنه ينظر في خطوط وسطوح الأجسام على الإطلاق والعموم وهذا العلم النظري جزءان الأول ينظر في الخطوط والسطوح والثاني ينظر في المجسمات مثل المكعب والمخروط والإسطوانة وغيرها . والجزء الثالث هو علم المناظر وهو علم يعرف به أحوال البصريات في كميتها وكيفيتها باعتبار قربها وبعدها واختلاف أشكالها وأوضاعها وبهذه الصناعة يمكن للإنسان أن يقف على مساحة ما بَعُدَ من الأجسام بعداً يتعذر به الوصول إليه والجزء الرابع علم النجوم وهو نوعان علم أحكام النجوم وعلم النجوم التعليمي والجزء الخامس علم الموسيقا وينقسم إلى نظري (١) وعمليٍ والجزء السادس علمُ الأثقالِ وهو يشتمل أولاً على النظر في الأثقال من حيث تقديرها ثانياً البحثُ عن أصولِ الآلاتِ التي تُرْفَعُ بها الأشياء الثقيلة ، وأخيراً علمُ الحيلِ وهو علمُ الميكانيكا التطبيقية أما الفصل الرابع فقد خصصه الفارابيُ للعلمِ الطبيعي (٢) والعلمِ الإلهي (٣) ، والفصل الأخيرُ يتكلمُ في العلمِ

---

(١) سنأتي على ذكر التفصيل عند الحديث عن الفارابي والموسيقا .

(٢) العلم الطبيعي (الفيزيقا) ويبحث في الأجسام الطبيعية أو الصناعية وينقسم إلى ثمانية أجزاء عظمى .

(٣) العلم الإلهي : (الميتافيزيقا) ويبحث فيما وراء الطبيعة وينقسم إلى ثلاثة أجزاء .

المدنِي(١) وفي علمِ الفقهِ (٢) وعلمِ الكلامِ (٣) .

مطالعاته

كان يقضي معظمَ أوقاتِهِ في مطالعةِ مصنفاتِ الأقدمين وخصوصاً أرسطو وأفلاطون فيشرح مؤلفاتهما ويعلق عليها و لم يكن ليكتفي بقراءتها مرة أو مرتين بل كان يراجعها إلى أن يستوعبَ جميعَ معانيها ويكشفَ عن أسرارها ، ويُروى أنهُ وُجِدَ كتابُ (النفس) لأرسطو وعليه بخط الفارابي (قرأت هذا الكتاب مائة مرة) وكان يقول قرأت (السماع الطبيعي) لأرسطو الحكيم أربعين مرة وأرى أني أحتاج إلى معاودةِ قراءتِه .

زهده وتعففه

لقد كان بوسعهِ أن يدخّرَ ثروةً عظيمةً مما يغدقهُ عليه سيف الدولة ولكنه لم يعبأْ بهذا واكتفى بأربعةِ دراهمِ في اليوم أجراها عليه الأميرُ من بيت المال وبناء على طلبه فكان ينفقها فيما يحتاجه من ضروري العيش ، وكان يستطيعُ وهو نزيلُ الملوكِ والأمراءِ أن يظهر في القصور والمجالس ظهورَ الأشراف والعظماءِ ولكنه ازدرى المجد والأبهة

(١) العلم المدني : علم الأخلاق الساسية .

(٢) علم الفقه : هو العلم الذي يقتدر الإنسان به على أن يستنبط تقدير شيء مما لم يصرح واضع الشريعة بتحديده على الأشياء التي صرح بها بالتحديد والتقدير ويشمل الآراء والأفعال .

(٣) علم الكلام : هو ملكة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الشريعة ورفض كل ما خالفها بالأدلة والبراهين .

ولم يعتنِ بمظهر أو منزل وكان بوسعه أن يخالطَ الحكامَ والعلماءَ والشعراء ولكنه كان في الغالب يتجنبهم ويفضل العزلةَ ومناجاةَ الحقِ .

أسلوبه

وأسلوبُه دقيقٌ مركَزٌ ليس فيه تكرارٌ ولاترادفٌ وهو يعتني باللفظِ والعبارةِ ويعطي أغزرَ المعاني في جملٍ مختصرةٍ ، والفارابي شغوفٌ بالمتقابلاتِ فعندما تخطرُ له فكرة لابد أن يذكر مقابلها ، وأهم شيء عنده في هذا المجال أنه يمرُّ على الأمور التي يفترض أنها معروفةٌ دون أن يطيلَ في شرحِها ولاتستوقفهُ الموضوعاتُ العاديةُ ، لكنه عند الحديثِ عن أساسِ النظريةِ ودعامةِ المذهب يَجْلي ما غمض ويدلي فيه برأيه .

فلسفته

لقد أخذ المعلمُ الثاني عن غيرِه ولكنه وضعَ فلسفتَهُ في الإطار الذي يتلاءم وظروف البيئة التي عاش فيها ، فقد أخذ عن أرسطو وأفلاطون وأفلوطين ولكنه مزجَ كلَ ذلك وصبغهُ بصبغةٍ إسلاميةٍ واضحةٍ ، وفلسفتهُ من الفلسفات ذاتِ المعالمِ الواضحةِ والأهدافِ المحددةِ ترتبط أجزاؤها ارتباطاً وثيقاً بحيث تبدو منسجمةً متناسقةً فمفهوم الفلسفةِ عند الأقدمين واسعٌ باتساع مدلولها فهي لاتُحْصَرُ بعلمٍ دون علمٍ ولاتتقيد ببابٍ من أبوابِ المعرفةِ دون آخر ، بل هي أمٌ رؤومٌ (١) تضم إلى صدرها جميع أنواع المعرفة وشجرة جبارة ما فروعها وأغصانها

---

(١) ذات عطف وحنان .

إلا العلوم ومولدات الفكر البشري وعلى هذا النحو فهمها الفـارابي وفي ذلـك يقـول : يسـميها اليونـان الحكمـة العظمـى ويسـمون المعتـني بهـا فيلسوفاً ويعنون به المحب والمؤثر للحكمة العظمى ويسـمونها أيضـاً علـم العلوم وأم العلـوم وصناعـة الصناعـات وحكمـة الحكـم ، وإذا انفـردت العلومُ النظريةُ ثم لم يكـن لمـن حصلـت لـه قـوة علـى اسـتعمالها كـانت فلسفةً ناقصةً والعقولُ تتفاوتُ في المعرفةِ إذ يستحيلُ علـى العقـلِ المفـردِ استنباطُ كل العلومِ فـإذن علينـا أن نـأخذَ عـن الأقدمـين فنقبـلَ مـا نـراه موافقـاً للحـق وترفـض مـا عـداه ونحذرمنـه فالفـارابي صـاحبُ مذهـبٍ انتقائيٍ توفيقيٍ انتقائي : لأنه يختار مـن أئمـةِالفكر الإغريقـي وتوفيقـي : لأنـه يوفـق بـين نظريـاتِ الفلاسـفةِ أولاً بـين هـذه النظريـــاتِ والديـنِ الإسلاميِ بعد ذلك .

الطوابع المميزة لفلسفة الفارابي

إنها عقليةٌ لأنها قالت بقدرة العقلِ إيمانـاً منهـا بـأن العقـلَ واحـدٌ والحقيقةُ واحـدةٌ ولايمكـن للعقـلِ المطلـقِ أن ينـاقضَ نفسَـهُ أو يُقّصـرَ في الكشفِ عن حقائقِ الوجودِ ، وما نجده من خلافٍ بين هذا المفكر وذاك مرده إلى نقصٍ فردي في قوى المعرفة الشخصية لا إلى انكفاء العقـلِ عـن مراتبِ الإدراك واليقينِ وهي توفيقيةٌ لأنها قالت بعقلٍ فعـالٍ يقـف علـى حدودِ العالمين العلويِ والسفلي فيتلقى من العلاءِ ويفيضُ على الكائنـات الأرضيةِ وإذا بمعرفة واحدة تغمر نفسَ النبي وعقـلَ الفيلسـوفِ فيتفقـانِ جوهراً وإن اختلفا في طريقةِ النقلِ والبلاغِ فلا خـلاف إذنْ بـين الوحـي والفلسفة وهي روحانيةٌ مثاليـةٌ لأنهـا آمنـت بـأن الإنسـانَ كـائنٌ ثنـائي

مركب من عنصرين روحي ومادي الأول يجذبه إلى العلاء والآخر يشد به إلى التراب وفي العلاء بهجة الروح ولذة العقل وسعادة النفس وهي انتقاليةٌ لأنها عرفت بفكرة العباقرة تراثاً انسانياً خالداً ينتقلُ مع العصورِ أداةَ علمٍ وحقٍ فيأخذ الخَلَفُ عن أسلافِهم من نتاجِ العقلِ مثل ما أخذوه من سائر المواريث ، فعمدت إلى ذخيرةِ الفكرِ بأثينا والإسكندرية تعرضُها وتختارُ منها ما تعتقده الأفضل والأكملَ وهي إسلاميةٌ في غايتِها وإن تعداها النجاحُ أحياناً فوقَفتْ بما لايُسلِّمُ به رجالُ الدين والعقيدة ، فما أخذته عن الغير صهرته ومزجته حتى تُكَونِ كلاً متماسكاً يحمل شخصيةِ صاحبِه ويعملُ على التقريب بين قلبِهِ المؤمنِ وعقلِهِ المتفلسفِ .

أفلاطون وأرسطو عند الفارابي

كان الفارابي ينظر إلى أفلاطون وأرسطو نظرة التهيبِ والإعجابِ والتعظيمِ ذلك لأنه خاضَ ودرسَ وحلَّل مصنفاتهما فوجدها تفوق عمقاً وبعداً كل ما جادت به قرائحُ العالمِ قاطبةٍ ، وهذا هو سر انتشارِ تعاليمهما لا في بلاد اليونان فحسب ولكن في جميعِ أنحاء العالم ، فهما المبدعان للفلسفة في أصولها والمتممان لأواخرها وفروعها ، ولكن حياة كلٍ منهما تختلفُ عن الآخر فأرسطو استولى على كثيرِ من الأملاك وتزوج وأنجب وتولى منصب الوزارة أما أفلاطون فكان زاهداً في الدنيا متجرداً عن حطامِها يميل إلى حياةِ الخلوةِ والعُزلةِ وها هو عالمنا الفارابيُ يرى في سيرة أفلاطون طريقاً قويماً سلكه ومشى على صراطه .

المعلم الثاني

إذا كان الفارابي قد تأثر بأفلاطون (١) وأرسطو (٢) وفلاسفةِ الإسكندرية والعقائدِ الإسلامية في مبادئ ما وراء الطبيعة فهو مدين بذلك للمعلم الأول أرسطو لأنه واضعُ أصولِ هذا العلم ومتممُهُ وكل المفكرين الذين أتوا بعده اكتفوا بشرح مصنفاتِهِ والتدقيقِ في نقاط طفيفة لم يُشِرْ إليها في تحليلاته أما الفارابي فقد شرح في فن المنطق وتعمَّق في التفسيرِ والتحليلِ حتى أجمع الأولون والمتأخرون على تفوقه على أقرانِهِ وهاهو الشيخ الرئيس ابن سينا في مطالعاتِه الفلسفية وفي دراستِهِ للمنطق عندما اطلَّع على كتاب أرسطو (ما وراء الطبيعة) لم يفهمْ ماذا يريد أرسطو وقد قرأ الكتاب أربعين مرة حتى حفظه عن ظهر قلبِ إلى أن وقع في يده كتاب الفارابي (أغراض كتاب ما وراء الطبيعة) فقرأه ونتج عن ذلك أنه فهم كتاب أرسطو وفكَّ الرموزَ والطلاسمَ التي لم تكن واضحةً قبل قراءتِه لكتاب الفارابي وهذه شهادةٌ عظيمة من الشيخ الرئيس بحقِ المعلم الثاني .

الفارابي وسمو نظريته

إن المتأمل لنظرية واجب الوجوب عند أفلاطون وأرسطو وأفلوطين زعيم الأفلاطونية الحديثة يجدها ناقصةً أما فلسفةُ الفارابي في

---

(١) أفلاطون من مشاهير فلاسفة اليونان - تلميذ سقراط ومعلم ارسطو أساس فلسفة نظرية الأفكار /٤٢٧ - ٣٤٧/ ق.م .

(٢) أرسطو : فيلسوف يوناني من كبار مفكري البشرية مؤلفاته في المنطق والطبيعيات والإلهيات والأخلاق وهو مربي الاسكندر /٣٨٤ - ٣٢٢/ ق.م .

هذه النظرية فهي جامعةٌ مانعةٌ فنجده كأفلاطون سما بعقله إلى المثال الأعلى مثال الخير والجمال ونجده كأرسطو توصلَّ إلى تصور الفعل المحض ونجده كأفلوطين (١) كشف لنا النقاب عن الوحدة المطلقة اللامتناهية . التي تحار في إدراكها العقول ، فقد تفوقَ عليهم جميعاً بتعَمقهِ واستنتاجاتِه المنطقية لأن هؤلاء المفكرين وإن رفعوا (الله) جل جلاله فوق الكائنات فهم في ذلك لم يدركوا الفرق الجوهَري اللامتناهي الذي يفصلُ الخليقةَ عن الخالقِ فوضعوا لنا موجودينَ واجبي الوجود الله والمادة ، أتى الفارابيُ وتغلغل في تحليل تصور واجب الوجود وممكن الوجود وأثبت الوجودَ المطلقَ اللامتناهي للحق جل جلاله وحده ، فكانت النتيجة أن فيلسوفنا فاق كل حكماء اليونان بتعريف طبيعة الله وإثبات وحدته فواجب الوجود واحد لايشاركه في وجوده وجود لأنه لو كان لوجوده مثل في النوع لما كان تام الوجود إذ التام الوجود هو الذي يستوعبُ كلَ كمالات الوجود ، فلا يوجد خارجاً عنه وجودٌ من نوعه ، وهذا الاستنتاجُ المنطقيُ العميقُ أليس هو صدى لسورة الإخلاص في القرآن الكريم ﴿ **قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ صدق الله العظيم ونحن بدورنا نقول : بلى إنه كذلك .

فالفارابي لم يكن شارحاً ومقلداً وموافقاً فحسب بل درسَ الحكمةَ اليونانية والدينَ الإسلامي ، ومن هذا البحثِ العميقِ في فلسفة

---

(١) أفلوطين : فيلسوف وزاهد تأثر بأفلاطون / ٢٠٤ - ٢٧٠/ م .

الأساطينِ (١) من الحكماءِ والتوفيق بين آرائهم ومن هذه المقارنة بين الفلسفة والدين والتغلغل في مصدر هما الشامل أنتج لنا عقل فيلسوفِ العرب نظريةً جديدةً مبتكرة وهي نظرية (واجب الوجود) تآلفت فيها عناصرُ الفكرِ اليوناني القديم بنزعاتِ المسلمين الحديثة فإذا هي صورةٌ حيةٌ لشعبٍ حيٍ يصل الماضي بالحاضر ويسير مع تيار الحياةِ بخطىً وطيدةٍ ثابتةٍ .

الدين والفلسفة

لقد جمع الفارابي بين مَزيتينِ هما الإخلاصُ للفلسفةِ والإيمانُ بالدينِ وبهاتين المزيتين حاول أن يوفق بين لغتين لغةِ العقلِ ولغةِ القلبِ وهما عنده لغتان مفهومتانِ ضروريتان للإنسانية التي تريد أن تتخطى نفسَها ساعيةً وراءَ الكمالِ ، وكأنَّ الفارابيَ قد جاء إلى العالم ليؤدي رسالةً جليلةً خلاصتها أن الفلسفة والدينَ هما المَعينُ الصافي للحياة الروحية التي بها يكون الإنسانُ فاضلاً وبالتالي يتولّد لدينا المجتمعُ الإنسانيُ الفاضلُ وبدونها يكون المجتمع ضالاً منحرفاً ، فويلٌ للمجتمع إذا تنكر للفلسفةِ أو للدين لأنهما متلازمان . وما أشقانا إذا طغت المادةُ علينا فخلتْ حياتُنا من مشاغلِ الروحِ .

مدينة الفارابي الفاضلة

إنها كالبدنِ التامِ الصحيحِ تتعاونُ أعضاؤهُ في سبيلِ الحياة وحفظِها وكما أن أعضاءَ البدن مختلفةٌ في الهيئة متفاضلةٌ في الفطرة

---

(١) الأساطين : العباقرة في الفلسفة أو غيرها من سائر العلوم .

والقوى متدرجةٌ في المراتب والأعمالِ حتـى تصـل إلى عضـو رئيـس هـو القلبُ كذلك المدينةُ تختلف أجزاؤها فطرةً وتتفاضلُ هيئةً وتتدرج عمـلاً ورتبةً حتى نصلَ إلى إنسانٍ واحـد هـو الرئيـسُ للمدينـةِ الفاضلـةِ يكـون أكملَ أجزائها فيما يخصه فيجب أن تتوفر فيه الخصال الآتية : أن يكـون تامَ الأعضاءِ وأن يكونَ جيدَ الفهم والتصور بالطبع لكل ما يقال ويُقصد وأن يكون جيدَ الحفظ لما يراه ويسمعه أو يفهمه ويدركه حتـى يكـاد لا يـنساه وأن يكون جـيد الفطنة ذكياً إذا رأىِ الشيء بأدنى دليل فطن له على الجهة التي دل عليها وأن يكون حسن العبارة يواتيه (١) لسانه علـى إبانة كل ما يضمره إبانة كاملة وأن يكون محباً للعلم منقاداً له لا يؤلمه في سبيله تعب ولا يؤذيه كد وأن يكـون غـير شـره في المـأكول والمشـروب والمنكوح متجنبــاً بـالطبع اللعـبَ واللـذاتِ الناتجـةَ عنـه وأن يكـون محبـاً للصدق وأهلِه مبغضاً للكذبِ وأهلهِ وأن يكون كبير النفس محباً للكرامـة وطلب الرفعة وأن يكون محباً للعدل وأهله . مبغضاً للظلم والجور وأهلـه غيرَ صعبِ القيادِ ولا جموحـاً إذا دعـي إلى العـدلِ بـل يصعـبُ قيـادُه إذا دُعِيَ إلى الجور والظلم وأن يكون قويَ العزيمةِ على الشيء الذي يرى أنه ينبغي أن يفعل جسوراً عليه مقداماً وأن يكونَ الدرهـمُ والدينـارُ وسـائرُ أغراض الدنيا هينةً عنده فهذا هو الرئيس الذي لا يرأسهُ إنسانٌ آخر وهو الإمامُ وهو رئيس الأمة الفاضلة ورئيس المعمورة من الأرض كلها ونحـن نرى مع احترامنا وتقديرنا الشديدين لفيلسـوفِ العـربِ وحكِيمهـا أبـي النصر الفارابي أن هذه الصفات لا تجتمع إلا في سيد الخلق سـيدِنا محمـد

---

(١) يساعده .

فهي إذاً من المستحيلات بعد عصر النبوة . ولو قارناها مع جمهورية أفلاطون المثلى لوجدناها قريبةً جداً فأفلاطون يحددُ رئيسَ جمهوريته بأن يكون محباً للحقيقة وراغباً في المعرفة مبغضاً للكذب محباً للصدق ميالاً إلى احتقار اللذات الجسدية غير مكترث بالمال شديد القناعة زاهداً في الحياة شجاعاً أمام الموت بعيداً عن العناد والكبرياء حُرَ الفكرِ قويَ الحدسِ والتخمينِ عادلاً سريع الخاطر والبديهة والذاكرة محباً للجمال ذا فطرة موسيقية منسقةٍ .

ثقافة الفارابي

أهم ما يتميزُ به فيلسوفنا ثقافتُهُ الواسعةُ ونزعتُه إلى الزهدِ والتصوفِ ، أما ثقافتُهُ فتظهرُ في هذه الطائفةِ الكبرى من الكتبِ والرسائلِ والتي تدور في مختلف العلوم والمعرفة من الطبيعيات وما يتفرع عنها إلى الإلهيات وعلوم الدين كالفقه والكلام إلى علم الرياضيات ومشتقاتها إلى الطِب والفلك والمنطق وعلم الاجتماع إلى الموسيقا وأما نزعتُهُ الصوفيةُ فبارزة في كل أطوار حياته متمثلة بالزهد في الدنيا والانصرافِ عن متعها من مال وولد وزوج وهذا النوع من القناعة والانغلاق على الذات هو الذي دعاه إلى عدم تدوين شيء مما يتصل بحياته أو بأسرته ، رغم أنه شريفُ النسبِ مُعَدٌ لحياة البذخ لكنه عَدَلَ عنها راضياً ومَالَ إلى حياةِ العُزلةِ والتأملِ وهذا ما يُفصِحُ عن تكوين شخصيتِه ويكشفُ القليلَ من أغوارها .

الفارابي والموسيقا

لقد كان الفارابيُ موسيقياً بارعاً ، فالمعلمُ الثاني يعتبر علمَ الموسيقا جزءاً من علم التعاليم ويقول عنه إنه العلمُ الذي تُعرفُ به صناعةُ الألحانِ وهو قسمان موسيقا نظرية و موسيقا عملية ومن الآلات الموسيقية ما هي طبيعية مثل الحنجرة واللهاة (١) ثم الأنف ومنها ماهي صناعيةٌ كالمزامير والعيدانِ وغيرها وينقسم علمُ الموسيقا النظري إلى خمسة أجزاء الأول المبادئُ التي تُستعملُ في استخراجِ ما في هذا العلم والثاني البحثُ في أصولِ هذه الصناعة والثالثُ مطابقةُ ماتبين في الأصول على أصنافِ الآلاتِ والرابعُ القولُ في أصناف الإيقاعات الطبيعية التي هي أوزان النغم وخامسُها البحثُ في تأليفِ الألحانِ .

آثاره

وضعَ الفارابيُ طائفةً جليلةً من الكتب والرسائل ضاع أكثرُها وما وصلنا منها إلا القليلُ .

من شروحه : لأرسطو البرهان – العبارة – الخطابة – الجدل – المغالطة – القياس – المقولات وسائر كتب المنطق – السماء والعالم – السماع الطبيعي – الآثار العلوية – الأخلاق – ما بعد الطبيعة – وشرح لفرفوريوس الصوري كتابَ (إيساغوجي) أو المدخل إلى المنطق .

وشرح كتابَ بطليموس في علم الفلك : المِجَسْطي .

وشرح لاسكندر الأفرودسي : مقالة في النفس .

---

(١) اللهاة : هي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم .

من تصانيفه

إحصاء العلوم - كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين أرسطو وأفلاطون ، مقالة في معاني العقل ، نصوص الحكم رسالة في آراء أهل المدينة الفاضلة ، كتاب السياسات المدنية ، تحصيل السعادة ، التنقيب عن السعادة ، رسالة في إثبات المفارقات ، التعليقات ، وهذا قليل من كثير لأن أغلب الكتب والرسائل ضاعَ أو فُقِدَ .

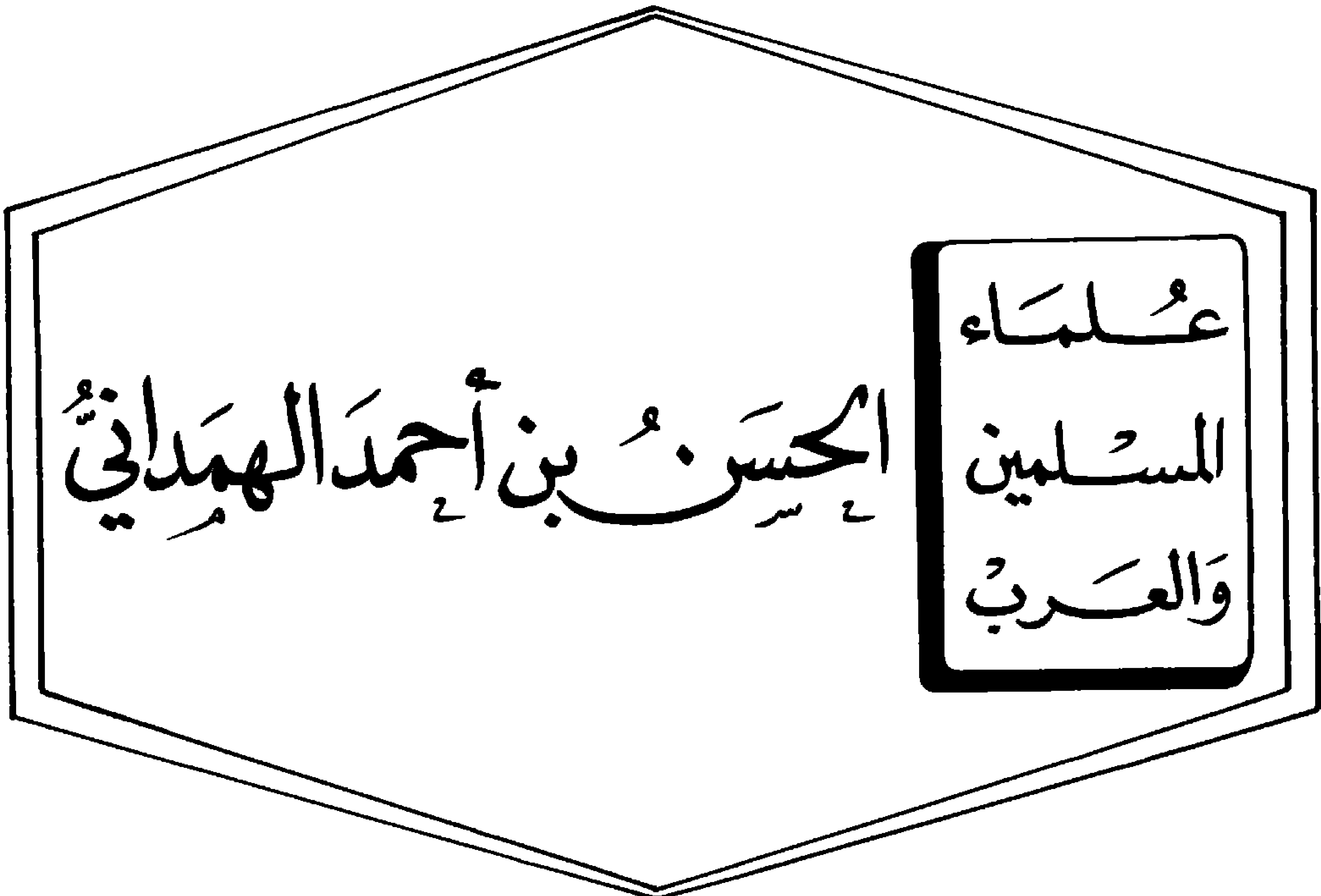
وفاته

صحبَ سيفَ الدولةِ إلى دمشقَ فتوفي هناك عن عمرٍ يناهزُ الثمانينَ عاماً وكان ذلك سنة /٣٣٩/ هـ . وصلى عليه سيف الدولة بنفرٍ من خاصته .

خاتمة

يعتبر كتابةُ : أغراض كتابِ ما وراء الطبيعةِ من أهم وأشهر كتبِ الفلسفةِ قاطبَةً ، لقد ترك لنا تراثاً عظيماً وفلسفة إسلاميةً فجمع بيْن آراءِ أفلاطون وأرسطو كما جمع بين الدين والفلسفة وكان لا يكلُّ ولا يملُّ من القراءةِ والاطلاعِ والمعرفةِ معتمداً في ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال عَلمتُ فقد جَهِلَ .

فجر الهدى والإيمان





اعداد
فؤاد محمود الدقس

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود

الهمداني

عالم في الفيزياء

/ ٢٨٠ - ٣٦٠ / هـ

- ٧ -

اسمه ونسبه

أبو محمد الحسن بن أحمد يعقوب بن يوسف بن داود الهمداني .

مولده

ولد في صنعاء اليمن سنة /٢٨٠/ هـ .

نشأته

كل ما هو متوفر لدينا أنه كان يشارك أهله في عملهم وهو حمل الحجاج والتجار إلى مكة المكرمة ، رحل أهله إلى صعدة (١) سنة /٢٩٢/ هـ وكان في الثانية عشر من عمره وعندما شب عن الطوق كان دائم التنقل بين صعدة ومكة المكرمة إلى أن قرر أن يؤدي فريضة الحج وكان ذلك سنة /٣٠٦/ هـ وهناك طاب له المقام في مكة فجاور فيها

---

(١) صعدة : مدينة في اليمن على طريق الحج المؤدية من صنعاء إلى مكة المكرمة وهي معقل الأئمة الزيدية .

ولم يبرحها سبع سنواتٍ سمع خلالها من الخضري بن داود ومن أبي علي الهجري ومن أبي رياض القيسي وكانوا علماء في الحديث واللغة والنحو ثم عاد إلى صعدة سنة /٣١٣/ هـ بعد أن اقتنى كتباً ودواوين شعرية ومؤلفات عربية هامةً ووقف على نقولٍ عربيةٍ لكتب بطليموس (١) وغيره من تراث الفلاسفة والحكماء والمبدعين الإغريق (٢) .

استقراره في صعدة

وبعودته من مكة إلى صعدة بدأت مرحلةٌ مهمةٌ في حياته الفكريةِ ولربما في تاريخ الثقافة العربية في اليمن فقد مكث فيها ست سنوات ولم يغادرها إلى صنعاء إلا هارباً وكان ذلك سنة /٣١٣/ هـ .

رحلته إلى صنعاء وسجنه

كان في صعدة عدة شعراء منهم الشريف الحسين بن علي بن الحسن بن القاسم الرسي وأبو الحسن بن أبي الأسد السلمي وأيوب بن محمد البرسمي وكان الأخير فارسياً وكانوا يتعصبون على قبائل اليمن ويتناولون أعراضهم بالأذى فكتب لكل واحدٍ منهم الرجوع عما هو فيه فلما بلغهم قوله اشتد ذلك عليهم وتفاقم الأمر بينهم فدخلوا إلى صاحب صعدة(٣)وقالوا إن ابن يعقوب هجا

---

(١) بطليموس : فلكي يوناني وجغرافي (٩٠ - ١٦٨ ميلادية) .
(٢) الإغريق : قدماء اليونان .
(٣) الإمام الناصر لدين الله .

النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتوعده الناصر فخرج متسللاً إلى صنعاء وكان أميرها أبا الفتح الخطاب من قبل عمه الأمير أسعد بن أبي يعفر ، كتب الناصر إلى الأمير أسعد – وكان بينهما مودة شديدة يشكو إليه ابن يعقوب فأمر ابن أخيه أبا الفتح بسجنه فسجنه ومكث في السجن سنتين .

مكانة الهمداني

كان ملوك اليمن وأجلاؤها يكرمونه ويقرّبونه ، ومما يروى عنه أنه قصد مرة أحدَ أجلاء اليمن (١) وامتدحه في سنة شديدة (٢) ، فأكرمه وأنزله أجمل منزل وطوّل عليه في تأخير فأقام شهراً وهو في قلق من أمر أهله وما تركهم عليه من الإعسار ، فلما انقضى الشهر استأذنه في الرجوع إلى أهله فأذن له فرجع كئيباً صفرَ اليدين ، مما قصده له ، خجلاً من أهله ونفسه ، فلما صار قريباً من أهله تلقاه ذووه وأقرباؤه على هيئة جميلة ومراكب نفيسة فتعجب من ذلك وسألهم عن سببه فقالوا : هو ما بعثتَ إلينا ففطن للأمر ، وسألهم صورة ما سُيِرَ إليهم فذكروا كل شيء ففرح وشكر ابن الروية ومدحه وبالغ في وصفه فاشتهرت هذه المكرمة في بلاد اليمن .

---

(١) ابن الروية المرادي من مذحج ولي أعمال صنعاء فترة من الزمن .

(٢) سنة جدب وقحط .

بحوث العرب في العصور الوسطى

إن أبرز الأفكار والنظريات التي قَدّمها الدارسون العرب تدخل في الموضوعات التالية :

١ً – حركة التساقط الحر للأجسام .

٢ً – حركة الأجسام المقذوفة إلى أعلى .

٣ً – قوانين الحركة .

٤ً – مفاهيم العرب للمبدأ أو الميل والاعتماد والجاذبية الأرضية وجميع هذه الموضوعات تشكل تفرعات ثانوية لظاهرة قوة الجاذبية المركزية للأرض فالموضوعان الأول والثاني مترابطان من حيث كونهما حركة جسمية في اتجاهين متضادين ، ولولا ظاهرة سقوط الأجسام على الأرض وارتفاع الأبخرة إلى الأعلى لما كان تاريخ تأملات الإنسان في الجاذبية الأرضية قديماً وأما الموضوع الثالث فيرتبط ارتباطاً مباشراً بقوة الجاذبية الأرضية وحسابها أيضاً ، وهذا هو ما ينص عليه القانون الثاني للحركة والذي يعود فضل صياغته إلى نيوتن (١) ، وأما الموضوع الأخير فبيَّن تطور الفهم العربي لسبب ظاهرة السقوط إلى الأسفل والارتفاع إلى الأعلى للجسمين الثقيل والخفيف على التوالي ،

---

(١) إسحاق نيوتن : /١٦٤٢ – ١٧٢٧ / م . فيلسوف وفيزيائي وفلكي إنكليزي اكتشف تكوين ضياء الشمس /١٦٦٩/ م واكتشف قانون الجاذبية /١٦٨٧/ م .

وسنرى أن العلماء ظلوا في غالبيتهم خاضعين للنظرة الأرسطية من خلال تبينهم لمفاهيم المبدأ أو الميل والاعتماد و لم نجد غير عالمين اثنين خرجا على المفاهيم السابقة وهما أبو محمد الهمداني وأبو الريحان البيروني (١) .

مفهوم الميل عند العرب : ميَّز العرب بين نوعين من الميل الطبيعي والقسري ، أما الطبيعي فهو بمعنى القوة التي تؤدي إلى الحركة حتى يستعيد موضعه الطبيعي ، يقول ابن سينا : الاعتماد والميل هو كيفيةٌ يكون بها الجسم مدافعاً لما يمنعه عن الحركة إلى جهة ما ، يقول الغزالي : الاعتماد والميل هو كيفيةٌ بها يكون الجسم مدافعاً لما يمنعه من الحركة إلى جهته ، ويقول الطوسي (٢) : والاعتماد عندهم هو ما يسميه الحكيم (٣) ميلاً ، وهذه النصوص تعني أن الميل والاعتماد مفهوم واحد ، وأن كل التخبطات الفلسفية ذات الهدف الفيزيائي قد نشأت من فكرة بالغة الخطورة ألا وهي المكان الطبيعي للأجسام .

الجاذبية عند العرب : يقول الرازي (٤) : انجذاب الجسم إلى مجاوره الأقرب أولى من انجذابه إلى مجاوره الأبعد أما البيروني فإنه بلا

---

(١) البيروني : فلكي ورياضي /٣٦٢ - ٤٤١ / هـ .

(٢) الطوسي : نصير الدين محمد ولد في طوس وتوفي ببغداد /٦٧٥/ هـ فلكي ورياضي أسس مرصداً فلكياً في أذربيجان .

(٣) ابن سينا : الشيخ الرئيس طبيب وفيلسوف /٤٢٨/ هـ

(٤) الرازي:فخر الدين محمد بن عمر تـ /٦٠٦/ هـ واسع المعرفة بعلوم المعقول والمنقول .

منازع قد اكتشف الحقيقة الفيزيائية لآلية سقوط الأجسام إلى الأرض ولكن البيروني لم يكن الرائد الأول لهذا الفهم الجديد وتكاد عباراته تطابق ما قال به عالم عربي آخر لايقل عنه موسوعية هو الهمداني .

الهمداني رائد مفهوم الجاذبية

وفي سياق حديثه عن الأرض وما يرتبط بها من أركان ومياه وهواء يقول الهمداني (فمن كان تحتها (١) فهو في الثبات في قامته كمن فوقها ومسقطه وقدمه إلى سطحها الأسفل كمسقطه إلى سطحها الأعلى و كثبات قدمه عليها ، فهي بمنزلة حجر المغناطيس الذي تجذب قواه الحديد إلى كل جانب) إن النص واضح وجلي ، فقد اكتشف الهمداني حقيقة خطيرة وهي أن الكرة الأرضية تجذب الأجسام في كل جهاتها وهذا الجذب إنما هو قوة طبيعية مركزة في الأرض وتترك حول الأرض مجالاً فعالاً أشبه بذلك المجال الذي تتمتع به القطعة المغناطيسية ولهذا السبب فإن من يعتبر نفسه تحتها وهذه الخاصية في الجذب الأرضي هي السبب في كون الذي إلى الأسفل اصطلاحاً لا ينزلق إلى الفراغ الذي تحت الأرض ، ولولا هذه الخاصية لكانت كروية الأرض ودورانها سببين أساسيين في طيران ما على سطح الأرض من كائناتٍ ومحيطات وأشياء غير ملتصقة بها طبيعياً ، لقد ربط الهمداني الخاصية بالأرض و لم

---

(١) تحت الأرض .

يقل مانصه أن الأجسام تجذب بعضها البعض وهـذا المفهـوم مـا يشـكل قانون نيوتن للجاذبية .

نظرية الهمداني في الاحتراق ومكانتها في تاريخ العلم

لماذا تنطفئ شمعة مشتعلة إذا وضعت فترة زمـنية داخل ناقوس من الزجاج ؟ وعلى الرغم مـن بسـاطة الجـواب ووضوحـه في أذهـان عامـة الناس في القرن العشرين ، إلا أن البحث عـن إجابـة موضوعيـة للسـؤال كان مدخلاً من المداخل الهامة التي قادت فعليـاً إلى ثـورة علـم الكيميـاء الـتي ارتبطـت تاريخيـاً بأعمـال لافوازيـه (١) ، ويظهـر أن بعضـاً مـن التطورات العلمية عبر التاريخ قد اتخذت مساراتٍ معقدةٍ حيناً وغريبة في أحيـان أخـرى ، وإلا فمـا معنـى أن يهمـل الذكـاء البشـري نظريتـين واضحتين عن ظاهرة الاحتراق الأولى للهمدانـي (٢) والثانيـة لجـان راي (٣) القائل في النصف الأول من القرن السابع عشر بنظريـة تطـابق تلـك التي أعلنها الهمداني ، ومن وجهة النظر الأوربية يبدأ البحث عـن قـانون يفسـر الظـاهرة العامـة للاحـتراق بجـان راي وينتهـي بلافوازيـه مـروراً

---

(١) انطوان لافوازيه : كيميائي فرنسي /١٧٣٤ - ١٧٩٤/ م .

(٢) قال بها في القرن العاشر الميلادي .

(٣) فيزيائي فرنسي .

بروبرت بويل (١) وروبرت هوك (٢) وجوهان بيشر (٣) وجورج شتال (٤) وجون مايو (٥) وستيفن هالز (٦) وحتى نتمكن من تحديد مكانة الهمداني في هذا المسار العام للنظرية ينبغي التوقف عند إضافات وملاحظات العلماء المذكورين ، نشر الفيزيائي والكيميائي المعدني الفرنسي جان راي بحثاً عام /١٦٣٠/ عنوانه (مقالات في التحقق من سبب تكلس المعادن) أشار فيه إلى أن المعدن حينما يسخن في الهواء كالقصدير أو الرصاص يتحول إلى مادة رمادية متكلسة تزن أكثر من وزنها قبل إجراء عملية التكلس ، وبوضوح تام أشار راي أيضاً إلى أن السبب في هذه الزيادة الوزنية مصدره الهواء الذي تتم فيه عادة عملية تسخين المعادن أو تكلسها غير أن راي أخطأ في تصوره لظاهرة التكليس حين اعتقد أن الأجزاء الخفيفة من الهواء المسخن تندفع مبتعدة عن المعدن المتكلس ، بينما تبقى الأجزاء الكثيفة ملتصقة ، وعلى وجه العموم حقق راي نجاحاً ملموساً في التعبير عن الحقيقتين التاليتين الأولى : زيادة وزن الفلزات عندما تتكلس والثانية توضيحه للعلاقة بين الاحتراق

---

(١) كيميائي إنكليزي /١٦٢٧ - ١٦٩١/ .

(٢) رياضي وفيلسوف إنكليزي /١٦٣٥ - ١٧٠٣/ .

(٣) فيزيائي ألماني /١٦٣٥ - ١٦٨٢/ .

(٤) فيزيائي ألماني /١٦٦٠ - ١٧٣٤/ .

(٥) فسيولوجي وكيميائي إنكليزي /١٦٤٣ - ١٦٩٧/ .

(٦) فيزيائي وكيميائي إنكليزي /١٦٧٧ - ١٧٦١/ .

والهواء ، فخرج بنظريته التي تنص على أن الزيادة في الوزن للمعدن المتكلس أو المحترق تأتي من الهواء ، وبهذه المعاني البسيطة وضع راي قدميه على الطريق السليم الذي يؤدي بالكيمياء إلى ظاهرة الاحتراق وأسرارها ، وبعد سنوات من نشر جان راي لبحثه وقف الكيميائي الإنكليزي روبرت بويل على تجارب تكلس الرصاص والقصدير وفي عام /١٦٦٠/ أثبت بويل نتيجة راي في زيادة وزن الفلزات عندما تتكلس ، ولاحظ أن عملية الاحتراق لاتحتاج بشكل ضروري إلا إلى جزء من الهواء كما يحدث عادة حين تحترق شمعة ، وخرج بويل باستنتاج يقول إن حياة الحيوانات تعتمد كلياً على ذلك الجزء الغامض من الهواء ولكي يبرهن على هذا الرأي أتى بفأر حي ووضعه إلى جانب شمعة مشتعلة تحت ناقوس زجاجي يسمح باستخراج الهواء منه تدريجياً بواسطة مضخة هوائية وحيدة الاتجاه حتى لايزداد الضغط الداخلي وبعد فترة وجد أن الفأر قد مات في نفس اللحظة التي تم فيه انطفاء الشمعة وكانت هذه التجربة أكبر دليل على قيمة رأي بويل لو أنه تابع هذا الطريق التجريبي المليء بالاشراقات الفكرية الملهمة بدلاً من السير في طريق التأمل في تجاربه ذهب بعد ثلاث عشرة سنة مذهباً آخر فأعطى لحقيقة زيادة وزن الفلّزات المتكلسة تفسيراً تأملياً مناقضاً للظاهرة الكلية للاحتراق ، وصحيح أنه لم يبين العلاقة بين الهواء وزيادة الفلّزات المتكلسة ، ولما كان كغيره من علماء القرن السابع عشر ينظر إلى النار كعنصر من

عناصر الطبيعة ظن في عام /١٦٧٣/ أن مرورها عبر جدران الوعاء الذي أجريت فيه التجربة - وكان من الزجاج - أدى إلى اتحادها بالفلز وبذلك زادته وزناً ، وبهذا الصيغ أضلّ بويل من جاء بعده من الباحثين بل وأسهم أيضاً في توجيه آراء الكيميائيين إلى الحرارة و اللهب بدلاً من توجيههم إلى الآراء البسيطة التي خرج بها جان راي وتأمله الشخصي بعد ثلاث عشرة سنة ، وهكذا نرى بويل قد فتح طريقاً آخر لتفسير ظاهرة الاحتراق يستند إلى النار كعنصر يرتبط بها التكلس بشكل وثيق ، و لم تنفع كل ملاحظات وآراء العلماء غير الكيميائيين الذي ظهروا في ذات الفترة وقالوا بآراء تنتصر لجان راي ، ويعود السبب في ذلك إلى أن بويل كان كيميائياً عظيماً وواحداً من الرواد الكبار الذين خَطّوا للكيمياء طريقها إلى المنهج العلمي الصحيح ، فنجد الإنجليزيين جون مايو روبرت هوك كتبا أبحاثاً حول الاحتراق والتنفس وذكرا أن الهواء يفقد من قوته المرنة بتنفس الحيوان فيه بمثل ما يفقد باحتراق شمعة فيه وتابع بعدهما بنحو خمسين عاماً الفيزيائي ستيفن هالز وأتى بآراء مشابهة لهما تماماً ، بل إن روبرت هوك تفوق على معاصريه بتأكيده على ضرورة توفر الهواء للنباتات حتى تستمر عملية النمو كما هو الحال في نمو الحيوان وبرهن على ذلك بنثر بذور في الهواء الطلق وأخرى في وعاء خال من الهواء ، فأثمرت تلك التي زرعت في الهواء الطلق وماتت التي وضعت في الوعاء الخالي من الهواء ، وعلى رغم هذا الرأي الشامل

والمهم الذي كشفت عنه تجارب هوك إلا أن قوة تأثير بويل أحدثت منعطفاً حاداً في تطور الاحتراق وقادت إلى أرضية كيميائية أصلحت الطريق أمام ظهور نظرية الفلوجستون ، التي بظهورها تراجعت النظريات القلقة والمضطربة التي أريد لها أن تفسر ظاهرة الاحتراق وأحيطت تلك الاستثنائية بإهمال شامل ، ولكن هذا التراجع لم يحدث إلا بعد اتساع الاضطراب النظري في تفسير الظاهرة وهو اضطراب غطى سبعة عقود (١) من القرن السابع عشر ، وفي العقد الثامن درس الألمانيان بيشر وشتال مختلف النظريات التي قُدِمَّت لتفسير ظاهرة الاحتراق والتكلس .

الفلوجستون

كلمة إغريقية معناها الاحتراق وهي العنصر الذي يتوفر في جميع الأجسام القابلة للاشتعال ففي مثال انطفاء الشمعة تحت الناقوس الزجاجي يكون الهواء أثناء الاحتراق قد تشبع بالفلوجستون لذا تنطفئ الشمعة بعد فترة لأن الهواء لم يعد يحتمل أكثر من ذلك وحينما نسخن فلزاً في الهواء فإن هذا الفلّز المسخن يعطينا كلساً وكمية من الفلوجستون وبمجرد أن يخرج الفلوجستون إلى الهواء يختفي فيه بالامتصاص وعلى الرغم من غرابة هذه الفرضية وبعدها عن المنطق

---

(١) سبعين عاماً .

بمنظورنا المعاصر إلا أنها سيطرت على عقول الكيميائيين سيطرة كاملة حتى العقد الثامن من القرن الثامن عشر عندما جاء لافوازيه ووضع كتابه (خواطر في الفلوجستون) نادى فيه بإلغاء نظرية الفلوجستون والأخذ بنظرية الأكسجين .

أين الهمداني من هذا كله

لنتأمل قليلاً في نصوصه فنرى في الجزء الثامن من الإكليل (١) وفي باب القبوريات تخصيصاً اعترض الهمداني على خبر مفاده أن رجلين دخلا مغارة وأمضيا فيها وقتاً طويلاً وهما يحملان سراجاً يستدلان به على رؤية الطريق المتعرجة العميقة قال الهمداني هذا الحديث فيه زيادة لاتمكن لأنهم ذكروا المسلك في المغارة ثم دخولهم منها إلى وهدة (٢) فَقَلّ فيها النسيم ويعجز فيها التنفس ويموت فيها السراج ، ومن طباع النفس والسراج أن يحيا كل منهما ما اتصل بالنسيم فإذا انقطع في مثل هذه المغارات العميقة والخروق المستطيلة لايثبت فيها روح ولا سراج ولم يقف الهمداني عند اعتراضه السابق بل توسع في إثبات رأيه مستحضراً أمثلة تجريبية معاشة فقال : ومن ذلك خرق (٣) قلعة ضهر (٤) وهو مستطيل جداً ويقول الناس فيه كنز وقد دخله جماعة

---

(١) أشهر كتبه . (٢) الوهدة : المكان المطمئن .

(٣) الخرق : الثقب في الجدار . (٤) قلعة ضهر : قلعة معروفة في اليمن .

ومعهم السُرُج (١) فلما تغلغلوا حصرت السرج في موضع انقطاع النسيم (٢) فانطفأت فعادوا على أعقابهم معتقدين أن الجن أطفأت السرج والأمر ليس كذلك ، إنما وصلوا إلى مرحلة في هذا الخرق انقطع فيه النسيم فكان لابد من انطفاء السرج ولو مكثوا قليلاً لماتوا جميعاً ولكنهم عادوا مسرعين فنجوا ، وهي حالة شبيهة لتجربة الشمعة المشتعلة تحت الناقوس الزجاجي المغلق ، ثم ذهب الهمداني إلى حياة الناس واستخلص منها تجربة لاتتخطاها العيون فقال : إن التنور تسجر (٣) للهريس (٤) فإذا ختم عليها طفئت النار ورجع الجمر فحماً و لم يبق النضج إلا بالتهر (٥) فإذا فَتحتَ لم تجد ناراً ولاتجد إلاحرارة البخار الواصلة من الجدار وأسفل التنور ، ويستفاد من نصوص الهمداني أنه : اعترض على خبر ورد إليه على شكل واقعة فأبطل الخبر لتعارضه مع حقيقة فيزيائية وأتى بعبارات صيغت بلغة (القوانين العامة) وكان بإمكانه أن يكتفي بذلك بل أورد خبراً وفلسف ما نتج أثناءه وبين أن

---

(١) السرج : جمع سراج .

(٢) النسيم : الريح اللينة لاتحرك شجراً ولاتعفي أثراً .

(٣) سجر التنور : أحماه .

(٤) الهريس : هو اللحم مع مجروش القمح وتدخل في التنور .

(٥) التَهْر : البخار الناتج من حرارة النار .

انطفاء السرج نتج عن نقص النسيم ثم أورد تجربة يومية بإمكان أي إنسان أن يستحضرها في ذهنه ولايوجد بين علماء القرن السابع عشر كله من بلغ هذه السوية من الشمول العقلي الرفيع والوصف غير المضطرب لظاهرة الاحتراق ويضيف الهمداني (وأما ما يقبل النار فإنه متفاضل في القبول على قدر ما فيه من أجزاء النار ، ويقبل الماءُ النارَ عن حاجز وتقبل النارُ الهواءَ وتقوى به لاتصالهما ولاتبقى في موضع لاهواء فيه .

الفيزيائي العالمي الأول

وهكذا يتضح لنا أن الهمداني لم يكتشف ظاهرة الاحتراق فحسب بل اكتشف ظاهرة القابلية المرتبطة بها .

الأكسجين

وعلى الرغم من إثباتات لافوازيه النهائية أن الأكسجين أحد مكونات الهواء الجوي إلا أن معاصريه لم ينظروا إليه كذلك وأصبح معروفاً الآن أن بريستلي (١) عارض آراء لافوازيه ورفضها وظل مناصراً للفلوجستون حتى مات /١٨٠٤/ م .

---

(١) جوزيف بريستلي مكتشف الأكسجين أصدر ما بين /١٧٧٤ - ١٧٨٦/ ستة مجلدات عنوانها أنواع مختلفة من الأهوية - الغازات - يبين فيه كيفية فصل الأكسجين .

مؤلفات الهمداني

الإكليل - السير والأخبار - صفة جزيرة العرب - اليعسوب (١) سرائر الحكمة - القوى في الطب - الحيوان - الجوهرتان العتيقتان المائعتان من الصفراء والبيضاء .

وفاته

توفي سنة /٣٦٠/ هـ بصنعاء ودفن بها .

خاتمة

لم يكتشف الإنسان طريقه إلى نظرية الاحتراق إلا بفضل الآراء والتجارب الدقيقة التي بدأ الهمداني ولقد كان الهمداني عالماً عربياً موسوعياً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ومؤلفاته تدل على العلوم التي برع وكتب فيها كالطب والكيمياء والفيزياء و التراجم والأنساب والمدن وله سرائر الحكمة في صناعة النجوم .

---

(١) في فقه الصيد .

فجر الهدى والإيمان





إعداد
فؤاد حمدو الدقس

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود

المسعودي عالم في الجغرافية

٢٨٧ هـ - ٣٤٦ هـ

- ٨ -

اسمه ونسبه

أبو الحسين علي بن الحسن بن علي بن عبدا لله من ذرية الصحابي الجليل عبدا لله بن مسعود ولذلك عرف باسم المسعودي .

مولده

ولد في بغداد سنة /٢٨٧/ هـ في أواخر عهد الخليفة المعتضد العباسي (١) وكان عصره فترة هدوء ورخاء توسطت فترات قلق واضطراب شهدتها عهود أسلافه وخلفائه .

نشأته

نشأ المسعودي في بغداد وكان ينتسب إلى أسرة عربية عريقة اهتمت أسرته بتعليمه وتثقيفه وحرصت على أن تكون نشأته عربية إسلامية ، وكانت مدينة بغداد حينئذ مركزاً من أعظم مراكز العلم الكبرى في العالم واشتهرت بمكتباتها وما حوته من تراث العلم

---

(١) المعتضد / ٢٧٩ - ٢٨٩ / هـ .

وحضارة المسلمين وضمت عدداً كبيراً من الفقهاء والعلماء والأدباء ولذلك اتيحت الفرصة للمسعودي ليتلقى قسطاً وافراً من العلم والثقافة.

تأثره وتأثيره

تأثر المسعودي بالبيئة التي عاش فيها ، فقد شهد مطلع القرن الرابع الهجري نهضة علمية ثقافية بالإضافة إلى الرحلات التي زار فيها معظم أقطار العالم الإسلامي وكثيراً من البلاد الأخرى فجمع أنواعاً مختلفة عديدة من العلوم والثقافات ودوَّنها في كتبه العديدة على أسس منهجية علمية محددة وكان العرب في ذلك العصر على اتصال بالعالم الخارجي وقد أثبتوا أنهم على جانب كبير من المرونة والحيوية بحيث أمكنهم هضم الثقافات المختلفة وأقلمتها وكانت هذه الرحلات إما للتجارة أو لطلب العلم فوصل العرب إلى روسيا والصين ومجاهل أفريقية ولم تمنعهم صعوبة المواصلات وكثرة الأخطار من هذه الرحلات البعيدة فقد قضى المسعوديُ أكثر من خمسة وعشرين عاماً يطوف أرجاء العالم القديم فوصف أحوال الأمم ونِحَلَهم وعقائِدَهم وتقاليدهم وعاداتِهم ورسم لنا صورة واضحة المعالم للبحار والجبال والممالك والدول ، وفي عصره مال الناس إلى الهجرة من بلادهم رغبة في الاطلاع على البلاد والحضارات الأخرى شأن الأمم القوية في أيام عزها ، وأثرت رحلات المسعودي الكثيرة في كتاباته المختلفة فقد كان بعيداً عن التيارات السياسية والمذهبية التي دفعت بعض المؤرخين إلى العصبية أو

الشعوبية (١) وأمضى أكثر من ربع قرن في رحلات مستمرة فلم يقع تحت سيطرة حاكم أو أمير مما يجعله يتملقه أو يتحامل عليه كما اعتاد الحرية في التنقل ومارس هذه الحرية في كتاباته وأصبح حراً في نقده التاريخي حتى إنه لم يجد حرجاً في انتقاد الخلفاء العباسيين المعاصرين له ووصفهم بعد سيطرة الأتراك عليهم فذكر أنهم صاروا مقهورين خائفين قد قنعوا من الخلافة باسمها ورضوا بالسلامة .

منهجه

لم يتبع المسعوديُ سنة من سبقه من المؤرخين بل وضع منهجاً جديداً وطوّر الدراسات التاريخية وتأثر كثير من المؤرخين بمنهجه وفي مقدمتهم ابن خلدون (٢) فقد حاد المسعودي عن طريقة الطبري (٣) - شيخ المؤرخين - في كتابة التاريخ ، لأن الطبري اتبع طريقه التأريخ بالسنين فكان يؤرخ لأحداث التاريخ سنة بسنة وقد أبرز المؤرخ ابن الأثير (٤) عيوب هذه الطريقة فقال (ورأيتهم - أي من سبقه من المؤرخين - يذكرون الحادثة الواحدة في سنين ويذكرون عنها في كل

---

(١) الشعوبية : القبلية .

(٢) ابن خلدون مؤرخ صاحب المقدمة / ٧٣٢ - ٨٠٨ / هـ .

(٣) الطبري : مؤرخ ومفسر وفقيه / ٢٢٤ - ٣١٠ / هـ .

(٤) ابن الأثير : مؤرخ وهو عز الدين علي أبو الحسن / ٥٥٤ - ٦٣٠ / هـ .

شهر أشياء ، فتأتي الحادثة مقطعة لا يحصل منها على غرض ولا تفهم إلا بعد إمعان النظر ، فجمعت أنا الحادثة في موضوع واحد وذكرت كل شيء منها في أي شيء أو سنة كانت فأتت متناسقة متتابعة) .

وهذا هو نفس المنهج الذي سبقه المسعودي إليه ، أما المؤرخ اليعقوبي (١) - وهو معاصر للطبري - فقد ابتعد عن التأريخ بالسنين وقسم تاريخه تقسيماً موضوعياً وجعل الشخصيات التاريخية أحياناً محوراً لدراسته وخاصة عند حديثه عن العصر الإسلامي ، وحذا الدينوري (٢) حذو اليعقوبي واتبع المسعودي تلك الطريقة لكنه طورها وأضاف إليها من تجاربه وخبراته الكثير ومزج الدراسات التاريخية والجغرافية وفتح آفاقاً جديدة في الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والدينية ، واهتم بمعالم الحضارات المختلفة ، ولزم المسعودي الطريقة الموضوعية وأصبحت الشعوب والملوك والخلفاء محاور دراسته .

تأثير بعض المؤرخين عليه

تحدث في مقدمة كتابه (مروج الذهب) عن بعض المؤرخين الذين تأثر بهم فتحدث عن قيمة كتاب المعارف للدينوري ، ثم أشاد بكتب الطبري وأطنب في مدحه فوصفه بأنه فقيه عصره وناسك دهره إليه انتهت علوم فقهاء الأمصار وحملة السنة والآثار ووصف كتابه بأنه

---

(١) اليعقوبي أحمد بن واضح جغرافي ومؤرخ توفي /٢٨٤/ هـ .

(٢) الدينوري أحمد بن داود أبو حنيفة عالم موسوعي توفي /٢٨٢/ هـ .

الزاهي على المؤلفات ، كما امتدح المسعوديُ كتاب نفطويه ونقد كتاب الأوراق للصولي (١) وأشار إلى كتاب ابن الماشطة ، ثم أطنب في مدح كتب قدامة بن جعفر وكان المسعوديُ قاسياً في نقده لسنان بن ثابت بن قره الحراني (٢) .

أثره في الدراسات التاريخية

أثّر المسعودي في الدراسات التاريخية تأثيراً عميقاً واضحاً فقد وضع أسس مدرسة جديدة في دراسة التاريخ ، فلم يتبع الطريقة القديمة وهي طريقة السرد التاريخي بل اهتم بالتحليل التاريخي والبحث عن المسببات والدوافع ونقد الأحداث ووصل بذلك إلى نتائج هامة .

أثره في الدراسات الجغرافية

أما في مجال الدراسات الجغرافية فقد انتهج المسعودي نهجاً جديداً فلم تكن رحلاته للنزهة أو للتجارة بل كانت لمشاهدة معالم البلاد ومعرفة أخبارها وكتبه تدل على معرفة واسعة باللغات والعادات والتقاليد والأخلاق والأدب والسياسة وهو أكثر عمقاً ودقة من غيره من

(١) الصولي أبو بكر محمد توفي /٣٣٦/ هـ أديب وشاعر له كتاب الأوراق في أخبار آل عباس وأشعارهم .

(٢) سنان بن ثابت بن قره طبيب صابئي من أصل حراني نشأ ببغداد توفي /٣٣٣/ هـ .

الرَّحالة والجغرافيين وسار كل من الاصطخري (١) وأبي الفداء (٢) على نهجه في رحلاته ، وكان لاتساع رقعة الدولة العباسية ووفرة ثروتها ورواج تجارتها أثر كبير في إبداع نهضة ثقافية لم يَشهدْها الشرق من قبل حتى أصبح كثير من الناس طلاباً للعلم وأنصاراً للأدب لقد عُرِفَت الدراسات التاريخية والجغرافية باسم الدراسات الدنيوية وقد جرت العادة حينئذ على تقسيم الدراسات إلى نوعين متميزين دينية ودنيوية أما الدينية فتكون حول القرآن والحديث والدنيوية تشمل الرياضيات والمنطق والكيمياء والطب والتاريخ والجغرافية والفلسفة .

صورته النفسية والعقلية

في كتابه مروج الذهب صور لبعض جوانبه النفسية فهو صورة صادقة للوطني المخلص برغم أنه قضى أكثر من ربع قرن في تجوال دائم إلا أنه لم ينس موطنه الأصلي بغداد حيث ولد ونشأ ولذا نراه في كثير من مواضع كتبه يعبر عن حنينه إلى هذه البلاد وشوقه لرؤيتها ومن كتابه أيضاً نستنتج ثقته بنفسه واعتزازه بما وصل إليه من علم وثقافة ودرايه وبما قام به من جهود ومغامرات وما لاقاه من أهوال ومصاعب ، ونراه يفخر على أقرانه المؤلفين باستفادته من رحلاته ، كما كان يدرك قيمة

---

(١) الاصطخري أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي رحالة من علماء الجغرافية المشهورين توفي /٣٤٧/ هـ .

(٢) أبو الفداء اسماعيل الملك المؤيد أمير عربي مؤرخ وجغرافي/٦٧٢-٧٣٠/ هـ

كتبه ويقدرها حق قدرها ، لقد كان المسعودي على جانب كبير من العلم والثقافة والخبرات والتجارب تلقن بعضها في شبابه ببغداد واكتسب معظمها خلال رحلاته وأسفاره ، وقد اعترف له بذلك كل المؤرخين والكتّاب قدماء أو محدثين ، وأصبحت كتبه مرآة صافية تنعكس منها هذه الثقافات والخبرات ولذا نراه يقول : ولم نترك نوعاً من العلوم ولا فناً من الأخبار ولا طريقة في الآثار إلا أوردناها في هذا الكتاب مفصلاً أو ذكرنا ذلك مجملاً أو أشرنا إليه بضرب من الإشارات أو عرضنا إليه بفحوى من العبارات .

تواضعه

والمسعودي وإن اعتز بعلمه وثقافته فهو يبدو في كثير من صفحات كتبه بمظهر المتواضع وهو تواضع العلماء ونراه يعتذر عما قد يجده القارئ من تقصير لقد تميز بالحياد التام والبعد عن التعصب والتحيز ويقول في ذلك : (وليعلم من نظر فيه (١) أني لم انتصر فيه لمذهب ولا تحيزت إلى قول ولا حكيت عن الناس إلا مجالس أخبارهم و لم أعرض فيه لغير ذلك) .

---

(١) مروج الذهب .

مؤلفاته

كتاب أخبار الزمان والأوسط . وضع المسعودي عشرات من الكتب حوت أخبار رحلاته ومشاهداته وتجاربه ولكن معظم مؤلفاته - للأسف - كان مصيرها الضياع ومن هذه الكتب (كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة) وكان يضم ثلاثين مجلداً و لم يبق منه سوى جزء واحد في مكتبة فيينا بالنمسا وتوجد منه نسخة في دار الكتب المصرية بالقاهرة وأخرى في المكتبة الأهلية بباريس .

وقد أشار إلى كتابه هذا كثيراً فنجده إذا اختصر الكلام في باب من أبواب مروج الذهب قال :(وقد فصّلنا ذلك في كتابنا أخبار الزمان) وبدأ هذا الكتاب بالحديث عن هيئة الأرض وجبالها وأنهارها ومعادنها ثم تحدث عن تقسيم الأرض إلى أقاليم ، كما تحدث عن أخبار الملوك القدماء وسير الأنبياء ومن كتبه أيضاً (الكتاب الأوسط) . وهو وسط بين أخبار الزمان ومروج الذهب وقد ضاع هذا الكتاب ولكن يوجد نسخة منه في مكتبة اكسفورد ببريطانية .

ومن كتبه أيضاً (كتاب التنبيه والإشراف) وقد جمع فيه ألواناً متعددة ومتنوعة من الثقافات والعلوم ولخصّ فيه آراءه في فلسفة التاريخ وتحدث عن تطور آراء الفلاسفة والعلاقة بين الحيوان والمعدن والنبات ونجد في الكتاب أيضاً صوراً تاريخية وصوراً جغرافية ووصفاً لكثير من

البلاد والأقاليم وقد ذكر المسعودي الغرض من تأليف هذا الكتاب فقال: (أردنا أن نذكر فيه الأفلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها والعناصر وتركيباتها وكيفية أفعالها والبيان عن قسمة الأزمنة وفصول السنة والأرض وشكلها وما قيل في مقدار مساحتها وعامرها وغامرها والنواحي والآفاق وما يغلب عليها وتأثيراتها في سكانها والأقاليم السبعة والبحار ومصبات عظام الأنهار كما نقوم بذكر الأمم السبع في سالف الأزمان وجامع تاريخ العالم والأنبياء والملوك من آدم عليه السلام إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ذاكراً مولد النبي وبعثه وهجرته وعدد غزواته وسراياه وكتابّه والخلفاء بعده وحصر التواريخ إلى سنة /٣٤٥/هـ طبع هذا الكتاب في ليدن بهولندا سنة /١٨٩٤/ م فجاء في خمسمائة صفحة .

ومن أشهر مؤلفاته مروج الذهب ومعادن الجوهر وهو من أعظم كتبه خاصة ومن أبرز المصنفات العربية عامة وعن سبب التسمية يقول : (وقد سميت كتابي هذا بكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر لنفاسة ما حواه) . فهو دراسة جغرافية ربط فيها بين الزمان والمكان .

وعن محتوياته إنه تحدث فيه عن التاريخ وأخبار العالم وما مضى في أكناف الزمان من أخبار الأنبياء والملوك وسيرهم والأمم ومساكنها وهذا الكتاب ليس تاريخاً متصل الحلقات ولكنه يتألف من مجموعة من الأحداث والأخبار رتبها المسعودي ترتيباً موضوعياً ، ويمكننا أن نقسم

الكتاب إلى قسمين الأول يتحدث فيه عن الخليقة وقصص الأنبياء والبحار والأرضين وما حوت من العجائب وتوارخ الأمم القديمة من الفرس واليونان والرومان والعرب القدماء وأديانهم وعاداتهم ومذاهبهم ثم يتحدث عن الشهور والتقاويم حتى يصل إلى بعثة النبي صلى الله عليه وسلم والدولة الإسلامية حتى خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وأما القسم الثاني فيبدأ من خلافة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والدولة الأموية ثم العباسية إلى عهد الخليفة المطيع لله العباسي سنة /٣٤٥/ هـ ومن كتبه المفقودة كتاب فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف وكتاب ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور وكتاب نظم الجواهر في تدبير الممالك والعساكر .

المسعودي المؤرخ

يعتبر المسعودي في مقدمة المؤرخين العرب المسلمين نهج منهجاً جديداً ميزه عن غيره من المؤرخين واهتم بمعالم الحضارات المختلفة وقد حاد عن الطريقة التقليدية فكان يذكر الأخبار والأحداث من غير سند واكتفى بأن يذكر في مقدمة كتبه من اعتمد عليهم من الرواة أو المصادر التاريخية وأضاف شيئاً ميزه عن أقرانه فقد كتب دراسة نقدية مقارنة لمصادره وهذه الطريقة ما زال يتبعها المؤرخون المحدثون حينما يخصصون مقدمة لدراساتهم يتحدثون فيها عن مصادرهم وينتقدونها ويقارنون

بينها ، وللمسعودي فضل السبق في ذلك ، فقد اعتمد في تآليفه على المشاهدة لكل الأماكن والشعوب و لم يعتمد على الروايات السماعية التي اعتمد عليها من سبقه من المؤرخين وساعده على ذلك رحلاته العديدة ولذلك كانت أخباره تنبض بالحياة وتتصف بالواقعية وتبعد عن الخيال أو إضافات الرواة وتحريفهم للوقائع ، لقد تميز عن غيره من المؤرخين بما نسميه اليوم بالعقلية التاريخية والحاسة التاريخية وظهرت عقليته واضحة في كتابته (مروج الذهب) (والتنبيه والإشراف) . فقد اهتم بالتطور الزمني وربط بين الأحداث التاريخية وعقد كثيراً من المقارنات فهو يشبه مثلاً الدولة العباسية في ضعفها وانقسامها بدولة الإسكندر بعد وفاته ، أما الحاسة التاريخية فقد اكتسبها من رحلاته العديدة إلى بلاد تختلف تماماً في معالمها وحضاراتها ، ولما كان هدفه من الرحلات البحث والاستقصاء ، فقد اهتم بأن ينظر إلى كل ما يراه بعين النقد والاختبار والتحليل ووازن بين مشاهداته وبين ما سمعه من قبل أو قرأه في الكتب ونجده أثناء الحديث عن مصر في العصر الاخشيدي يبتعد تماماً عن تملق الأمراء الإخشيديين فقد ركز اهتمامه بالحديث عن مصر تاريخها وشعبها وحياتها الاجتماعية ونيلها وآثارها وعجائبها برغم أنه قضى الفترة الأخيرة من حياته في مصر أثناء حكم الدولة الإخشيدية وتميز المسعودي باهتمامه الواضح بالدراسات الاجتماعية والاقتصادية فنجد في كتبه صوراً عديدة لحياة كثير من الشعوب عربية وغير عربية وكان المسعودي

أول من اهتم بهذه الدراسات بينما قصر من سبقه من المؤرخين دراساتهم على ذكر أخبار الخلفاء والولاة وحروبهم وسياساتهم .

المسعودي الرحالة الجغرافي

جاب معظم أنحاء العالم القديم وتعرض لكثير من الأخطار والأهوال وجمع كثيراً من المعلومات والأخبار ودونها في كتبه العديدة التي أدت إلى تطور الدراسات الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية ، لقد رحل المسعودي إلى الأطراف الشرقية من الدولة العباسية مثل بلاد فارس واذربيجان وتجوّل في مدن الهند المختلفة ثم رحل إلى جزيرة سيلان ومنها ركب سفينة إلى بلاد الصين فطاف بمعظم أقاليمها ثم تجوّل بين جزر المحيط الهندي وانتهى به المطاف إلى جزيرة مدغشقر ، كما زار المسعودي مدن الشام ومصر وهو حين يتحدث عن رحلاته يتبع طريقة موضوعية اقليمية فيقسم دراسته إلى موضوعات مستقلة يتحدث كل موضوع عن إقليم معين ، فلا يتبع الطريقة الزمنية ولا يهتم بتتابع أخبار رحلاته أو الربط بينها ، وقد أشار ابن خلدون برحلاته رغم أنه عاش بعده بأربعمائة عام تقريباً وتأثر ابن حوقل (١)

(١) ابن حوقل : رحالة عربي وجغرافي جاب العالم الإسلامي توفي /٣٦٧/ هـ.

والبيروني (١) برحلات المسعودي ونهجا منهجه في رحلاته وتدوين أخبارها ، لكن المسعودي تفوق على الجميع في هذا المضمار فقد كانت معلوماته أكثر دقة وقد اهتم المسعودي بالدراسات الجغرافية فوصف الأرض والبحار ومبادئ الأنهار والجبال والأقاليم وترتيب الأفلاك وناقش رأي بطليموس (٢) في صفة الأرض والأفلاك ومساحة الأرض وتحدث عن أقسام الأرض وعن الكواكب وأثر البيئة الجغرافية في طبائع الناس وتأثير الكواكب في حياة البشر ، وفي كتبه دراسات وافية عن البحار والأنهار ودرس ظاهرة المد والجزر وعدد العلامات التي تدل على وجود المياه في جوف الأرض ونالت بلاد الصين اهتماماً كبيراً منه وتعتبر دراساته حول هذه البلاد أوضح وأوفى من سابقيه فمزج بين وصف بلاد الصين وتاريخها وتحدث عن ملوكهم وشعبهم وعقد دراسة مقارنة بينهم وبين القبائل العربية ، والمسعودي من أوائل الذين اهتموا بالحديث عن بلاد الحبشة والسودان والهند ، كما نالت الأقطار العربية دراسة جغرافية مفصلة فتحدث عن الشام ومصر واليمن والحجاز والمغرب والعراق وأشار إلى أثر البيئة الطبيعية في حياة هذه الأقطار وأمدنا المسعودي بمعلومات وافية عن الأديان في العالم كما لمسها وشاهدها خلال رحلاته العديدة فتحدث عن الوثنية والهياكل وبيوت النار وعقيدة

---

(١) البيروني : فلكي ورياضي ورحالة / ٣٦٢ - ٤٤١ / هـ .

(٢) بطليموس : فلكي وجغرافي يوناني / ٩٠ - ١٦٨ / م .

كل من الهند والصين وعبادة الكواكب كما تحدث عن معابد وهياكل اليونان والرومان والصقالبة .

منزلته

أشاد المؤرخون من عرب وغيرهم بمنزلته وفضله فقال ابن شاكر في فوات الوفيات : (كان إخبارياً علاّمة ، صاحب غرائب ومُلَحٍ ونوادر ووصفه ابن النديم (١) في الفهرست بأنه (مصنف لكتب التواريخ وأخبار الملوك) .

كما اهتم المؤرخون الغربيون به وبإنتاجه العلمي فقاموا بترجمة كثير من كتبه وقال بعضهم عنه (إنه هيرودوت الشرق) وقال كاترمير (٢) عنه (إذا ما نظر الإنسان إلى كتبه بهت من تنوع المواد التي كتب فيها ، ومن كثرة المسائل المهمة العويصة التي حلها ، والحق أنه كان واسع الفضل في الزمان الذي تبع فيه) وقال آدم متز (٣) عن جهوده (حمله حب الاستطلاع إلى بلاد بعيدة في أفريقية وفي الصين) .

---

(١) ابن النديم : محمد بن اسحاق توفي بعد /٣٩٠/ هـ .

(٢) كاترمير : مستشرق فرنسي نشر مقدمة ابن خلدون ونقلها إلى الفرنسية (١٧٨٢ - ١٨٥٧) م .

(٣) آدم متز : مستشرق أوروبي .

تقسيم العلوم عند المسعودي

لقد قسم العلوم إلى أربعة أنواع فقال : هي الارتماطيقي (علم الأعداد) والجومطريقي (علم المسافة والهندسة) والاسترنوبيا (وهو علم النجوم) وأخيراً الموسيقا وهو علم في تأليف اللحون (١) وكتب بحثاً في النفس وطبيعتها وذكر آراء الفلاسفة بهذا الصدد .

وفاته

توفي سنة /٣٤٦/ هـ في مصر ودفن فيها .

خاتمة

نجح المسعودي في ربط الزمان بالمكان من خلال اطلاعه على حضارات العالم ومعرفته بعادات وتقاليد الشعوب فدون كل هذا ووضعه بين يدي القادمين من بعده .

---

(١) اللحون هكذا وردت وتعني (اللحن) والجمع الألحان .

الحسن بن الهيثم

٣٥٤ هـ - ٤٢٩ هـ

- ٩ -

اسمه ونسبه

أبو علي الحسن بن الهيثم (١) .

مولده

وُلِدَ بالبصرةِ سنة /٣٥٤/ هـ من أصلٍ عربيٍ ، لم يتوفر لنا معرفةُ شيءٍ عن طفولتِه .

سفره وترحاله

اعتادَ ابنُ الهيثم على كثرةِ الأسفارِ والترحالِ في طلبِ العلمِ ، فسافر إلى بغدادَ والشامِ ومصرَ وتنقّل في كافة أرجاءِ الإمبراطوريةِ الإسلاميةِ .

اطلاعه على الحضارات

وفي أسفارِهِ اطلّع على حضارةِ الأمصارِ ولم تفتْهُ معرفةُ ما وصلَ إليه العلمُ في عصرِه وقبلَ عصرِه ، فقرأ ما كتبه السابقون أمثال

---

(١) الهيثم هو فرخ النسر .

إقليدس(١) وأرخميدس (٢) وبطليموس (٣) وأرسطو (٤) وجالينوس (٥) وأحاط بكتبِ الفلسفةِ والمنطقِ والإلهيات وكتبِ العلومِ والرياضياتِ والهندسةِ والطبِ والفلكِ وعمل على وضع الملخصاتِ والتصانيفِ في جميعِ هذهِ العلومِ ؛ وكل هذا ليدركَ البُعدَ والعُمقَ في فهمِ معانيها وخباياها الدقيقةِ .

عصره

لابد لنا قبل البدء باستعراضِ الإنجازاتِ العلميةِ لعالِمنا ابن الهيثم من بحثِ الأحوالِ الاجتماعيةِ والسياسية والفكريةِ التي سادت عصره لما لها من الأثر البالغ على طبيعةِ نهج ابنِ الهيثم في رحلةِ البحثِ والاستقصاءِ ، فقد عاصر ابنُ الهيثم إشراقةَ شمسِ العربِ الحضاريةِ حيث شهدتِ الفترةُ الواقعةُ بين منتصف القرن الثاني من القرن العاشر الميلادي

(١) اقليدس : رياضي يوناني وضع مبادئ الهندسة المسطحة القرن (٣) ق.م .

(٢) ارخميدس : عالم يوناني له اكتشافات عديدة منها نسبة قطر الدائرة إلى محيطها /٢٨٧ - ٢١٢/ ق.م .

(٣) بطليموس : فلكي وجغرافي يوناني نشأ بالاسكندرية أشهر مؤلفاته المجسطي وجغرافية بطليموس وله نظرية في هيئة الأفلاك /٩٠ - ١٦٨/ م .

(٤) ارسطو : فيلسوف من كبار مفكري البشرية مؤلفاته في المنطق والطبيعيات والإلهيات والأخلاق /٣٨٤ - ٣٢٢/ ق.م .

(٥) جالينوس : طبيب يوناني له اكتشافات خطيرة في التشريح من أكبر مراجع الأطباء العرب /١٣١ - ٢٠١/ م .

وحتى منتصف القرن الحادي عشر أبرز الإنجازات العلمية في حين كان القرن التاسع فترة انفتاح على الحضارات السابقة من تراثٍ وعلمٍ وفكرٍ وثقافةٍ ولا ننسى أنه في هذا القرن أي التاسع بلغتِ الترجمةُ أَوْجَهَا من اليونانيةِ والفارسيةِ والسريانيةِ والهنديةِ ونشطت الترجمةُ هذا النشاط بسببِ الصراعِ الفكريِ الحادِ الذي ساد العلماء مما دفع كلَ فئةٍ للبحث عن دليل تثبت به رأيها ، فاتجهت إلى الإطلاع على تراثِ الأمم الخاليةِ من فلسفةٍ ومنطقٍ وأخلاقٍ وعلومٍ أخرى ، كما كان لتشجيع الخلفاء أثرٌ واضحٌ في هذه الناحية خاصةً خلفاءَ الدولةِ العباسيةِ أمثالَ المأمونِ والمعتصمِ وفي هذا الصدد نجد الكاتب الفرنسي (ماكس فانتاجو) يقول : لذلك من الضروري أن نسميَ العصرَ الذي عاشه هارونُ الرشيدُ والمأمونُ والخوارزميُ العصرَ الذي حقق فيه العربُ المزيجَ بين المعارف والعلوم اليونانية والفارسية والهندية ، العصرَ الذي اكتشفوا فيه خصوبةَ الجبرَ وروعةَ الحسابِ وفائدة الكيمياء عصرَ المعجزة العربيِ)

وفي القرن العاشر ازدادت الحركةُ اللامركزيةُ في ولاياتِ الدولةِ الإسلاميةِ الكبرى حيث انفردتْ كل وُلاية بشؤونها وأمورِها الخاصةِ وذلك لعدم قدرة خلفاء بني العباس من السيطرةِ على مقاليد الحكم فنشأت دويلاتٌ أمثال الإخشيديين والبربريين ودولة الديلم والدولة الحمدانية و لم يعد للخليفة إلا بغداد وما حولها وسلطة رمزية تتمثل بالدعاء له من فوق المنابر وكان لهذا الوضعِ الأثرُ الفعالُ في إذكاءِ روحِ

التنافسَ بين ولايات العالمِ الإسلامي فأصبحت قصورُ الخلفاء مجمعاً للعلماءِ وأخذَ كلُّ خليفةٍ يسعى جاهداً للإكثار من علمائه وأدبائه وشعرائه فهم في نظره واجهة البلاد وزينتُها ، أما بغداد فكانت العاصمة الفكرية حيث مدارسها ومساجدها حافلة بالعقولِ المفكرةِ العظيمة ثم إن طلاب العلم كانوا يَفِدون إليها من كافة البلاد القريبة والبعيدة كي ينهلوا من نبْعِها الغزيرِ الصافي واتخذ العلمُ في ذلك العصر طابعاً ذاتياً أساسهُ الرغبةُ والفضولُ فانتشرت الكتبُ بين العامةِ والخاصةِ وكان ثراءُ الناسِ يُقاسُ بما يملكونه من كتب ومخطوطات ، وكذلك فعل الوزراءُ ورجالُ الدولة ، فَعْشِقُ الكتب لم يكن وقفاً على حفنةٍ من العلماءِ بل كان هوايةَ العربِ على اختلاف طبقاتهم وتقول المستشرقة الألمانية سيجريد هونكة بهذا الصدد : (إن متوسط ما كانت تحويه مكتبة خاصة لعربي في القرن العاشر كان أكثر مما تحويه كل مكتبات الغرب مجتمعة) .

ولم تقتصر المعجزة العربية على بلاد المشرق الإسلامي بل كان لبلاد المغرب والأندلس الدور الأمثل في الحركة الفكرية والحضارية فاشتهر من علماء الأندلس ابنُ زهر الطبيبُ الأندلسيُ وعباسُ بن فرناس وزرياب وابن رشد وغيرهم من العلماء والفلاسفة والحكماء ، أما الجامعات فقد ازدهرت في كافة أنحاءِ العالمِ الإسلامي فها هو بيتُ

الحكمة ببغداد ودارُ الحكمة بالقاهرة وجامعةُ القرويين في فـاس في حـين لم تكن أوربا تعرف هذا النمطَ من الجامعاتِ .

الاتجاه الفلسفي في تفكيره

يعـرض للكثـير مـن المفكريـن في أوائـل أدوار نضجهـم الفكـري ضربٌ من التشككِ والحيرةِ يؤدي عادةً إلى توجيـه تفكـيرهم إلى وجهـةٍ فلسفيةٍ خاصة ، كذلك عَرَض لابن الهيثم خصوصاً عندما بدأ في التفكير في تعدد الفِرَق وتمسكِ كل فرقة بما لديها وما بين مذاهـب تلـك الفـرق من الاختلاف والتباين في الاعتقاد والـرأي ، لكنـه أدرك منـذ أولِ عهـدِ هذا التشككِ أن الحقائقَ في ذواتها لابد أن تكون واحدة ، فمن الواجب عقـلاً ومنطقـاً أن تتفـق عليهـا جميـعُ المذاهـب ، ورأى أن تبـاينَ الآراءِ وتناقضَها إنما هما يرجعان إلى الطـرقِ المسـلوكةِ إلى بلـوغِ تلـكَ الآراء ، فهل من طريقٍ أمثل يؤدي سلوكُه إلى الحقائق التي بها تنكشفُ تمويهـاتُ الظنون وتنقشع غيابات المتشكك المفتون ؟ هـو نفسـه يجيـب علـى هـذا التساؤل فيقول : فرأيت أني لاأصلُ إلى الحـقِ مـن آراءٍ يكـون عنصرُهـا الأمورَ الحسية وصورتُها الأمـورَ العقليـةَ فلـم أجـدْ ذلـك إلا فيمـا قـرره ارسطوطاليس مـن علـومِ المنطـقِ والطبيعيـاتِ والإلهيـاتِ الـتي هـي ذاتُ الفلسفةِ وطبيعتُها .

ارسطو وابن الهيثم

ومن جرَّاءِ ذلك آثرَ ابنُ الهيثم من بـين الفلسـفاتِ القديمـة فلسـفةَ آرسـطو وانطلـق يدرسُـها دراسـةً عميقـةً لكـي يلـمَ بنواحيهـا العديــدةِ ويستوعبها اجمالاً وتفصيلاً ، ففلسـفةُ ارسـطو تُعـدُ حلقـة الاتصـالِ بـين الفلسفةِ الخيالية النظرية وبين التعاليمِ العملية حاولَ فيها ارسطو أن يجـردَ الفلسفةَ من الخيالاتِ الشعريةِ التي صاغها فيها افلاطون من قبلِه وحـاول أن يؤسسها على الواقعِ ومشاهدةِ الواقعِ فيعيد إلى عالمِ الحـسِ شيئاً مـن خطره الذي أنكره افلاطون وحاول ارسطو أن يجعل فيهـا وحـدةً ينظـم بها ظواهرَ العالم وقد أُعجِبَ ابنُ الهيثم بطريقة آرسطو في عرضِ فلسـفتِه إعجاباً حداه إلى إجمالِ موضوعاتِ هذه الفلسفة وبيان تتاليها بعضهـا في اثر بعض فبيَن أن آرسطو بدأ بالمنطِق وتَدرّجَ من الأمورِ الكليـةِ والجزئيـةِ والعامـةِ والخاصـةِ إلى الألفـاظ المنطقيـة ثـم إلى المعـاني الـتي تُركـب مـع الألفاظ فيكون منها الكلام المفهوم ثم خص من الكلام المفهـوم الأخبـار التي هي القضايا والتي هي عنصر القياس ومادتـه ثـم تنـاول الكـلام عـن القياس وقسم مقدماته وبين وجوه اكتساب المقدمات ومن بعده الكــلام في طبيعة البرهان وإيثار ابن الهبثم لفلسفة أرسطو له دلالة واضحــة علـى اتجاه تفكيره ومنحاه الفلسفي فهو يعنى بالأمور الحسية ويتخذهــا سـبيلاً إلى معرفة الواقـع وانطلاقـاً مـن النظـرة العمليـة العلميـة لحقـائق الوجـود

وارتكازاً على كل الايجابية العلمية والنظرة الشمولية لآرسطو واستلهاماً من تجاربه وبحوثه اتجه ابن الهيثم إلى علم الضوء .

منهجه العلمي

لقد كان ابنُ الهيثم بمنهجه العلمي يرتكزُ بقوةٍ على الأرضية الصلبة للحقائق العلمية بعيداً عن النزوات والأهواء بعيداً عن عملية التلوين الذاتي لحقائقِ الحياة ، لاذاتيةَ في العلم هذه هي الصرخةُ التي أطلقها ابنُ الهيثم فنحن لانستطيع أن نخضعَ حقائقَ الوجودِ وحقائقَ القوانين العلمية لأي مستوى من مستويات الانفعالِ الشخصي أو الاتجاه الذاتي إن الحقيقةَ أكبرُ من عمليةِ الاحتيالِ عليها ، لقد أخذ ابنُ الهيثم باسلوب الاستقراءِ في بحوثِه الضوئية وأخذ بالقياسِ والتمثيل أيضاً وهو بهذا المنهجِ يكون قد تخطى (باكون) (١) بمراحل ، فإن ابن الهيثم لم يكن ولعُه أو شغفُه يكمن في الفلسفةِ النظرية وفي المعادلات العلمية الخيالية بل كان ما يعنى أول يعنى بامتحانِ الظاهرةِ وفحصِها من كل جوانِبها ووضعها على المحكِّ العلمي للعقلِ والتجربة ثم يقوم بعد ذلك بعملية الاستنباط والاستقراء وتدوين النتائج ولعل أروع ما قاله ابنُ الهيثم في هذا المجال والذي يعتبر وثيقةً علميةً وفلسفيةً وتاريخيةً : (ولعلنا ننتهي بهذا الطريق إلى الحق الذي يثلج الصدرَ ونصل بالتدريج والتلطف إلى الغاية التي عندها يقع اليقين ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول

---

(١) فرنسيس باكون : /١٥٦١ - ١٦٢٦/ فيلسوف انكليزي صرف مجهوده إلى إحياء الفلسفة والعلوم بالطرق الاختيارية .

بها الخلافُ وتنحسر عندها الشبهاتُ ، هذا هو المنهج العلمي الذي اتبعه ابن الهيثم في كل بحوثه وكشوفه الضوئية والفلسفية وهو بحد ذاته المنهجُ العلميُ الجدليُ المُعتَمدُ كأساسٍ للبحثِ العلمي المعاصرِ .

ابن الهيثم والطب

سافر إلى بغداد حيثُ درسَ في البيمارستان (١) وكانت الدولةُ الإسلاميةُ حينئذٍ قد أصدرتْ قانوناً جديداً على الإنسانيةِ جمعاءَ عُرِف باسم (قانون الرخص الطبية) . حيث لا يسمح بممارسةِ مهنةِ الطبِ إلا بعد اجتيازِ الامتحانِ المقرر من قبل الهيئة المسؤولة وقد صدر هذا القانون في عهد الخليفة العباسي (٢) المقتدر سنة /٩٢١/ ميلادية أي قبل أن تعرفه أوربة بقرون عديدة .

اختراعاته

إن ابن الهيثم عالِمٌ اعتباريٌ بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، والناحيةُ الاعتباريةُ من بحوثِ ابنِ الهيثم واضحةُ الدلالةِ على أن عملَه لم يكن مقصوراً على مجردِ إجراءِ التجاربِ بل تضّمن إنشاءَ أجهزةٍ وآلاتٍ استعملها في تلك البحوث وإنْ كان قد سبقه إلى ذلك بعضُ المتقدمين كبطليموس فإنه قد عدَّل وغيّر التصميمَ وأصلح تلك الآلاتِ بما يجعلُها تحققُ الأغراضَ التي أرادها ، ومنها ما كان معقدَ التركيبِ دقيقَ الأجزاءِ عسيرَ الصنعِ ، وهو لايكتفي بمجرد وصفها وكيفيةِ استعمالها وإنما يأتي

---

(١) بيمارستان : كلمتان ومعناهما مكان الاستشفاء (مستشفى) .

(٢) /٢٩٠/ هـ .

في شرحٍ مسهب (١) على كيفية صنعِ الأجزاءِ المختلفةِ التي تتركب منها الآلةُ ، كل جُزءٍ منها على حدة مبتدئاً بقطعهِ من مادته الخام ثم مفصلاً كيف تمَّ القطعُ وكيف تم تشكيلُ الجـزءِ حتى يتمُ الصنعُ على الأبعاد الدقيقةِ الصحيحةِ ثم كيفيةُ تركيبِ كل جزءٍ مع الآخر حتى يتم تركيبُ الجهازِ كاملاً بأجزائه الإضافية وبتداريجه ومقاييسه .

ابن الهيثم بين النظرية والتطبيق

ونحن نرى أن مثل هذا التفصيلِ المسهبِ لكيفية صنعِ الأجهزةِ له دلالةٌ جديرةٌ بالذكر فهو لايدلُ على عنايةٍ جادةٍ بالناحيةِ العمليةِ فحسبْ بل يدلُ أيضاً ان ابن الهيثم إن لم يكنْ هو بنفسه قد قامَ بصنع تلك الأجهزة بيديه على أقل تقدير صُنعتْ بإرشاده وبناءً على تصميمه وانه قد أشرف على اعدادها وراقبَ خطواتِ العمل في كلِ مرحلةٍ من مراحلِه ، وصنعُ مثل هذه الأجهزةِ المعقدةِ في زمنٍ لم يكن مزوداً بالآلات والعددِ الميكانيكية التي يستعانُ بها الآنَ في المصانع لصنع أمثالها ، ليدل على أنَ ابنَ الهيثم قد اجتمعتْ فيه الصفاتُ لأن يكون من بين علماءِ الطبيعة عالماً متفرداً فقد جمع بينَ المقدرةِ الرياضية العاليةِ وبين الكفايةِ العلميةِ المختارة التي تدل عليها هذه الأجهزةُ .

تواضعه

إن للحسن بنِ الهيثم آراءهُ الشخصية المتحررة من قيودِ التقليدِ مرتبطةً أولاً وأخيراً بالعقل بأسلوبٍ بعيدٍ عن الغرورِ ، ويملي رأيَهُ

(١) مطول .

بتواضعٍ جمٍ فهو القـائلُ (إذا وجـدت كلامـاً حسناً لغيركَ فـلا تنسبْهُ لَنفسِكَ واكتـفِ باسـتفادتكَ منـه ، فـإن الولـدَ يُلحـقُ بأبيـه والكـلامَ بصاحبهِ) وكان إذا توَصّل إلى شـيءٍ جديدٍ قـال بلا فـخرٍ ولاغـرورٍ (ولانعرف أحداً من المتقدمـين ولا المتـأخرين بيَّـن هـذا ولا وجدنـاه في شيءٍ من الكتب) .

شهرته

ذاعتْ شهرتُه في الأمصارِ الإسلاميةِ حتى إن أهل بغـداد استفتوه في مسائل كثيرةٍ بالرغم من أنها كانت زاخرةً بصفوةٍ من علمـاءِ عصرِه وذلك لما عُرِف عنه من إتقانٍ وإبداعٍ في العلومِ المختلفةِ وعندما سمـع بـه حاكمُ مصرَ (الحاكمُ بأمرِ اللهِ الفاطمي (١)) أرسل في طلبه ، فقد سمع أن ابنَ الهيثم قال : لو كنتُ بمصرَ لعملتُ في نيلِها عملاً عظيمـاً يصلـحُ به النفعُ في كلِ حالةٍ من حالاتهِ فقد بلغني أنه ينحـدرُ مـن موضـعٍ عـالٍ وهو في طرفِ الإقليمِ المصريِ ، وعندما بلغ ذلـكَ القـول للحـاكم بـأمر الله أرسلَ له يستدعيه إلى القاهرةِ وقد بالغَ في إكرامِهِ لدرجةِ أنـه خـرجَ في استقبالهِ عندَ مدخل القاهرةِ كمـا جـرتِ العـادةُ في اسـتقبالِ الحكـامِ والملوكِ ثم طالبه الحاكم بعدها بما قال في النيل ، وجهَّـز لـه بعثـةً علميـةً بكاملِ معداتِها وأجهزتها وزوَدهُ بالمهندسين والعمالِ المهرةِ ليعملـوا بـين

---

(١) الحاكم بأمر الله : منصور بن العزيـز /٣٧٥ - ٤١١/ هـ سـادس الخلفـاء الفاطميين كان في السنوات الأولى من حكمـه متفانيـاً في خدمـة البـلاد والعمـل على ازدهارها لكن نهايته اشتهرت بالظلم والاستبداد .

يديه ، وسارَتِ البعثةُ في المراكب النهريةِ تتبعُ مجرى النيلِ إلى أسوان وما بعد أسوان ومضى ابنُ الهيثم يدرسُ ويبحثُ ويدقّقُ حتى وصلَ إلى حدود القطرِ المصريِ وأدركَ بعدها أن أفكارَهُ التي خطرت لَه مخالفَةٌ للواقعِ وفي ذلك يقول أحد المتخصصين (وهناك اختارَ ابنُ الهيثم الموقع لإقامةِ السدِ وهو نفسُ الموقعِ الذي تم عليه بناءُ (١) السدِ العالي) .

فابن الهيثم بعد طولِ الدراساتِ والتجاربِ تبين له أنه من المستحيل بناءُ سدٍ على النيل بهذه الضخامةِ وبإمكانياتِ ذلك العصر اليدوية ، فذلك يحتاج إلى معداتٍ هائلةٍ ومتطورةٍ ، ولكنَّ تلكَ المعداتِ لم تكن قد ظهرتْ إلى الوجود بعد ، وقدمّ ابن الهيثم أعذارهُ للحاكم الذي تظاهرَ بقبولِها واقتناعه بما أورده من أدلة . وولاه منصباً إدارياً من مناصبِ الدولةِ حتى لا يشعر بفشلٍ أو إحباطٍ ومما يُروى عن الحاكم بأمر الله أنه كان رجلاً ذا مزاجٍ غريب مفرطاً في الكرم وفي المقابل مفرطاً في العِقاب مما اضطر ابن الهيثم إلى قبولِ المنصبِ رهبةً لا رغبةً ومع توالي الأيام بدأ ابن الهيثم يشعرُ بالكبتِ والإحباطِ فلم يجد وسيلة إلى التخلصِ من قيدِه بالمنصبِ سوى إشاعةِ الجنونِ عن نفسه بين الناسِ مما دفعَ بالحاكمِ أن يعطفَ عليه ويضعه في بيتٍ خاصٍ يجري عليه رزقَهُ ويخصصَ له من يرعاهُ ويعتني به و لم يزل كذلك حتى توفيَ الحاكمُ بأمر

---

(١) تم بناء السد العالي سنة ١٩٦٠ م .

الله وذلك /٤١١/ هـ فلما تحقق ابن الهيثم من وفاتهِ أنطلقَ إلى غرفةِ بالجامعِ الأزهرِ يبحثُ ويجربُ ويؤلفُ حتى وضعَ أجلّ أعمالِه وهو كتابٌ في البصريات أسماه (المناظر) .

مصدر رزقه

ولقد اعتمدَ ابنُ الهيثم في تدبيرِ معيشتِه على نسخِ الكتبِ العلميةِ وبيعِها وفي هذا يقول أحدُ معاصريه (كان ابنُ الهيثم ينسخُ كل سنةٍ ثلاثةَ كتبٍ في الهندسةِ والحِساب والفلكِ حتى إذا انتهى جاءه من يدفع له . مائة وخمسين ديناراً مصرياً فيجعلها مؤونةً لسنتِه ، فقد اشتهرت كتبهُ التي ينسخها بخطٍ حسنٍ ومنظرٍ جميلٍ بالإضافة إلى الدقةِ العملية لذلك كانوا يتهافتونَ للحصول عليها ويتفاخرونَ باقتنائها هذا بالإضافة إلى اعتمادِه على التأليفِ والترجمةِ في تحصيل رزقِهِ فقد كان مُلّماً بلغاتِ عصرِه وكان مجموعُ ما كتبه من المخطوطات والرسائل مائتين وسبعة وثلاثين مؤلفاً في شتى فروعِ العلمِ والمعرفةِ منها ثمانية وتسعون كتاباً .

مكانته بالشرق والغرب

لقد عرفَ السابقونَ فضلَ ابن الهيثم ومكانته التي وصل إليها بفضل نبوغه وعبقريته فقال القفطي (١) : إنهُ صاحبُ التصانيف والتآليفِ في الهندسة وكان عالماً بهذا الشأن متقناً له متفنناً فيه ، قيماً بغوامضِه ومعانيه ومشاركاً وشارحاً لعلومِ الأوائل ، أخذ عنه الناسُ

(١) القفطي : أبو الحسن علي بن يوسف وزير ومؤرخ درس الرياضيات والنجوم والهندسة توفي /٦٤٦/ هـ .

واستفادوا وورد في كتاب (ابن الهيثم وأثره المطبوع في الضوء) على لسان مؤلفه العالم المصري مصطفى نظيف (لا أتردد في أن أقول إنه كان أعظم علماء العالم الذين نبغوا في عصر الحضارة الإسلامية ولا أتردد في أن أقول إنه في مقدمة الأعلام من علماء الطبيعة في جميع عصور التاريخ) .

ويقول فيه العالم الإنكليزي جون دبزوند برناك (يعتبر كتاب المناظر لابن الهيثم هو أول دراسةٍ عمليةٍ جادةٍ في موضوعِ الضوء ، وابنُ الهيثم وغيرهُ من علماء العرب هم أولُ من فهم موضوع انعكاس الضوء بالمفهوم الجديد وبمرورِ الضوءِ خلالَ الأجسامِ المشفةِ الأمرُ الذي كان له الفضلُ في إرساءِ قواعدِ علمِ البصريات) .

ويشير المؤرخُ سارطون فيقول (ابن الهيثم يعتبر أول مخترع للكاميرا في العالم وهو أعظم عالم ظهر عند العرب في علم الطبيعة بل أعظم علماء الطبيعة في القرون الوسطى ومن علماء البصريات القليلين المشهورين في العالم كله) . واعترف العالم الفرنسي لوتير فياردو : بأن كيلر أخذ معلوماته في الضوء ولاسيما فيما يتعلق بالانكسار في الجو من كتبِ ابن الهيثم .

وإنه لمن المفرحِ ومما يدعو للسرور أن نجدَ بعضَ الهيئاتِ والمعاهدِ العلميةِ الغربيةِ أخذتْ تعترفُ بالعلماء العرب ونوابغهم لما لهم من فضل على الحضارة الأوربية حيث راحت تخلد أسماءهم وتحيي ذكراهم .

استنتاجاته

اتبع ابن الهيثم في بحوثِهِ كلها وخاصة ما يتعلق منهـا بعلـم الضـوء منهاجاً علمياً بناه على الاستقراءِ في أغلب الأحيـانِ وعلـى الاسـتنتاجِ في أحيانٍ أخرى وهو في ذلك كله يلجأ إلى القياسِ وكان سـبيلُه إلى المعرفـة بالمشاهدةَ والتجربة والملاحظة وكان همهُ من وراء البحـث الوصـولَ إلى الحقيقة التي تُثلجُ صـدرهُ وكـان يعلـمُ أن هـذا الكـونَ مـا هـو إلا قطـرةٌ صغيرةٌ من الترابِ تسيحُ في قطرةٍ صغيرةٍ من الضـوءِ وإن الإنسـانَ مهمـا حاول أن يبحثَ ويكشفَ فإنه يبقـى طـارقاً لأبـواب المجهـولِ بابـاً تلـوَ الآخر .

قوله في تضارب الآراء

كان يعتقدُ أن تضاربَ الآراءِ وتناقضها ليس شـهادةً ضدَهـا ولا ضد العلماء بل شهادةً لهم ، فتضارب الآراءِ واحتكاكها ببعْضها البعْـض هو الأسلوبُ الوحيدُ لظهورِ الحقيقةِ .

ومما ساعد ابن الهيثم على انتهاج هذه الخطة العملية أنه كان عالمـاً ورياضيـاً (١) وفيلسـوفاً نظـرياً بالإضافـة إلى إحـاطتـه بالعلـوم الطبيعيةِ ، فالرياضياتُ مكنتهُ من تنظيـم بحوثـهِ والفلسـفةُ سـاعدته علـى حسـن تخيـل الأمـور ، فقـد درسَ فلسـفةَ أرسـطو وفهمهـا وأدرك أن الفلسفة المجردَة والمعزولةَ عن دافعِ الحقائقِ لا يمكن أن تلعـبَ دوراً مؤثـراً في تطويـرِ العقليةِ العلميـةِ للإنسـانِ ولا يمكـن أن تقـوم بتغيـير الخطـأ

---

(١) عالم رياضيات

واكتشافِ الكونِ والإنسانِ فالفلسفةُ لديه هي فلسفةُ الاكتشافِ .

ابن الهيثم وعلم الضوء

يُعتَبرُ ابنُ الهيثم مؤسساً لعلم الضوء حيث ألّف كتابه (المناظر) بمقالاته السبع وذلك بعد موت الحاكمِ بأمر الله حيث يُعتَبرُ هذا الكتاب من أثمنِ كتب التراثِ العلمي العربي بما يحتويه من ذخائرَ خالدةٍ وقد جعل من علمِ الضوءِ علماً بالمعنى الحديث .

ابن الهيثم والرياضيات

إن الرياضيات هي مَلكةُ العلوم لأنها ترفدها جميعاً ولا يسُتغنى عنها في فرعٍ من الفروع ولما كان ابن الهيثم قد بَرعَ في الفيزياءِ والهندسةِ وغيرها من العلوم فإن هذا يؤكد أنه كان ضليعاً في علم الرياضيات البحتة بفروعها المختلفة التي كانت معروفةً في زمانه ، وقد وضع ابنُ الهيثم ما يزيد على الثلاثين مؤلفاً في الرياضيات بفروعها .

ابن الهيثم والميكانيكا

لم يقتصرْ إبداعُ ابنِ الهيثم على علم الضوء والرياضيات فحسب بل تعدى ذلك إلى علوم أخرى ترتبط مع علم الضوء بفكرةٍ معينةٍ وكان لفكرة الانعكاس الارتباطُ الأكبرُ مع علمِ الميكانيكا .

ابن الهيثم وعلم الفلك

عرفَ العربُ قبلَ الإسلامِ علمَ الفلكِ فكان عربُ نجد والحجاز يعنون بالسماء والنجوم وذكروها في أشعارهم وأخبارهم وعندما جاء الإسلامُ خطا علمُ الفلكِ خطواتٍ واسعةً لأن الإسلامِ يشجعُ على

طلبِ العلمِ وقد ساهم ابنُ الهيثم مع علماء المسلمين في إعطاء علمِ الفلكِ حقهُ من الدراساتِ مما حدا بالبيهقي (١) أن ينعتهُ بـ (بطليموس الثاني) وقد ألف ابن الهيثم ما يزيد على أربعة وعشرين مؤلفاً في علم الفلك وله مؤلفاتٌ كثيرةٌ في علم الضوء إلا أن أهمها كتابه (المناظر)

وفاته

في أواخر أيامهِ مرضَ ابنُ الهيثم مرضاً شديداً ولما أيس من نفسِه قال (ضاعت الهندسة وبطلت المعالجة وعلوم الطب و لم يبق إلا تسليمُ الروح إلى خالقها ثم توضأ وتوجه تلقاءَ القِبْلةِ وقال : (إليك المرجع وإليك المصير يارب عليك توكلت وإليك أنيب) ثم فاضت روحهُ الطاهرةُ وكان هذا سنة /٤٣٠/ هـ بالقاهرة .

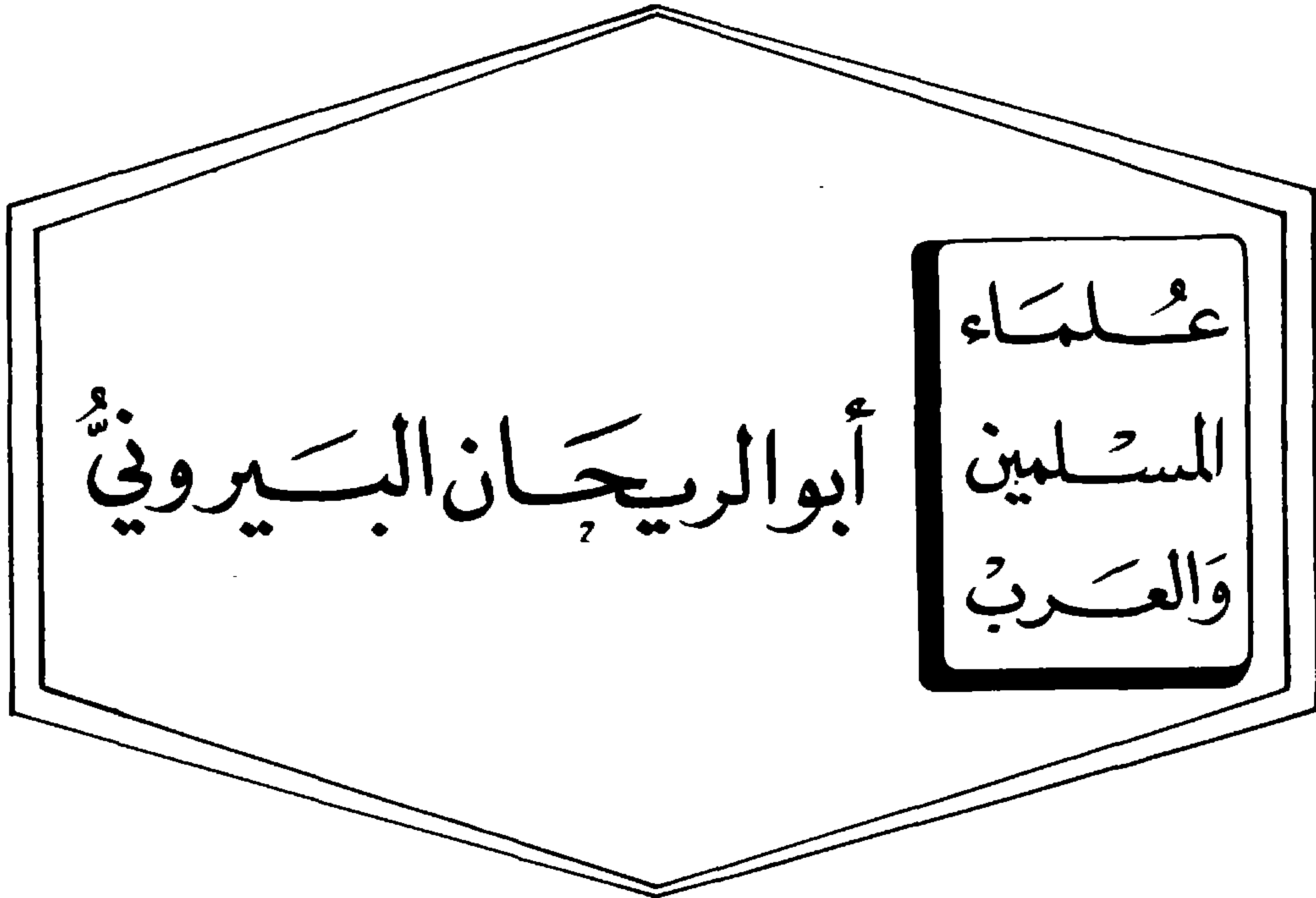
خاتمة

وهكذا عاش ابنُ الهيثم حياةً مليئةً بالبحثِ والاكتشافِ نتاجُها الطريقةُ العلميةُ الحديثةُ والقوانينُ والنظرياتُ التي أصبحت فيما بعد وفاته نبراساً يَهْتديْ به العلماءِ الذين قدمّوا للبشريةِ كلَ ثمراتِ عقولِهم ولذلك دخلوا التاريخَ من أوسعِ أبوابه وأطلّوا على الإنسانيةِ من أكبرِ نوافِذها ، كان يعلمُ أن هذا الكونَ ما هو إلا قطرةٌ صغيرةٌ من الترابِ تسبح في قطرةٍ صغيرةٍ من الضوءِ وأن الإنسانَ مهما حاول أن يبحثَ ويكشفَ فإنه يبقى طارقاً لأبوابِ المجهولِ باباً تلو الآخر .

---

(١) البيهقي : أبو الفضل محمد بن الحسين مؤرخ فارسي ولد في حارث آباد عمل في ديوان الملوك الغزنويين له كتاب (جامع التواريخ) .

فجر الهدى والإيمان





إعداد

فؤاد محمود الرقش

مراجعة

أحمد عبد الله فرهود

البيروني

٣٦٢ هـ-٤٤١ هـ

- ١٠ -

اسمه ونسبه

أبو الريحانِ محمدُبنُ أحمدَ البيرونيُ - عالم في الفلك .

مولده

وُلِدَ في إحدى ضواحي عاصمةِ الدولةِ الخوارزميةِ وهي مدينةُ كاث ويُوجدُ مكانُها حالياً بلدةٌ صغيرةٌ تابعةٌ لجمهوريةِ أوزبكستان إحدى الجمهورياتِ المستقلةِ عن الاتحاد السوفيتي السابقِ وذلكَ سنة ٣٦٢ هـ .

تسمية البيروني

ذكر السمعانيُ في كتاب الأنساب أن التجارَ كانوا يقطنونَ خارجَ أسوارِ العاصمةِ تخلصاً من دفعِ المكوسِ (١) على البضائعِ الداخلةِ إليها وكان يُطْلَقُ على مَنْ يعيشُ خارجَ البلدةِ اسم : (بيروني) بالفارسية .

وكان البيرونيُ إلى جانب معرفتهِ باللغةِ الخوارزميةِ يجيدُ العربيةَ والفارسيةَ والسريانيةَ واليونانيةَ وكان ذلكَ خيرَ عونٍ لهُ على مطالعةِ

---

(١) المكوس : الجباية .

مراجعِ تلكَ الثقافاتِ المختلفةِ دونَ أن يعتمدَ كليةً على ما تُرجِمَ منها ، بما فيها من أخطاء محتملةٍ وقعَ فيها المترجمون وخاصةً غير المتخصصين منهم في النواحي التي كُلِّفوا بترجمتها .

نبوغُه

نبغَ أبو الريحانِ في الرياضياتِ والفلك ويُعتبرُ جغرافياً ومؤرخاً ولغوياً وفيلسوفاً ، ولعل حب الاطلاعِ عنده جعلهُ ينتقلُ من دراسةِ العلومِ الدانية إلى دراسةِ الأسرارِ النائيةِ التي تتمثلُ في الأجرامِ السماويةِ ، كما كتبَ بعضَ الرسائل في الاقتصادِ والنباتِ ، حتى إنه أُطلِقَ عليه لقب (الأستاذ) لعبقريته وإبداعاته المتنوعة .

مشاركتهُ السياسيةُ

لم يقتصر البيرونيُ على الحياةِ العمليةِ فحسب بل شاركَ في الحياةِ السياسيةِ في خوارزم وانضمَ إلى أنصار خوارزم شاه أبي العباس الذي اغتيل سنة /٣٨٥/ هـ فاضُطرَ البيرونيُ إلى الهجرةِ خارجَ حدودِ وطنه قاصداً (جورجان (١)) حيثُ التحقَ ببلاطِ السلطانِ أبي الحسن قابوسِ ابنِ وشمكير وهناك نشَر أولَ مؤلفاتِه الكبرى عن التقاويمِ والتواريخِ والآثار الباقيةِ عن القرونِ الخاليةِ في الفلكِ والرياضياتِ

---

(١) في الجنوب الشرقي لبحيرة قزوين .

عودته إلى خوارزم

وبعد تغير الحالةِ السياسيةِ في خوارزم عادَ البيرونيُ إلى وطنِه سنَة (٤٠٠ هـ) بعد أن قضى خارجَهُ خمسةَ عشرَ عاماً ، فاستقبلهُ الأمير أبو الحسن عليُ بنُ مأمون أحسنَ استقبالٍ وألحقَهُ بحاشيةِ أخيه أبي العباس مأمونِ بنِ مأمون خوارزم شاه الذي عهدَ إليه ببعضِ المهامِ السياسيةِ بسببِ طلاقةِ لسانهِ وقدرتهِ على الإقناعِ . أقام البيرونيُ في مدينةِ الجورجانيةِ وكان إلى جانب منصبهِ السياسي في البلاط من أكبرِ العلماءِ اختراعاً وأجلهم تقديراً في خوارزم ، كما استمر في أبحاثهِ العلميةِ وخاصةً الفلكيةُ منها وإن كان نتاجهُ العلميُ قد قَلَّ نتيجةً للأعباءِ السياسيةِ الموكولةِ إليهِ .

البيروني أسيراً

في سنة /٤٠٧/ هـ غزا السلطانُ محمود الغزنويُ (١) بنُ سبكتكين (٣) خوارزم واحتلها ثم أخذَ البيرونيَ وطائفةً من العلماءِ

---

(١) السلطان محمود الغزنوي رابع سلاطين السلالة الغزنوية تسلم الحكم بعد أبيه سنة ٣٨٨ هـ حتى توفي سنة /٤٢٠/هـ.

(٢) سبكتكين : مملوك البتكين والوصي على ابنه الذي عاجلته المنية فاتفق القواد على تعيين سبكتكين خليفة عليهم وذلك سنة ٣٦٧ هـ .

أسرى إلى مدينة غزنة (١) عاصمةِ الدولةِ الغزنويةِ الجديدةِ وهناكَ حُدِدتْ إقامة هؤلاءِ العلماءِ وقُيدَتْ حركتهُمْ حتى ماتَ السلطانُ محمود وخلفهُ ابنهُ مسعود (٢) فقرّبَ أبا الريحانِ إليه للاستفادة بعلمه ثم ألحَقَهُ بالبلاطِ وأحاطهُ بالرعايةِ والتقديرِ ، حتى إن البيرونيَ عندما كتبَ موسوعتَهُ النفيسةَ في علم الفلك (القانونُ المسعوديُ (٣) في الحياةِ والنجوم) أهداهُ السلطان مسعود حمل فيل من القِطَعَ الفضية مكافأةً له على هذا العمل ، لكن البيرونيَ رفضَ الهديةَ لأنه كان يعمل حباً في العلم ذاته وليس من أجل جاه أو مال أو سلطان .

رحلته إلى الهند

وعندما بدأ السلطانُ مسعود غزواتِه لشمالِ غربي الهندِ اصطحب البيرونيَ معهُ حيثُ قامَ بنشرِ علومِ الحضارة الإغريقيةِ وفي نفس الوقت درس العلومَ الهنديةَ وهكذا أصبحتْ غزنةَ مقراً دائماً للبيرونيِ حتى مماتِه فيها .

---

(١) غزنة : وتقع الآن في منطقة داخل حدود أفغانستان .

(٢) السلطان مسعود بن محمود خامس سلاطين السلالة الغزنوية توفى/٤٣١/ .

(٣) نسبة إلى السلطان مسعود .

أسلوبه الكتابي

إن الذين يجدونَ صعوبةً في تَتبُّعِ ما كتبهُ البيرونيُ يمكنهم معـاودةُ القـراءةِ مراتٍ ومرات حتى يتبينَ لهم المقصدُ وتتفتحُ المعاني فهو لا يكتـبُ لعامـةِ النـاسِ ولكـن وكمـا يقـول هـو يكتـبُ للصفـوةِ المختـارةِ مـن العلمـاءِ والبيرونيُ من أولِ الذيـن آمنـوا بضـرورةِ المشـاهدةِ والاسـتقراءِ والرصـدِ والتتبعِ وإجراءِ التجارب ، ونظهرُ هذه المدرسة بوضوحٍ وجـلاءٍ في كثـير من أعمالِه .

وعلى هذا الأساسِ ألـف كتابَـهُ (في خـواصِّ العنـاصرِ والجواهـرِ وفوائدها التجاريةِ والطبيةِ) بأسلوبٍ سـهلٍ غـيرِ معقّـد ، وقـد اسـتخدمَ قـاعدة أرخميـدس (١) المعروفـةَ فَشـرحَ بوضـوحٍ تـوازنَ السـوائلِ وعلّـل صعودَ مياهِ النافوراتِ والعيونِ ورشحَ مياهِ الآبارِ من الجوانبِ وتكلَّم عن الأرقامِ التي تُسـتعملُ اليـومَ في علـمِ الحسـابِ في الشـرقِ والغـربِ ومـن أساليبِهِ المبتكرةِ صياغةُ القوانين الرياضية فهناك مثـلاً (قـاعدةُ البـيروني) وقوامها معادلةٌ رياضيةٌ تستخدمُ في حساب نصفِ قطرِ الأرضِ من مجـردِ التعرفِ على محيطها .

---

(١) أرخميلس عالم رياضيات يوناني /٢٨٧ - ٢١٢/ ق.م .

منهج البيروني في البحث العلمي

يمكن أن نلخصَ هذا المنهج في عدةِ نقاط

١ - البحثُ والتجربةُ هما الوسيلةُ المُثلى إلى تحصيلِ المعارف .

٢ - أن يتحلى الباحثُ بالتواضعِ ويتجردُ من فكرةِ التفوقِ العنصريِ أو الديني .

٣ - وجوبُ الرجوعِ إلى علومِ الغيرِ وخاصةً من أهلِ اللغات الأخرى .

٤ - لزومُ الرجوعِ إلى المراجعِ الأصليةِ في الاستعانةِ والنقلِ .

٥ - الإيمانُ بأن الإلهامَ والتوفيقَ في الكشوفِ العلميةِ يلعبُ فيهما الاحتمالُ وتتحكمُ فيهما الصدفةُ .

وقد ألزمَ البيرونيُ نفسهُ بهذا المنهجِ فجاءَ تراثهُ العلميُ أعجوبةَ الأعاجيبِ من حيثُ الكم والكيفِ .

تاريخ الهند

وكانت الفرصةُ سانحةً أمام عالِمنا البيروني إبّانَ (١) مكثهِ بالهندِ كي يدرسَ أحوالَ الهندِ ويجادلَ فلسفَتهم ويصلَ إلى أعماقِ مناهجهم في البحثِ والتفكيرِ ويقفَ على أساليبِ حياتهم فوضعَ كتاباً أسماهُ (تاريخ الهند) وكان جامعاً شاملاً فقد قسَّمه إلى ثمانين باباً يتحدث فيه عن كل ما يتعلق بالهند نذكرُ بعض ما وردَ في أحدِ

(١) إبان : وقت .

أبوابِ الكتاب: يعتقدونَ في الأرضِ أنها أرضُهم وفي الناسِ أنهم جنسُهم وفي الملوكِ أنهم سادتُهم وفي الدينِ أنه نحلتُهم وفي العلمِ أنه معهم فيترفعون ولا يظنون أن في الأرض علماً غير علمهم حتى إنهم إن حُدِثوا بعلمٍ أو عالمٍ في خراسانَ أو فارسٍ استجهلوا الخبرَ و لم يصدقوه . ويقسمُ أهلُ الهندِ الكائناتِ إلى ثلاثةِ أجناسٍ الروحانيون في الأعلى والناسُ في الوسطِ والحيواناتُ في الأسفلِ ، وينقسمُ أبناء جنسهم إلى أربع طبقات أعلاها وأنقاها البراهمة.(١) وهم صفوةُ الناس تجيءُ من بعدِهم طبقةُ كشتر ثم طبقةُ بيش وآخرُ الطبقاتِ شودر ، ويجوزُ لكلِ واحدٍ أن يتزوجَ مِنْ طبقتهِ أو ما دونها ولا يحلُ له أن يتزوجَ من طبقةٍ فوقَ طبقتهِ ويكون الولدُ منسوباً إلى طبقةِ الأمِ ، والمرأةُ إذا مات عنها زوجُها ليس لها أن تتزوجَ إنما تُقبلُ على حرقِ نفسها مخافةَ الرذيلةِ ما لم يكن لها ولدٌ يتكفل بصونها وعفافِها والمحافظة عليها والأصلُ في المواريثِ عندهم سقوطُ حقِ النساءِ ما خلا الابنةَ فإن لها ربع ما للابنِ .

رسائل البيروني في الهندسة

عالجَ في بعضِ رسائِله العديد من المسائلِ العلميةِ تُثبتُ نبوغَهُ في علومِ الرياضياتِ وتفوقَّهُ على غيرِهِ من رجالِ عصرِهِ ففنُ الهندسةِ عندهُ

(١) البراهمة : طائفة من الهنود لا يُجَوِّزون على الله بعث الأنبياء ويحرمون لحوم الحيوان .

هو معرفةُ نسبِ الأجناسِ الواقعةِ تحتَ الكميةِ بعضها إلى بعضٍ وهي التي يُتوَصلُ بها إلى معرفةِ مقدارِ ما يحتاجُ إليهِ مكيلٌ أو موزونٌ مما بين مركزِ العالمِ وأقصى محسوسٍ عنه وبها تُعقَلُ الصورُ المجردةُ عن الموادِ وتُصَورُ حقيقةُ البرهانِ تصورَ انطباعٍ حتى لايذهبَ على القيِّمِ ما يذهبُ على الكثيرين من المحصلّينَ في المنطقِ مهما لزمَ مسلكُ صناعته .

الشمسُ علم المواقيت

إن الذينَ عظّموا الأنوارَ جعلوا أوقاتَ طلوعِها وغروبِها وتوسطِها في السماء أوقاتاً للسجودِ والعبادةِ وكلهم مللٌ ودياناتٌ شهد الإسلامُ بكفرِهم وزيغهم عن طريقِ الحقِ والهدى ، ونحن منهيون عن الصلاة في هذه الأوقاتِ للتميزِ عنهم ومما رُوِي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : (إن جبريلَ أتاني عندَ بابِ الكعبةِ فصلى بي الظهرَ حينَ كان الفيءُ مثلَ قيدِ الشراكِ ثم صلى العصرَ حين كان ظُل كلِ شيءٍ مثلَهُ ، ثم صلى المغربَ حين وقعتِ الشمسُ وافطَر الصيّامُ ثم صلى العشاءَ حين غابَ الشفقُ ثم صلى الصبح حين طلَع الفجرُ وحرُمَ الطعامُ على الصائمِ ، وفي اليوم التالي صلى بي الظهرَ حين كان ظلُ كلِ شيءٍ مثلَهُ كوقتِ العصرِ بالأمسِ ثم صلى العصرَ حينَ كانَ ظلُ كل شيءٍ مثليه ثم صلى المغربَ لوقتها بالأمسِ ثم صلى العشاءَ عندما ذهبَ ثلثُ الليلِ وصلى الصبحَ عندما أسفرَ وقال إن الصلاةَ فيه ما بينهما) .

البيروني والتنجيم

ورغمَ عدمِ اعترافِ البيروني بالتنجيمِ كعلمٍ كما هوَ واضحٌ في العديدِ من مؤلفاتِه إلا أنهُ تناولهُ بالحديثِ في بعضِ تلكَ المؤلفاتِ استكمالاً وتسجيلاً لناحيةٍ من النواحي التي تعتمدُ على الحساباتِ الفلكيةِ وعند حديثِه عنْ أسبابِ نشأةِ صناعةِ التنجيمِ اقتصرَ على جانبٍ واحدٍ منها يمكن اعتبارهُ علماً حقيقياً وهو (الظروفُ الطبيعيةُ المتصلةُ بالظواهرِ الفلكية) .

النبوغ الرياضي عند البيروني

ورغم أن الهدفَ الأساسيَ الذي توخاه البيرونيُ في تأليفِ كتابِه (القانونُ المسعوديُ) كان علمَ الفلكِ والكواكبِ والنجومِ وحركتِها ورغم أنه لم يفردْ منه سوى مقالة واحدة للرياضةِ (١) والحساباتِ والجداولِ الرياضيةِ التي تدخلُ في الأعمالِ الفلكيةِ إلا أننا نجدُ هذه المقالةَ حافلةً بالقوانينِ الهامةِ والنظرياتِ الجديدةِ التي ابتكرها البيرونيُ وتشتملُ المقالةُ على عشرةِ أبوابٍ نذكرُ باباً منها ، في الباب الأول ذكر البيرونيُ

---

(١) الرياضيات .

قيَم الأوتارِ الرئيسةِ في الدائرةِ وهـي الـتي تقطـعُ مـن المحيـطِ أقواسـاً تبلـغُ أطوالها منسـوبـة إلى طـولِ المحيطِ الثلث والربع والخمس والسدس والثُمن والعُشر أي تلك التي تقابل زوايا مركزيةً قدرها على الـترتيب ١٢٠° – ٩٠° – ٧٢° – ٦٠° – ٤٥° – ٣٦° – ثم أردفَ تلـك القيـم الموضوعـة على هيئةِ قوانين بذكرِ البراهينِ الهندسيةِ التي تؤدي إلى استنتاجها .

مؤلفاته

تركَ البيرونيُ عدداً كبيراً من المؤلفاتِ يصل إلى مائة وثمانين كتابـاً وإننا لنجدُ بين مؤلفاته الكتب المستفيضةَ التي تتناولُ بالشرح والتعليقَ كل صغـيرةٍ وكبـيرةٍ ، كمـا نجـد كتبـاً مختصـرةً ترتكـزُ علـى ذكـرِ القواعــدِ والنظرياتِ دونَ برهانٍ أو مناقشةٍ ، وبين لنا البـيرونيُ في هـذه المؤلفـاتِ خطواتِ تقدمِ العلومِ عندَ العربِ ومن أشهر مؤلفاتِه العلميــة : (أطـوالُ البلادِ وعروضُها – الحسابُ – الشعاعاتُ والقمرُ – تاريخُ الهندِ – الآثارُ الباقيةُ عن القـرونِ الخاليـة – امتحـانُ الشـمس – رؤيـةُ الأهلّـةِ – عشـرُ مقـالاتٍ في خـواصِ المعـادنِ والهندسـةِ والطبيعـةِ – كتـابُ الصيدليـةِ في الطبِ استقضى فيه معرفةَ تراكيبِ الأدوية ومعرفةَ أسمائها واختلافَ آراءِ المتقدمينَ فيها وما تكلم كلُ واحدٍ من الأطباءِ وغيرِهم فيه وقد رتبهُ على حروف المعجم وفي واقع الأمر ليس هذا مجال البحثِ في حصرِ كـلِ مـا كتبَ البيرونيُ أو مناقشةِ ما احتوتهُ مؤلفاتُه وليس مجـالاً لعـرضِ نظرياتِـه باستفاضةٍ بل إن المجالَ لا يتسعُ لتغطيـةِ أحـد مؤلفاتِـه فكـلٌ منهـا دائـرةُ

معـارفٍ بذاتهـا ولكننـا سنلقي التمـوءَ علـى أهـمِ مؤلفاتـــه (القـــانون المسعودي) في الفلك والكواكب والنجوم .

يشتملُ القانون المسـعوديُ علـى إحـدى عشـرةَ مقالـةً كـلٌ منهـا مقسمٌ إلى عددٍ من الأبوابِ تبلغُ في مجموعِهـا مائـةً واثنـينِ وأربعـينَ بابـاً تغطي جميعَ الأرصادِ والنظرياتِ الفلكيةِ في ذلـك الوقـتِ إلى جـانبِ مـا توصل إليه عُلماء الحضاراتِ السابقةِ والمعاصرونَ للبيروني مشفوعةً بنقـدِ العـالِم المُطلّـع وتفنيـدِ الآراء دونَ تحيزٍ أو محابـاةٍ فنجـدهُ في كـل موضـعٍ يُعـطي كـلَ ذي حقٍ حقَـهُ فإذا استـشـكلَ عليه أمرٌ من الأمورِ أو وَجَد تضارباً بين نتائجِ العلماءِ الآخرين أعادَ الأرصادَ أو الحساباتِ بنفسِه مـرةً أو مراتٍ ، ثم لايستأثرُ بـالفضلِ كلِه ، بـل إنـه أحيانـاً لايتعصـب لدقـةِ أرصادِه أو قياسـاتِه فنجـدهُ يُؤْثِـرُ عليهـا نتـائجَ الأخريـن ممـن اطمـأنّ إلى أمـانتِهم العلميـةِ أو دقـةِ آلاتِهـم ، ولنضـربْ مثـلاً لذلـك : حديثُـه عـن قياساتِ محيطِ الأرضِ أو نصفِ قطرِهـا إذ وجـدَ تضارلابـاً واضحـاً بـين علماءِ اليونانِ وعلماءِ الهندِ وعلماءِ العربِ أيامَ المأمونِ .

وكان علـماءُ الـمـأمـونِ (١) قـد قـامـوا بقياسِ جزءٍ على سـطـحِ الأرضِ يقابلُ درجةً واحدةً عند مركزِها ومنها استنتجوا أطـوالَ المحيـطِ

---

(١) المأمون ولي الخلافة بعد أخيه الأمين سنة /١٩٨ - ٢١٨/ هـ .

وكانت أمنيةُ البيروني أن يحذوَ حذوهمْ فاختارَ قاعاً صفصفاً (١) في أرضِ جورجان ولكنه عجزَ عن اجتيازِ المفازات (٢) المتعبةِ فضلاً عن حاجتِه إلى العونِ ، ولذا عدَلَ عن هذا الأمر حتى كانَ في الهند فوجدَ جبلاً مشرفاً على صحراء مستويةِ الوجهِ وهناك استخدمَ طريقةً جديدةً في قياسِ محيطِ الأرضِ إذ صعد إلى قمةِ الجبلِ وقاسَ زاويةَ انخفاض دائرةِ الأفق ، كما قاس ارتفاع الجبل بطريقةٍ حسابيةٍ ومن ذلكَ استنتجَ نصفَ قطرِ الأرضِ وكانتِ النتيجةُ التي وصلَ إليها البيرونيُ قريبةً من قياساتِ علماءِ المأمونِ ولكنه لم يتمسكْ بها ولم يركَبْ مركبَ الغرورِ إنما اعترفَ بفضلِ علماءِ المأمون ، وقد وضعَ نصبَ عينيهِ أن لا يأخذَ النظرياتِ والأرصادَ قضيةً مسلماً بها بل يناقشُ البراهينَ والأدلةَ .

ويضيفُ إليها من عندياتِه ويعيدُ الأرصادَ أكثرَ من مرةٍ لكي يستوثقَ من صحةِ النتائجِ ، وكان يدعو إلى مناقشةِ آرائِه وتصحيحِ ما يكونُ قد وقع فيهِ من نسيانٍ أو خطأ .

---

(١) قاعاً صفصفاً : مستوياً على الأرض .

(٢) المفازات : جمع مفازة وهي الفلاة لاماء فيها وسميت مفازة لأن من خرج منها وقطعها فاز .

وكتابُ القانونِ المسعوديِ هذا يحتوي على عدةِ موضوعاتٍ إما فلكية بحتة وإما تتصلُ بذلكَ العلمِ من قريبٍ أو بعيدٍ مثل الأعيادِ والمناسباتِ الدينيةِ عند مختلفِ الأممِ والشعوبِ وحسابِ المثلثات وتعيينِ أطوالِ البلادِ وعروضِها ، وهاهو الكتابُ يبدأُ بمناقشةِ هيئةِ السماءِ وشكلِ الأرضِ ومكانها في الكونِ وحجمها بالنسبةِ إليه وأنواعَ حركاتِ الأجرامِ السماويةِ وقد اعتمدَ فيما ذكره مثلما فعَل علماءُ العربِ وغيرُهم على كتابِ المجسطي لبطليموس (١) مع نقدٍ لآرائه في بعضِ النواحي ونجدُه مثلاً يعارضُ بعضَ براهينِ بطليموس لإثباتِ أن السماءَ كرويةُ الشكلِ ثم يسوقُ البيروني الأدلةَ على كرويةِ الأرضِ بظهورِ أعالي الجبالِ أولاً للسائر نحوها ثم ظهورِ باقيها بالتدريج حتى قواعِدها وبالمثل رؤيةُ ساريةِ السفينةِ في البدايةِ ثم يبدو باقيها شيئاً فشيئاً كلما اقتربت ، وبعد ذلك يناقشُ فكرةَ دورانِ الأرض حولَ محورِها ، ثم يلي ذلك بحثٌ في وجود حركةٍ ذاتيةٍ للشمسِ والقمرِ والكواكبِ في مداراتٍ خاصةٍ بها وأن هذه المداراتِ هي حولَ الأرضِ وليستْ حولَ الشمسِ وفي التعريف بالإحداثيات والدوائرِ السماويةِ لم يكتفِ البيرونيُ

---

(١) بطليموس : جغرافي وفلكي نشأ بالإسكندرية أشهر مؤلفاته المجسطي - وجغرافية بطليموس /٩٠ - ١٦٨/ م .

بذكرِ أسمائها بل أشارَ إلى أسبابِ اختيارِ تلكَ الأسماء فمثلاً يُرجِعُ تسمية (المدار – الفلك) إلى التشبيه بفلكة المغزل الدائِر ومعدلُ النهارِ أو الدائرةُ السماويةُ المسامتة لخطِ الاستواءِ أطلق عليه هـذا الإسـم لأن الشـمسَ إذا وافتهُ ودارتْ عليه اعتدلَ النهارُ وتساوى مع الليل ، ثم ينـاقش البـيرونيُ تعريفَ اليومِ والليلِ والنهـارِ ، فالشـمسُ هـي أسطع الأجـرامِ السـماوية وأظهرُهـا ولـذا اتُخِـذَتْ حركتُهـا للقياسـاتِ الزمنيـةِ وأولُ الحركـاتِ المتكررةِ للشمسِ هي الشروقُ والغـروبُ ويستطردُ البـيرونيُ في مناقشـةِ الاختلافِ بين طول الليلِ والنهارِ ثم ينتقلُ إلى تحديدِ الشهرِ والسنةِ سواءً عن طريق الشمسِ أو القمرِ ، فبدأ بالإشارة إلى السـببِ في اتخـاذ وحـدةٍ قدرُها سبعةُ أيام للأسبوعِ وذلك لأن عددَ الكواكبِ عند الأقدمين كـان سبعة وهي الشمسُ والقمرُ وعطارد والزُهرة والمريخُ والمشتري وزُحَـل ، فجعل لكل كوكب يوماً يخصُه .

السنة الشمسية والسنة القمرية

ويذكر البيروني أن السنةَ الشمسيةَ هي سـنةٌ طبيعيـةٌ لأنهـا تُقـاسُ بحركةِ الشمسِ ابتداءً من نقطةِ مسارِها الظاهري حتى عودتِهـا إلى تلـك النقطةِ بينما الشهرُ هو شهرٌ وضعي لأننا نقسمُ السنةَ الشمسـيةَ إلى اثنـى عشـر جزءاً ونسـمي كلاً منها شـهراً . أما الحالُ بـالـنسـبـةِ للقمرِ فهـو

عكسُ الشمسِ حيث نجدُ أن الشهرَ القمريَ هو الطبيعيُ لأنه من مَولدِ الهلال إلى مثلِه بينما السنةُ القمريةُ وضعيةٌ إذ تأخذُ اثني عشر شهراً قمرياً ، وينتقل البيرونيُ بعد ذلك إلى السنين والشهورِ وأسمائِها عندَ مختلفِ الأممِ ونجدُ في المقالةِ أيضاً جدولاً للأنبياءِ والملوكِ والخلفاءِ والأئمةِ من عهدِ آدم عليه السلام وتاريخِ تولي كل منهم كما سجل أمامَ كلٍ منهم نبذةً مختصرةً عما تناقلهُ التاريخُ عنه فذكر النمرودَ وأهل الكهفِ ووصل بحديثه عن ملوكِ بيزنطة إلى هِرقَل .

وهذا غيض من فيض نكتفي به لعدم اتساع المجال أكثرَ من ذلك .

وفاته

توفي البيرونيُ في غَزْنَةَ سنة /٤٤١/ هـ .

خاتمة

لقد تميز البيروني بالشجاعةِ العلميةِ وبالتمسكِ بالعلمِ اليقينِ بالإضافةِ إلى تواضعهِ الجمِ أما أسلوبُه فقد كان موّجهاً إلى الخاصةِ دونَ العامةِ وقد آمن إيماناً تاماً باللغةِ العربيةِ وفضلِها على غيرِها من اللغاتِ كيف لا تكونُ كذلك وهي لغةُ القرآنِ الكريمِ وبها كتبَ مؤلفاتِه وساهمَ في رفعِ شأنِها وتحبيبِ الناسِ بها كما دافع عنها ضد كلِّ تيار فارسيٍ أو أعجميٍ .

فجر الهدى والإيمان

علماء المسلمين والعرب

الحسين بن عبد الله بن سينا



اعداد
فؤاد محمود الدقس

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود

ابن سينا

(عالم في الطب)

(٣٧٠هـ ـ ٤٢٠هـ)

- ١١ -

اسمه ونسبه

أبوُ علي الحسينُ بنُ عبدِ الله بن الحسن بن علي بن سينا .

لُقِّبَ بالشيخ الرئيس

أما الشيخُ فهو لقب علمي لكل مشتغلٍ ومتبحر في العلم والفلسفة وأما الرئيسُ فقد أُطلِقَ عليه لأنه تقلد الوزارةَ أكثر من مرة واشتغل بالسياسة .

مولده

وُلِدَ ابنُ سينا بقرية (أفشنة) (١) وهي قرية أمه سنة ٣٧٠ هـ

---

(١) أفشنة : قرية صغيرة تقع بالقرب من بخارى ، وفيها تزوج والد ابن سينا من أمه الأفشنية .

أما أبوه فهو من (بلخ) (١) كان رجلاً على جانبٍ كبير من الثراء كما أنه كان يتمتع بنفوذ سياسي فقد كان أحدَ أعوانِ الملك نوح (٢) بن منصور واشتهر بالعدل والحزم وكان الناس يحبونه ويهابونه وكان يمتلك مكتبةً كبيرة فرأى ابنَه ملهوفاً على القراءة والمطالعة فشجَّعهُ على ذلك واستحضر له المدرسين وهو في السادسةِ من العمر ، وكان من حسن حظ ابن سينا أن أباه كان رجلاً فاضلاً احترم شخصيةَ ابنِه رغم طفولته إذ كان يترك له مجالَ المناقشةِ في حريةٍ تامة ، وإذا أصر الطفلُ على رأيه لم يحاولْ أبوه أن ينهرَه أو يضربَه كما يفعل الكثيرون من الآباء ، فإن كان لإحدٍ فضلٌ على ابن سينا فالفضل في ذلك بداهةً يرجعُ إلى والده الذي لم يحجرْ على رأيه ولم يسفهْ أفكارَه .

ابن سينا والناتلي

جاء إلى بُخارى عالِمٌ يُدْعى (الناتلي) (٣) سرعان ما دعاه والد

---

(١) بلخ : مدينة مشهورة بخراسان ذات خيرات كثيرة .

(٢) نوح بن منصور : أمير ما وراء النهر من الملوك السامانيين توفي في بخارى عاصمة أمارته سنة ٣٨٧ هـ وبخارى كانت قاعدة ملك السامانية وهي اليوم أوزبكستان إحدى الجمهوريات المستقلة من الاتحاد السوفيتي سابقاً .

(٣) الناتلي : نسبة إلى ناتل مدينة في سهل طبرستان كان فيلسوفاً عالماً ذا أخلاق عالية اشتغل بالمنطق والفلسفة والرياضيات .

ابن سينا لكي يقيمَ في قصره وطلب منه أن يكون أستاذاً لابنه ومنذ اللقاء الأول أُعجب الأستاذ بذكاء تلميذه ونبوغه ولهفته الشديدة على طلب العلم والمعرفة ، فبدأ معه بكتاب (إيساغوجي) (١) في المنطق ثم انتقل إلى كتاب (علم الهيئة) لبطليموس (٢) ثم كتاب (الأصول الهندسية) لإقليدس (٣) فاستوعب هذه العلوم وراح يفكُّ الألغازَ والرموزَ التي كانت غامضةً على شيخه الناتلي .

دراسته للطب

قرر ابن سينا أن يدرس الطب بعد أن رأى الأمراض تفتكُ بالناسِ ، والأطباءُ قليلون ويبالغون في تقدير أتعابهم و لم يكن للفقراء حظٌّ من العلاج ، فراح يتردد على بعض الأطباء المعروفين آنذاك مثل الحسينِ بن نوح العمري وأبي سهل المسيب وكان يقرِنُ الدراسةَ النظرية بالتطبيقِ العمليِ فكان يزور المرضى ويشرفُ على علاجهم مجاناً ودون أن يتقاضى أيَ أجرٍ .

---

(١) إيساغوجي : كلمة يونانية معناها المقدمة وواضع هذا الكتاب هو فرفريوس الصوري .

(٢) بطليموس : فلكي جغرافي يوناني نشأ في الإسكندرية وضع كتباً في الهندسة والفلك وله كتاب المجسطي (٩٠ - ١٦٨ م) .

(٣) إقليدس : من أشهر رياضيي اليونان توفي سنة ٢٥٨ ق.م وضع عدة كتب أشهرها كتاب الأصول في الهندسة والحساب .

فخرجَ بنتائجَ مذهلةٍ كانت فتحاً جديداً في ميدان الطب في ذلك الوقت وكان بمقدوره أن يستأثرَ بثمار دراسته ومجهوداته ويربح من وراء ذلك أموالاً طائلةً ولكنه لم يفعلْ .

المحطة الأولى في ترحاله

رحل ابنُ سينا من مدينة بخارى بعد وفاة والده قاصداً مدينة (كركانج) (١) وكانت شهرتُه كعالمٍ وطبيبٍ وفيلسوفٍ قد سبقته إلى هناك فما سمع الشاه (٢) علي بن مأمون بوجودِه حتى استدعاه وطلب منه البقاءَ والاستقرارَ حتى يفيدَ من علمه وحكمته ثم قرر له مبلغاً يأخذه كلَ شهرٍ ليسدَ به نفقاتِهِ .

المحطات التالية في ترحاله

ولكنه أحسَّ بالمللِ في كركانج فقرر الرحيلَ إلى (جورجان) (٣)

---

(١) كركانج : قصبة بلاد خوارزم ومدينتها العظمى تقع جنوبي بحيرة آرال .

(٢) الشاه علي بن مأمون : هو خوارزم شاه أبو الحسن علي بن مأمون بن محمد امتد حكمه من سنة ٣٨٧ هـ حتى ٤٠٦ هـ .

(٣) جورجان : مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان .

ولكنه لم يمكثْ فيها طويلاً فرحل إلى (نسا) (١) ثم إلى (ايـورد)(٢) ثم إلى (طوس) (٣) .

ابن سينا والنفس البشرية

اهتم ابن سينا اهتماماً كبيراً بالنفسِ البشرية واستغرق الحديثُ جزءاً كبيراً من كتابه (الشفاء) مما دعا العلماء الذين اهتموا بمؤلفاته إلى الاعتقادِ بأنه أطلق اسم الشفاء على هذا الكتاب الثمينِ لأنـهُ يقصدُ من ورائِه شفاءَ النفوسِ لأنه أهم من شفاء الأجساد ولاتخلو كتُبه العديدةُ من الحديث عن النفس البشرية .

تعريف النفس : هـي جوهرٌ روحـانيٌ قـائمٌ بذاتـهِ وهـو أصـل القـوى المدركة والمحركة هذا هو الجوهر الذي يتصرف في أجزاء البـدن . يقـول ابن سينا : والجسم محتاج إلى النفس تمام الاحتياج في حين أنهـا لاتحتـاج إليه في شيء ولايتعين جسم ولايتحـدد إلا إذا اتصلـت بـه نفـس خاصـة بينما النفس هي سواء اتصلتْ بالجسمِ أم لم تتصلْ ، ولايمكـن أن يوجـد جسم بدون النفس لأنها مصدر حياتـهِ وحركتـهِ وعلـى العكـس تعيـش النفـس بمعـزلٍ عـن الجسـم ولا أدل علـى هـذا مـن أن النفـسَ متـى

---

(١) نسا : مدينة بخراسان تبعد يومين عن سرخس .

(٢) ايبورد : مدينة بخراسان لا تبعد كثيراً عن نسا .

(٣) طوس مدينة في خراسان وبها قبر هارون الرشيد .

انفصلت عنه تغير الجسم وأصبح شبحاً من الأشباح في حين أن النفس بالانفصال والصعود إلى العالم العلوي تحيا حياةً كلها بهجة وسعادة لأنها جوهر قائم بذاتهِ .

أرسطو وابن سينا

ويتضحُ من كتابات ابن سينا عن النفسِ البشريةِ أنه لم يخضع لنظريات الفلاسفةِ اليونانية إذ أن النفس في رأي أرسطو هي الصورةُ ، والجسم هو الهيولى ويجدر بنا في هذا المجال أن نشرحَ كلمة هيولى فهي لفظة غيرعربية بالرغم من أنها استعملت وما زالت تستعمل في الكثير من الكتب العربية ولاسيما الكتب التي تعنى بالنظريات الفلسفية ، إنها كلمة يونانية ومعناها : المادة الأولى التي تكون غير معينة أو محددة ولكنها تكون في الوقت نفسه قابلة للتعيين والتحديد ، فالعقل الهيولاني مثلاً هو العقل في طوره الأول أي حينما يكون بمجرد استعداد عقلي لم يتقبل بعد أي إدراك فالصورةُ والجسم عند ارسطو يشكلان وجود الإنسانِ أما عند ابن سينا فالنفسُ هي الأساس لأنها تحيا بدون الجسم وأما الجسم فلا وجود ولا كيان له إلا بوجودِ النفسِ .

العمل بالسياسة وبداية المتاعب

كانت أولى هذه المتاعب حين اتصلَ ابنُ سينا بالأمـيرِ قـابوسِ بـنِ وشمكير (١) فقربَّهُ إليه وصــار يستشيره في أمـور الحكـم وعَلِـمَ خصـومُ الأميرِ السياسيون بهذه الصلة فدبروا انقلاباً وأخذوا الأمير أسيراً وسجنوه في إحدى القلاع الحصينة وتمكن ابنُ سـينا مـن الفـرار إلى دهسـتان (٢) وهناك مرض واشتد عليه المرض فلبث يعالج نفسه بنفسه حتى كتبَ الله له الشفاء فترك دهستان وعاد ثانية إلى جورجان وفيها تتلمذ على يديـهِ الكثيرون ومنهم أبو عبيـد (٣) الجورجـاني الـذي أملـى عليـه ابـن سينا تاريخَ حياتِه ومراحلَ جهادهِ .

تقلده الوزارة

انتقل ابن سينا بعد ذلك إلى همذان (٤) فأكرمـه حاكمُهـا شمـسُ الدولةِ وقربَّهُ إليه وأخـذ يستفتيه في مشـاكل الحكـم السياسـية ثـم قلّـده منصبَ الوزارة وأراد ابن سينا أن يدير شؤون الحكم في عـدل ونزاهـة ،

---

(١) قابوس بن وشمكير : هو شمـس المعـالي قـابوس بـن وشمكـير أمـير جورجـان وبلاد الجبل وطبرستان كان نابغة في الأدب والإنشاء توفي سنة ٤٠٣ هـ .

(٢) دهستان : بلد مشهور قرب خوارزم وجورجان .

(٣) أبو عبيد الجورجاني : هو عبد الواحد أبو عبيد الجورجـاني الفقيـه الحكيـم من خواص ابن سينا ومن تلامذته الملازمين له .

(٤) همذان : مدينة في ايران جنوب غرب طهران فيها قبر ابن سينا .

وكان بعض قادة الجيش يستولون على الخَرَاجِ والأموالِ غير مبالين بما كانت تعانيه طبقاتُ الشعب الفقيرةِ من بؤس وشقاء فأصدر ابن سينا بعضَ القرارات التي تَحُوْلُ بينهم وبين ذلك ولكن قادة الجيش لم يعجبهم هذا المسلك من الوزير ابن سينا فألّبوا الجنود عليه فإذا بفصيلةٍ منهم تهاجمُ منزله وتحطمُ أثاثه وتسرقُ محتوياتِهِ ثم يلقون القبضَ عليه ويكبلونهُ بالأغلالِ بعد أن ضربوه ضرباً مبرحاً ثم يلقونه في سجنٍ بإحدى القلاع الحصينة وتتجه فصيلة أخرى إلى قصر شمس الدولة ويطالبونه بأن يصدر حكمه بإعدام ابن سينا ، لكن شمسَ الدولةِ ورغم حرج موقفه كانت لديه شجاعةٌ عظيمةٌ فرفض قتلَ ابن سينا وأعلمَ الجندَ بأنه سيعزله من الوزارة ويأمره بمغادرة البلاد فيرضون بهذا الحل لأنه يضمن لهم إلغاء قرارات الوزير ابنِ سينا ويعود كل شئ إلى ماكان عليه ، ويُفرجُ عن ابن سينا ويعزلُ ويغادرُ همذان .

مرض الحاكم وعودة ابن سينا للقصر

وبعدها مرض شمس الدولة واشتد عليه المرض وقيل إنه أصيب بقرحة في معدته وحار الأطباء في علاجه وازدادت حالته سوءاً فأشاروا عليه بأن يستدعي شيخ الأطباء ابن سينا فلا يجد بداً من ذلك ويحضر الشيخ الرئيس طائعاً مختاراً متناسياً كل ما حدث وراح يعالج شمس الدولة حتى تم الشفاء .

تقلده الوزارة مرة أخرى

اعتذر شمسُ الدولة لابن سينا عما بدر منه فكافأه بإسنادِ منصبِ الوزارة إليه مرة أخرى ، وهكذا وجد نفسَه في دوامةِ السياسة من جديد بعد أن قرر هجرها ولكن هيهات (١) هيهات ، فالسياسة كالدوامة من السهل الدخول فيها ولكن من الصعب جداً أن تخرجَ منها أو تنسلخَ عنها وتمكن شمس الدولة بحنكة واقتدار من استرضاءِ رجال الجيش وقادته تمهيداً لغزوه اقليم (كارم) (٢) وشعر ابن سينا بشيءٍ من الطمأنينة والاستقرار وسار شمسُ الدولةِ على رأس الجيش ولكن المرضَ عاودَه وبشدةٍ لأنه لم يلتزمْ بتعليماتِ الطبيب و لم يتقيد بها ، عادوا به إلى همذان على أمل أن يخففَ الطبيب عنه ولكن قضاءَ الله لم يمهلْه وبعد موته اعتلى العرش ابنهُ تاجُ الدولةِ والذي ما لبث أن عزل ابن سينا من منصبه وقطع عنه راتبه الشهري محارباً له في رزقه و لم يكتفِ بذلك بل تناهى إلى سمع ابن سينا بأنه قرر أن يسجنه فآثر الاختفاء عن الأنظار وكان ذلك عند صديق له يدعى أبا غالب العطار الذي أخفى أمره عن الناس حتى لايبطشَ به تاجُ الدولة ورغم المحنة التي كان يعيشها ذلك

---

(١) هيهات : اسم فعل ماض معناه (بَعُدَ) .

(٢) اقليم كارم : اقليم مجاور لهمذان .

العبقري إنما راح يؤلف ويكتب ويُمْلي على تلميذه الجورجاني بقيةَ كتاب الشفاء وجانباً كبيراً من مؤلفاته الأخرى .

مراسلته لحاكم اصفهان

علم ابنُ سينا أن الأمير علاءَ الدولةِ حاكمَ اصفهان ممن يشجعون العلماء والحكماء وبما أن سُمعةَ ابنِ سينا مطبقة في آفاق بلاد فارس فإنه يتمنى أن يكون ابن سينا في بلاطه ويكتب ابن سينا إلى علاء الدولة يعلن رغبته في القدوم إليه ويعلم تاجُ الدولة بأمر الرسالة من جواسيسه وعيونه ويعلم مكانَ اختفاءِ ابن سينا فيُلقى القبض عليه ويسجن بقلعة (فردحان) (١) .

إطلاق سراحه

كان من الممكن أن يظل ابن سينا سجيناً في قلعة فردحان طوال حياته ، اللهم إلا إذا أمر تاج الدولة بالإفراج عنه وهذا من ضروب المستحيل وقد عبر ابن سينا عن ذلك ببيت (٢) من الشعر قال فيه :

دخولي باليقين كما تراه وكل الشك في أمر الخروج

وعندما علم علاء الدولة حاكم اصفهان بأن تاج الدولة سجن ابن سينا لأنه راسله علم مدى كراهية تاج الدولة وخشي من أن يهاجمه

---

(١) قلعة فردحان : قلعة حصينة في همذان .

(٢) كان يقرض الشعر بالعربية والفارسية .

فجهز جيشاً إلى همذان تحت إمرنه فهزم جيش تاجِ الدولـة واحتـلَّ قلعـةَ فردحان وأطلق سراح ابن سينا وأكرمه وقربـه إليـه كـان النديـمَ والمعلـمَ والناصحَ والمستشارَ الأمينَ .

ابن سينا والموسيقا

قد يبدو أمراً مستغرباً لأول وهلة أن يهتم عبقري مثـل ابـن سـينا بالموسيقا وفنونهـا اهتمامـاً يجعـل منـه عَلَمـاً مـن أَعْلامهـا ومؤلفـاً في مضمارها ، ويشهد له المتبحـرون في الموسـيقا بالعبقريـة الفـذة في وضـع القواعد الأساسية لعدد كبير من النواحي الفنية المعقدة التي يعتمـد عليهـا هذا الفن وهؤلاء الموسيقيون ليسوا فقط من العرب بل إن غـالبيتهم مـن الغربيين الذين اعترفوا بأن ابن سينا كان أول من وضعَ القواعـدَ الخاصـةَ بتآلفِ الأنغامِ الموسيقيةِ وهو ما يسمونه اليوم ب (الهارموني) فالعبقريـة العلمية لا تتنافى بأي حال من الأحوال مع الفنيةِ أو الأدبية ، فا للهُ جلّت قدرته أكرم الإنسان وفضَّله على سـائر مخلوقاتِـهِ في هـذا الكـون ومنحـه أعظمَ قوةٍ علـى ظهـر الأرض ألا وهـي العقـلُ وطاقـاتُ العقـلِ البشـريِ ضخمـةٌ لايمكـن حصرهـا والعـبرة كـلُّ العـبرةِ في حسـن اسـتغلالِ تلـكَ الطاقاتِ في أوجه الخير والبعد عن طريق الشر ومسالكه .

إرجاع الفضل لأهله

يقول ابن سينا قرأت كتاب ما وراء الطبيعة لأرسطو فما كنت أفهم ما فيه والتبس عليّ غرض واضعه حتى أعدت قراءته أربعين مرةً وصار لي محفوظاً عن ظهر قلب وأنا مع ذلك لم أفهمه و لم أدركِ المقصودَ حتى آيستُ من نفسي فإذا بكتاب يُعرَضُ عليَّ بثلاثة دراهم فاشتريته وما كدت أفعل فإذا هو كتاب (أغراض كتاب ما وراء الطبيعة) واضعُه أبو نصر الفارابي قرأته فانفتح عليَّ كل ما كان غامضاً وغيرَ مفهومٍ فحمدتُ الله وأثنيتُ عليه وتصدقت في اليوم الثاني بشئ كثير على الفقراء شكراً لله على تيسير هذا الأمر من حيث لا أدري ، هذا هو ابن سينا لم يدّعِ المعرفةَ بل قال إنه تعلّم من كتاب الفارابي ، و لم ينقص ذلك من قدره بل ازداد تقديرُنا له واحترامُنا واجلالُنا لصدقِهِ وصراحتِه وإرجاعِ الفضلِ إلى أصحابهِ .

مؤلفاته

كان إنتاجُ ابنِ سينا في التأليف غزيراً جداً فكتب في الطبيعة والهندسة والمنطق وعلم الأخلاق والإلهيات وعلم النفس والسياسة والطب وكذلك كتب في مختلف فنون الموسيقا ، ويعد كتابه (القانون) في الطب أحد أهمِ المصادرِ في الطب ترجم إلى اللاتينية وطبع عشرات المرات وكان يُدَّرس في الجامعات الغربية ومِن مؤلفاتِه ،

الحكمة العروضية والحاصل والمحصول والبِرُّ والإثم ثم المختصرُ الأوسطُ ، الأرصادُ الكليةُ وكتاب الشفاءِوكتاب الهدايةِ / وحي بنُ يقظان ، وكتاب (القولنج) (١) عن قرحةِ المعدة ، الكتاب العلائيُ ، كتابُ منطقِ المشرقيين وكتابُ عيونِ الحكمةِ الذي توجد منه نسخٌ خطيةٌ بمكتبة الفاتيكان بروما ومكتبة بوهار بالهند ومكتبة ليدن بهولندا ومكتبة جامعة كمبردج بلندن ويعتز المتحف البريطاني اعتزازاً كبيراً بنسخة خطية من كتاب اسمه (شرح أسماء الله الحسنى) وذلك لأنه لا توجد نسخة أخرى من هذا الكتاب الثمين في أي مكتبة أو متحف من مكتبات ومتاحف العالم ، عرضنا لغيض من فيض لأن المجال لايتسع لذكر كل المؤلفات فيكفى أن يعلمَ القارىءُ الكريمُ أنها مائتان وستةٌ وسبعونَ مؤلفاً ما بين كتاب ورسالة وقصيدة شعرية سواء كتبها بالعربية أو قرضها بالفارسية التي يجيدُها ويتقنُها لأنه من أبنائها كما بزغَ نجمُه وبرع في العربية وآدابها من شعر ونثر .

النهاية المحتومة

سبق أن ذكرنا العلاقةَ التي ربطتْ ابنَ سينا بالأمير علاءِ الدولة صاحبِ أصفهان فقد قاد جيشاً جرَّاراً انتهى إلى هزيمةِ تاجِ الدلة واطلاقِ سراحِ ابنِ سينا من قلعة فردحان وأخلص ابن سينا كلَ الإخلاص لعلاء

---

(١) القولنج : مرض مؤلم في المعدة سببه التهاب القولون ؟

الدولة وها هو يخرج معه إلى الصيد وهو مريض في الوقت الذي كان عليه أن يَخلُدَ فيه إلى الراحة ولكن كيف تفوتُه صحبةُ الأميرِ علاءِ الدولة فقد زاره في مرضه وعلم منه ابنُ سينا أنه سيخرج للصيد في غده فدفعه حبه لمرافقته إلى أن يتجَلّدَ ويدّعي أن حالَته الصحية قد تحسنت وخرج فعلاً برفقة الأمير للصيد ولكن عادَ منهوكَ القوى خائرَ العزيمة وازدادت حالته سوءاً وكان يُعالجُ نفسَه بنفسِه حتى إنه حقن نفسه ذات يوم ثماني مرات ، ولم يكن ليصبر على الحميةِ والتقيدِ بطعام معين ولم يستطعْ أن يتحملَ ملازمةَ الفراشِ فكانت حالتُه تتحسنُ يوماً وتسوءُ يوماً آخر وعندما عزمَ علاءُ الدولةِ على المسير إلى (همذانَ) صمم ابنُ سينا وأصر على مرافقته في هذه الرحلة وحاول التجلُدَ أثناء السفر ولكن المرض كان قد تمكّنَ منه وأنهكه كثيراً فكان لايقوى على الوقوف على قدميه وأدركه اليأس وأحس بأن منيتَهُ قد حانت فأهمل علاجَ نفسِه وقال لعلاء الدولة : يبدو أن المُدبِّر الذي في بدني قد عجز عن التدبير ، والنهايةُ قد اقترَبَتْ ، فقامَ واغتسلَ وراح يصلي ويكثرُ من التوبةِ والاستغفارِ وتصدّقَ بكل ما يملكُ على فقراءِ همذانَ ولبثَ يقرأُ القرآن الكريمَ حتى صعدت روحُه الطاهرةُ إلى بارئها .

وفاته

وكانت وفاتُهُ في يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ٤٢٨ هـ .

خاتمة

من سمات العبقرية أن يكون صاحبُها بعيداً كلَ البعدِ عن الغرور وهناك فرقٌ بين الغرور والاعتدادِ بالنفس والاعتزاز بالكرامةِ ، وكلُ العباقرةِ بلا استثناءٍ متواضعون إذ لا يعمد إلى التلفُعِ بثوب الكبرياء البغيضِ إلا الإنسانُ الأجوفُ فكلما سَمَتْ مداركُ الإنسانِ العقلية والخلقية والنفسية كلما ازداد تواضعُه وإذ ذاك تزداد منزلتُه العلميةُ وترتفعُ مكانتُه عندَ اللهِ سبحانه وتعالى والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يقول : (من تواضع للهِ رفعَهُ) وكان ابنُ سينا متواضعاً معتداً بنفسهِ ، وبموتهِ انطوت صفحةٌ مشرقةٌ من صفحاتِ التاريخِ الإسلامي الناصعِ والمشرقِ وهي النهايةُ المحتومةُ لكلِ مخلوقٍ .

فجر الهدى والإيمان

علماء المسلمين والعرب

أبو القاسم علي بن الحسن ابن عساكر



إعداد
فؤاد محمود الدقس

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود

ابن عساكر
(عالم في التراجم وتاريخ المدن)
٤٤٩ هـ - ٥٧١ هـ

- ١٢ -

اسمه ونسبه

أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر .

مولده

ولد في دمشق سنة /٤٤٩/ هـ .

نشأته

قضى عمره في التعلم والتنقل والتعليم والتأليف فقد نشأ في بيت علم وقضاء وفقه فأبوه كان شيخاً صالحاً عدلاً عرف بين العلماء بحِفظه الحديث وأخوه الأكبر الصائن هبة الله كان فقيهاً عارفاً بالقراءات وأفتى في دمشق وكتب في علوم القرآن والحديث واللغة كما كانت أمه من بيت عرف أهله بالعلم والتقوى ، وقد كان لنشأته تلك أثرها الوراثي والبيئي في نبوغه فقد سمع العلم وهو صغير وتردد على كبار الشيوخ فقرأ على سبيع بن قيراط واستمع إلى أبي القاسم النسيب وأبي الفرج الصوري وأبي طاهر الحنائي ، ولم يكتف بتلقيه العلوم عن علماء دمشق

بل استكتب شيوخ بغداد وخراسان موجهاً إليهم الأسئلة طالباً التوضيح والتوجيه على طريقة مكاتبة العلماء ومراسلاتهم في ذلك الوقت .

رحلاته

بعد وفاة والده (١) رحل إلى بغداد واستمع إلى المحدثين والعلماء وقد كانت بغداد في مطلع القرن السادس الهجري ما تزال تحتفظ بمركزها العلمي في الحديث والفقه ، فنهل من علومها ما قدر له أن ينهل ولم يمكث في بغداد إلا سنة واحدة .

وبعد عودته من بغداد لم يلبث أن عاد إليها يريد الحج عن طريقها وفي الديار الحجازية سمع من العلماء الذين التقى بهم سواء علماء مكة أو المدينة ، أو من القادمين لأداء فريضة الحج ثم عاد إلى العراق وأقام فيها خمس سنوات تلميذاً في المدرسة النظامية واستمع إلى كبار المحدثين ولم يقتصر في رحلته على بغداد فحسب بل تنقل بين مدن العراق كلها واستمع إلى علمائها . ثم عاد إلى دمشق سنة /٥٢٥/ هـ وبقي فيها أربع سنوات ثم رحل (٢) إلى خراسان حيث كانت مليئة بكبار العلماء وكما فعل بالعراق طاف ببلاد خراسان فأخذ عن علمائها ودامت رحلته حتى سنة /٥٣٣/ هـ عاد بعدها إلى بغداد ثم إلى دمشق وقد شرع في الحديث والتدريس وكان قد بلغ الرابعة والثلاثين من عمره

---

(١) /٥١٩/ هـ .

(٢) /٥٢٩/ هـ بعد وفاة أمه .

الحروب الصليبية

لقد بدأت الحروب الصليبية في حالة من الانقسام والفوضى في صفوف العالم الإسلامي ، فقد كانت دمشق تخضع لحكم السلاجقة وتمر بأزمات عديدة من جراء خصومة الإخوة وهجوم الأعداء إلى أن ظهر نور الدين محمود (١) على المسرح السياسي وهو يحمل عقيدة الجهاد في نفسه وطموح الأبطال في صدره والرغبة الجامحة في إقامة دولة قوية متماسكة ليشكل نقطة تحول كبيرة في مسار الأحداث ، وأمام هذه الأجواء المتوترة والتي كانت تعيشها دمشق أراد سكانها الخلاص من هذه الحالة وباتوا يتطلعون إلى المنقذ (٢) بعد أن ذاع صيته وقويت شكيمته (٣) وسيطر على بعلبك القريبة من دمشق فوجهت الدعوات إليه للقدوم وتسلم السلطة في دمشق .

قدوم نور الدين إلى دمشق

جاء نور الدين إلى دمشق متلهفاً لا لحكمها بل لكونها الثغر الأقرب والأقوى لمواجهة الصليبيين ومحاربتهم ، وكان قبل وصوله إلى دمشق قد هزم الصليبيين في معركة يغرا /٥٤٣/ هـ وقتل أمير انطاكية

---

(١) ورث عن أبيه امارة حلب ، نشأ نشأة إسلامية وكان تقياً مستقيماً متشدداً مؤمناً بأهمية دوره في قيادة الجهاد لاقتلاع الصليبيين الغزاة من بلادهِ .

(٢) نور الدين محمود .   (٣) شدة النفس والإباء .

/٥٤٤/ هـ وفتح حصن أفاميا /٥٤٥/ هـ وحرر البلاد شمال حلب لتعودإليها حريتها وأزال الخوف والذل عنها وبهذه الانتصارات والعزيمة التي لا تلين استثار نور الدين النفوسَ حماسةً لفعاله وشمائله وشجاعته فتطّلعت إليه العيون والتفت حوله القلوب ، لقد كان يمتلك نظرة قيادية استراتيجية في بناء الدولة وجعلها قادرة على تحمل أعباء الجهاد والتحرير لقد كانت مداركه الحضارية واسعة فاهتم بالحياة الثقافية وتنشيطها وأقام الصروح الكبيرة التي تخدم السواد الأعظم من الناس ومن هنا كان اللقاء بين ابن عساكر ونور الدين .

ابن عساكر ونور الدين محمود

لقد شهد ابن عساكر قبل مجيء نور الدين التجربة القاسية المريرة يوم أقبلت جموع الصليبين تحاصر دمشق تريد الاستيلاء عليها فاستعصت عليهم بمقاومة شعبها وصمودهم وفكر ابن عساكر في تلك التجربة طويلاً وكان يعرف أن الخلاص لا يتم إلا بالوحدة وأن الوحدة لا يمكن أن تتم إلا بقيادة مخلصة واعية شجاعة مؤمنة وكان هذا القائد هو نور الدين محمود والتقى الرجلان وتمتنت العلاقات بينهما حتى صار نور الدين يحضر مجالس ابن عساكر ويستمع إلى أحاديثه وبنى الملك العادل نور الدين أول دار للحديث الشريف وتولى ابن عساكر الإشراف عليها والتدريس بها ، فأدى للعلوم الإسلامية خاصة والثقافية عامة خدمة طبعت بآثارها الأجيال المتلاحقة كما قام الملك العادل بتشجيع ابن

عساكر على اكمال مصنفاته ولا سيما مشروعه العملاق في تاريخ دمشق وكان الملك العادل قد رأى في الإمام ابن عساكر مطلبه ومبتغاه الذي يستعين به في تحقيق هدفه وبلوغ مراده فاستجاب ابن عساكر لرغبة الملك العادل في الاستمرار بالتصنيف والتأليف .

نظرة نور الدين الثاقبة

ومع هذا البناء الداخلي المحكم استطاع الملك العادل أن ينقل الموقف بالنسبة لحرب الصليبيين من مواقف الدفاع إلى مواقف الهجوم حتى إنه بدأ يعد العدة لخوض معركة فاصلة فعمل على أن يحول بينهم وبين السيطرة على مصر ، وعندما أيقن الصليبيون أنه بات من المحال عليهم التوسع في الشام توجهوا بأنظارهم إلى مصر فأدرك القائد نور الدين ذلك وأرسل ثلاث حملات متواليات تمكنت من إحباط مخططهم وإنهاء الوضع المتردي في مصر وتم تعيين صلاح الدين الأيوبي والياً عليها ومن ثَمَ سقطت الخلافة الفاطمية وتوحدت مصر مع سورية ، وكان ابن عساكر في هذه الفترة مواكباً لنور الدين محفزاً الهمم داعياً للجهاد في سبيل الله .

شخصية ابن عساكر

لقد عرف ابن عساكر بالنزاهة والاستقامة وقد ساعدته هذه الصفات الخُلُقية في منهجه في الحياة فأضاءت سبيله وأنارت طريقه

وأعانته علـى استسـهال الصعـاب في سـبيل عملـه وكـان شـديد التديـن والتعفف كما كان بعيداً عن إغراءات الدنيا من منصب أو جاه بالإضافة إلى اعتداده بمكانة العلماء ودورهم الفعال في كل زمان ومكان .

ابن عساكر وصلاح الدين

ومما يدلنا أيضاً علـى جرأتـه في الحق غيابـه عـن حضـور مجـالس السلطان صلاح الدين وعندما عاتبه في ذلك أجابه ابن عساكر : نزهـت نفسي عن مجلسك فإني رأيته كبعض مجـالس السـوقة لا يسـتمع فيـه إلى قائل ولا يرد جواب متكلم وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل كأنما على رؤوسنا الطير تعلونا الهيبة والوقار فإذا تكلـم أنصتنـا وإذا تكلمنا استمع إلينا فتقبل صلاح الدين هذا النقد اللاذع وطلب مـن رجال مجلسه الالتزام والإنصات بوجود ابن عساكر .

منـهج ابن عساكر

في أيام الدولة الأموية كانت دمشق منـارة الثقافـة والعلـوم ، أمـا بزوال الخلافة ومجيء الخلافة العباسية وتمركزها في بغداد فقد خفـت المـد الثقافي عنها و لم يطل خفوت التطور الثقافي عن دمشق فما إن جاء القرن الرابع الهجري حتى عـادت مدرسـة الشـام إلى الظهـور واحتلـت مكانـاً بارزاً في جميع الميادين والمعروف أن كتابـة التـاريخ قـد تـأثرت بأسـلوب المحدثين نظراً للمكانة الرفيعة التي احتلها علم الحديـث وللمنهـج النقـدي

لدى علماء الحديث وغزارة المادة الإخبارية التي اجتمعت لديهم فكيف إذا كان المؤرخ محدثاً أيضاً كما هو الحال مع ابن عساكر فالمنهج الذي سار عليه هو منهج المحدثين وكانت مصادره في كتاباته ترجع إلى أربعة أنواع الأول: كتب الحديث ويدخل في سماعاته من شيوخه ومكاتباته الثاني : كتب التراجم والتاريخ ، الثالث : كتب اللغة والشعر والفنون الأخرى والرابع : مؤلفات غيره كمؤلف الخطيب البغدادي صاحب تاريخ بغداد وابن أبي حاتم صاحب الجرح والتعديل والجرجاني صاحب الكامل في الضعفاء .

تاريخ دمشق

لقد نهج ابن عساكر منهج من سبقه في هذا المضمار مع شيء من التغيير والتوسع والتطوير في طريقة العرض وتصنيف المواد وزيادة تتماشى ووفرة المعلومات في عصره ونستطيع أن نطلق على كتابه أنه كتاب تراجم بالدرجة الأولى نهج فيه منهج المحدثين في ذكر السند مهما طال أو تعدد ثم يذكر الخبر واتّبع في التراجم الترتيب الهجائي مرتباً إياها على حروف المعجم مبتدئاً بمن اسمه أحمد تيمناً بالحبيب المصطفى ﷺ وأنهى الكتاب بفصل يحتوي على من عرف بكنيته فقط و لم يصل إليه اسمه كاملاً ثم بمن ذكر نسبته وبمن لم يسم في روايته ثم ذكر النساء والإماء ، وقد أوضح ابن عساكر في كتابه أنه يذكر المعلومات التي لديه عن المترجم لهم بكل جوانبها إذ يقول في مقدمة كتابه (وذكر ماهم من

ثناء ومدح واثبات ما فيهم من هجاء وقدح وايراد ما ذكروه من تعديل وتجريح وحكاية ما نقل عنهم من جد ومزح وبعض ما دفع إلي من رواياتهم وتعريف ما عرفت من موالدهم ووفياتهم) .

بعض الآراء في كتابه

ذكر ابن خلكان (١) في كتابه وفيات الأعيان وصفاً لكتاب تاريخ دمشق : إن العصر يقصر عن أن يجمع فيه الإنسان مثل هذا الكتاب بعد الاشتغال والتنبيه ويقول المؤرخ ابن الأثير (٢) : (لقد صنف تاريخ الشام في ثمانين مجلدة فهي باقية بعده مخلدة وقد أبر على من تقدمه من المؤرخين وأتعب من يأتي بعده من المتأخرين .

مدة تأليف الكتاب

وقد طالت مدة تأليف هذا الكتاب ثلاثين عاماً أو أكثر قليلاً ومثل هذه المدة الطويلة في تأليف هذا السفر الكبير تدل على دأب المؤلف وصبره وجلده وارادته القوية وإيمانه الكبير بفائدة العلم بالإضافة إلى حبه الواسع لبلده مما تستطيع أن تطلق عليه (الوطنية الخالصة الصادقة) وطبيعي أن تشجيع الملك العادل نور الدين محمود قد مده

(١) ابن خلكان أحمد البرمكي مؤرخ ولد في اربيل / ٦٠٨ - ٦٨١ / هـ .

(٢) ابن الأثير أبو الحسن عز الدين علي بن الأثير له كتاب (الكامل في التاريخ) /٥٥٤ - ٦٣٠ / هـ .

بالعون فلقد ذكر ابن عساكر أنه كان قد بدأ في تاريخه قبل قدوم نور الدين إلى دمشق وأن نور الدين لما وصله خبر جمعه شجعه على الاستمرار ، وإن هذا الكتاب هو أشهر مؤلفات ابن عساكر وقد قدّم له بمقدمة في أصل اشتقاق تسمية الشام وتاريخ مدينة دمشق وبنائها وما جاء في الأثر عن فضلها ثم تكلم عن فتح الشام وخطط الشام وماضيها من معالم ومنشآت ومياهها وجبالها وعيونها أما بقية كتابه فمخصصة لتراجم كل من نبغ من أبناء دمشق أو من دخلها من غيرهم أو اجتاز بنواحيها من الولاة والقضاة والعلماء والقراء والنحاة والرواة ، والكتاب يقع في ثمانين مجلدة موزعة على ثمانمائة جزء بحسب تجزئة المؤلف للأصل ويحتوي هذا التاريخ نحواً من عشرة آلاف ترجمة ونسخه موزعة بين مختلف مكتبات العالم .

مؤلفاته في التاريخ

ولم يكن كتاب تاريخ دمشق هو كل ما صنفه ابن عساكر في التاريخ فقد ألفَ كتباً تدخل في نطاق الكتابة التاريخية منها كتبه في فضائل المدن خاصة مكة المكرمة – المدينة المنورة – القدس – الخليل – عسقلان – كما كتب ابن عساكر في معاجم الرجال – وبخاصة الشافعية كما وضع معجماً في اثني عشر جزءاً ترجم فيه لأساتذته الذين سمع منهم وأجازوه وقد كتب في باب المعاجم : معجم أسماء القرى والأمصار التي سمع بها وهو جزء واحد ذكره ياقوت الحموي عن ابن

عساكر في معجمه (معجم الأدباء) ومعجم الشيوخ النُّبَّل - (معجم الصحابة) . كما ألف كتاباً (فيمن وافقت كنيته كنية زوجته) وله أيضاً معجم عن مناقب الشبان ، والمعجم في تراجم الكتب الستة (١) .

مؤلفاته الأخرى

ومن مؤلفاته التي توضح شخصيته الدينية بشكل جلي كتابه (كذب المفتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري) وهو كتاب في علم الكلام رد به على الحسن بن علي الأهوازي وفيه ظهرت شدة تمسكه بآراء الأشاعرة وعميق تأثره بها فابن عساكر كان شافعي المذهب ولكنه أشعري المشرب فقد كان حريصاً على نقد كل الأفكار التي يمكن أن تدخل الانقسام في المجتمع الإسلامي من وجهة نظره ولذلك فقد رأى فيه الملك العادل رديفاً فعّالاً لإنجاح خطته في دعم سياسته الدينية والجهادية .

ابن عساكر شاعراً

لقد كان شعره من قبيل النظم و لم يكن ليريد أن يقال عنه أنه شاعر ، كما أنه لم يكن متفرغاً لهذا الفن إنما كان مثله مثل كتّاب عصره ينظُمُ الشعرْ ليُلونَ أسلوبه في التأليف فقد كان متقناً لفن الشعر على بحوره المعروفة مستخدماً الألفاظ في مواقعها ووفق معانيها والشعر

---

(١) البخاري - مسلم - النسائي - أبو داود - ابن ماجة - الترمذي .

لديه وسيلة إيضاح وتثبيت ليس أكثر يضاف إلى ذلك ملاحظة لا بد منها وهي أنه بانتقائه لشعر من ترجم لهم من الشعراء كان يختار أجود شعرهم مما يدل على فهمه الأدبي الرفيع وحسن ذوقه ورفعة حسه الفني كما أن نثره من غير تكلف فهو يترك السجع حتى يسترسل في كلامه جارياً وراء الفكرة التي يريد أن يتحدث عنها بنثر أدبي جيد .

مؤلفاته السياسية

ولم يكن ابن عساكر منقطعاً في مجالسه التدريسية وأماليه عن الظروف التي كانت تحيط ببلاده وهذا ما يرفعه إلى مرتبة العلماء العاملين المتأثرين والمؤثرين فهو لم يكن منزوياً في ركن بعيد جاهلاً ما يدور حوله بالرغم من زهده في المناصب وتعففه عن مغانم الدنيا ولذلك ألفَ مجموعة من الأمالي (١) والكتب تتعلق بالحياة السياسية وخاصة في مجالي فضائل الجهاد وفضائل المدن التي كانت تقع تحت السيطرة الصليبية .

مواقفه المشرفة

لقد وظّفَ ابن عساكر علمه وموهبته في الحفظ والتأليف لخدمة بعث الفكر العربي الإسلامي ونهوض الأمة ووقف إلى جانب الملك العادل نور الدين محمود في عمله من أجل وحدة بلاد الشام ومصر منطلقاً إلى المغرب العربي في سبيل التحرير وإقامة دولة موحدة قوية

---

(١) الأمالي : المحاضرات .

تنهي عصر الدويلات والتشرذم والفرقة وتستطيع الوقوف في وجه أطماع الصليبيين بوجه خاص والأطماع الخارجية بوجه عام .

لقد تجلى في شخصية ابن عساكر هذا التوظيف العملي لمفهوم العقيدة بحيث طبقها عملياً في الوقوف إلى جانب القيادة السياسية ليس فقط بل في تحريض القيادة وتوجيهها بالاتجاه الذي يخدم المجتمع ولذلك نرى في شخصية ابن عساكر ومنهجه وضوحاً فكرياً وفي تصرفاته اتزاناً ومصداقية تؤكد عمق إيمانه ورسوخ عقيدته ووضوح نظرته ، إن هذا التوظيف للعلاقة بين العقيدة والسياسةوالنجاح الذي حققته على صعيد بناء دولة موحدة وتحقيق الانتصار على الأعداء يؤكد أهمية دور العلماء في إثراء الحياة الثقافية للمجتمع وتحقيق تماسكه في إطار دولة تستمد قوتها من قوة شعبها ومنعته ووحدته وغنى حياته الثقافية والعلمية .

هدف كتابة تاريخ دمشق

إن تفرده لا يأتيه من ضخامته وكثرة أجزائه ونزعته الشمولية إنما يأتيه من أمرين آخرين أحدهما الهدف البعيد الذي كان يرمي إليه ابن عساكر والآخر المنهج الذي كان يصطنعه : أما الهدف فكان يتمثل في إحياء السنة النبوية وعلومها وتواصل جهود علمائها بعد الذي أصاب المسلمين من تشتت خطير شطر العالم الإسلامي إلى هاتين الخلافتين الخلافة الأصل الخلافة العباسية في بغداد في المشرق والخلافة المنشقة العبيدية الفاطمية في المغرب وقد استقرت في القاهرة وأياً كان اختلاف

الرأي في ذلك وانحراف الفكر وتجاوز الأصول فقد كان هناك إلى جانب الانشقاق الداخلي هـذه الهجمات الخارجية الغازية هنا وهناك وهي هجمات حبذّها الحقد أو الجهالة أو هما معاً ، وإذا كان الإسلام عقيدة وسلوكاً استطاع في شرقي البلاد الإسلامية أن يتمثل هذه الموجات البشرية الوافدة فإن الذي كانت تُكِنّه الهجمات البشرية الآتية من الغرب من ثارات وتراث ومطامع لم يساعد على صهرها وإنما دفع العالم الإسلامي إلى مطاردتها وإلى خوض أعتى المعارك على مدى عقود (١) من السنين في سبيل ردها على أعقابها واقتلاع جذورها ، إن العمل لهذا الهدف لم يكن حربياً فحسب إنه لم ينفصل عن صورته الفكرية والثقافية ومن هنا اتصل في وجدان ابن عساكر ما بين عمله في إحياء السنة النبوية وخدمة الحديث الشريف وبين العمل الآخر في المقاومة الحربية فقد كان واضحاً في الأذهان آنذاك ما يغيب عن أذهاننا أو عن أذهان بعضنا اليوم من أن صيانة حركتنا الإنسانية الكبرى وإحياء وجودنا الفكري الخصب إنما يبدأ من الحرص على أصالة هذا الوجود ورعاية مقوماته الأساسية التي يقوم بها وعليها .

وهناك جهود تبدد ولكنها لم تضع أقدامها على الطريق الذي لابد من سلوكه طريق تغيير الذات عن طريق تغيير الذات نفسها

---

(١) نحو مائتي سنة .

وإحيائها عن طريق إحياء جوهرها الأصيل في النفوس وتزويدها بكل عناصر التأبّي والحفاظ والمقاومة وإتاحة الفرصة للجذور الذاهبة في الأعماق أن يتصل ما بينها وبين الفروع الذاهبة في الهواء عن طريق النُسْغ (١) الذي تفرزه هذه الجذور .

مدينة وملك ومؤرخ
ثلاثة اجتمعوا في مدينة دمشق

يا دمشق تاريخك تاريخ الإنسان رويت قصته منذ دب على الأرض لأنه آثرك بسكناه وسايرته وهو يشيد حضارته نتاج تاريخك العزة والشموخ والنصر تفيضين الخير على ما حولك ومن حولك وتنشرين العدل والسلام وتبشرين بالإخاء والمحبة وكتب على سورك منذ القِدَم : تعيشين رغداً ومن رامك بسوء قصمه الله – وثاني الثلاثة الملك العادل نور الدين الذي نهض بقواته من حلب الرابضة في الشمال تحمي الثغور وتذود العدو المغير ، كانت أوربة آنذاك قد أطبقت بجيوشها الجرارة على بلاد الشام وامتدت أطماعها إلى مصر ، والشامُ ممزقةٌ بين ولاتها وحكامها لا تقوى على الدفاع ويأبى نور الدين وهو الوفي المخلص لقضايا شعبه يتحسس عواطفه المستترة ويستجيب لتطلعاته

---

(١) النُسْغ : سائل غذائي تمتصه الجذور من الأرض ويجري في الساق والأوراق بواسطة العروق .

ويتبين قواه الكامنة ، لم يتسلل اليأس إلى قلبه و لم يعـرف القنـوط طريقـاً إليه فأحبط المؤامرات وتغلب على العقبات جميعها ، وحد بلاد الشام ثم ضم إليها مصر وناضل بشرف حتى وافتهُ المنية سنة /٥٦٩/ هـ وكان قد هيأ ومهد لخليفته صلاح الدين ليقـود معركـة النصـر الكـبرى في حطـين ويفتح بيت المقدس ويحرر عسقلان ويتم دحر القوات الصليبية بعد أربعة عشر عاماً من وفاة الملك العادل نور الدين وثالث الثلاثة : ابـن عسـاكر الذي كان يدرك واجبـه في معركـة التهيـؤ والدفـاع ، تخلـى عـن الدنيـا ومناصبها وزخارفها ليقف نفسه إلى مثله الأعلى : توحيد النفوس وإثارة الحماسة فيها لزجها في معركة الوحدة والتحرير .

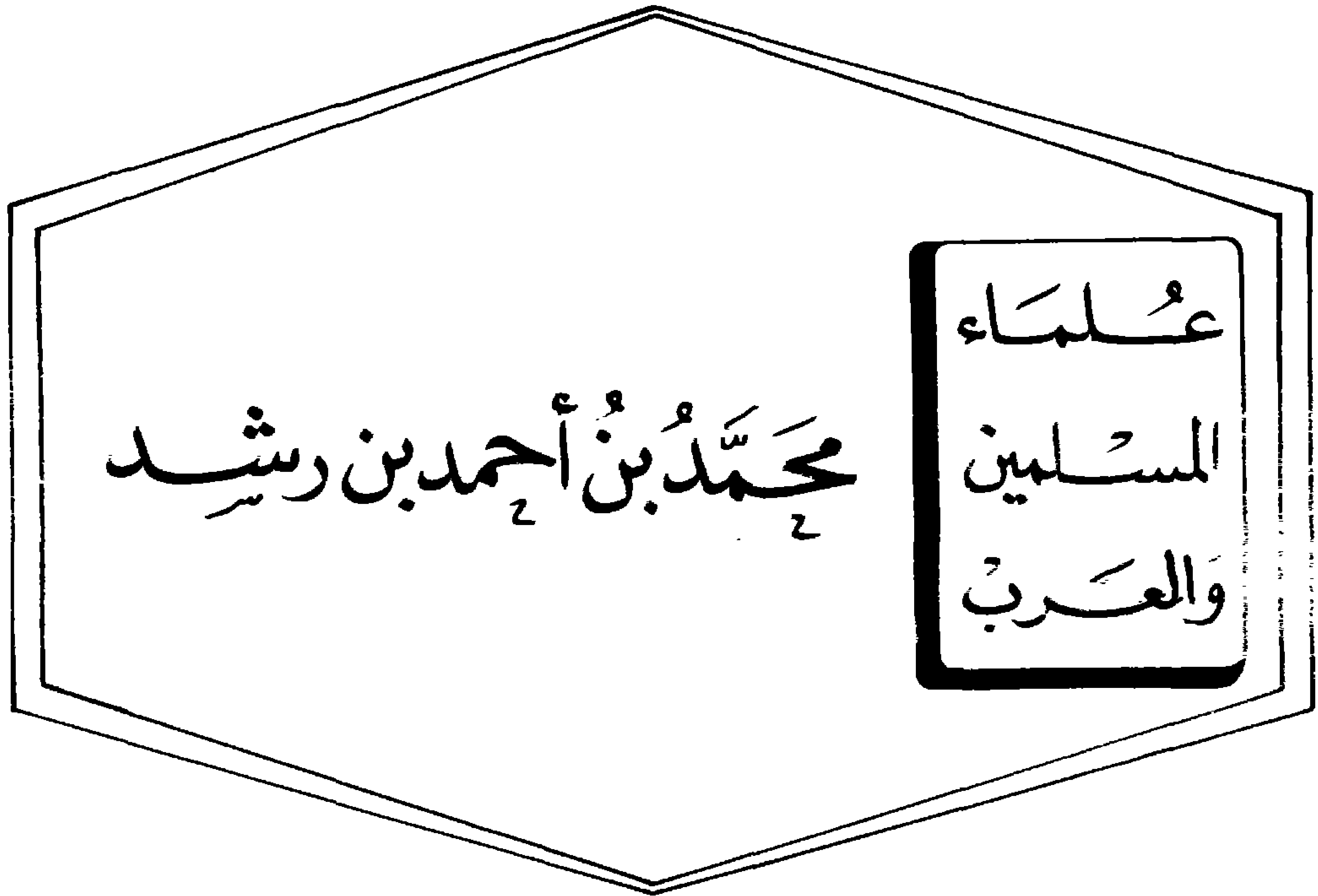
وفاته

توفي في دمشق سنة /٥٧١/ هـ ودفن بها .

خاتمة

لقد مشى السلطان صلاح الدين الأيوبي في جنازته يتقـدم جمـوع المشيعين وكان حاسر الرأس على غير عادته وذلك دليل على علو مكانة ابن عساكر وعلى عظيم إجلاله وتقديره له .

فجر الهدى والإيمان





اعداد
فؤاد حمود الرقس

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود

ابن رشد
عالم في الفلسفة
/ ٥٢٠ - ٥٩٥ / هـ
- ١٣ -

اسمه ونسبه

أبو الوليد محمدُ بنُ أحمد بن محمد بن أحمد بن رشـد وأسـرته مـن أكبر الأسر الأندلسية وتعتبر بوجه خاص من مفاخر قرطبة شـغلت زمنـاً طويلاً مركزاً متميزاً في القضاء والسياسة وكانت موضع إجـلال وتقديـر من دولــتي المرابطـين (١) والموحديـن (٢) علـى اختلافهمـا في النزعـات والميول من ناحية العلم والعلماء وحرية والتفكير .

مولده

ولد في قرطبة سنة /٥٢٠/ هـ .

(١) المرابطون : سلالة من البربر حكمت المغرب وأفريقيا الشمالية حتى الجزائـر (٤٤٨ - ٥٤٠) هـ .

(٢) الموحدون : سلاسة مغربيـة قـامت على قواعـد شيعية قضـت علـى دولـة المرابطين (٥٤٠ - ٦٣١) هـ .

نشأته

تربى ابن رشد في بيت العلم والمعرفة والقضاء والمنزلة الرفيعة لدى الأمراء فدرس ما يدرس أمثاله من علوم الفقه والأصول واللغة والكلام والأدب و لم يكتف بذلك بل سمت به همته ، ودفعه عقله إلى دراسة التعاليم (الرياضيات) والطب وغير ذلك من علوم الحكمة على أبي جعفر بن هارون الترجاني (١) فأخذ العلم من معينه وتلقاه من أعلامه .

علمه وفضله وخلقه

لقد أعانته تلك الدراسات في شتى العلوم بأن صار علماً من أعلام عصره البارزين حتى صار يفزع (٢) إليه في الطب كما يفزع إليه في الفقه ، وحتى في الفلسفة كانت له الإمامة فيها دون أهل عصره والذين ترجموا له من العلماء أجمعوا على أنه لم ينشأ بالأندلس مثله كمالاً وعلماً وفضلاً .

مكانته

كانت له عند الملوك وجاهة عظيمة لم يصرفها في ترفيع حال ولا جمع مال إنما قصرها على مصالح أهل بلده خاصة ومنافع أهل الأندلس عامة .

---

(١) أبو جعفر بن هارون الترجاني : كان محققاً للعلوم الحكمية متقناً لها معتنياً بكتب ارسطوطاليس ، فاضلاً في صناعته متميزاً فيها .

(٢) أي يُقْصَد في الطب كما يقصد في الفقه .

إمامته

لقد كان إمام عصره في الفقه وعلوم الفلسفة وكان مع ذلك أشد الناس تواضعاً وأخفضهم جناحاً وهذا الفرق بين العالم والجاهل لأن الجاهل إذا عرف مسألة من مسائل العلم ولو كانت هينة تاه بها وانتفخت أوداجه وظن أنه أوتي مالم يؤت غيره ، أما العالم فيتنقل من لون إلى لون من ألوان المعرفة وكلما انتقل من حل مشكلة علمية ظهرت له أخرى ، هو دائماً في كد عقلي وتعب فكري ، لقد وهب نفسه للعلم وجعل غايته التي يهدف إليها معرفة الحقيقة ولذته ومتعته في أن يدرك من هذه الحقيقة حلقة بعد حلقة أو طرفاً بعد طرف .

عمله في القضاء

تولى القضاء في قرطبة واشبيلية ثم تولى منصب قاضي القضاة وجلس على كرسي سبقه إليه أبوه وجده ولكنه اختص بمنصب آخر وهو الطبيب الخاص للخليفة .

ومنصب القضاء منصب له خطره وجلالته وحسبنا من منصب يجعل لصاحبه الحق في أن يستقدم الخليفة لمجلس القضاء إذا كان طرفاً في أية خصومة وأوجب عليه هذا المنصب أن يتنقل بين أفريقية والأندلس لأن دولة الموحدين كانت تشملهما معاً .

ابن رشد والفيلسوف ابن طفيل

يقول ابن رشد: دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن زعيم دولة الموحدين فوجدته وابن طفيل (١) ليس معهما أحد فأخذ ابن طفيل يثني عليَّ ويذكر بيتي وسلفي ويضم إلى ذلك أشياء لا يبلغها قدري فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين بعد أن سألني عن اسمي ونسبي أن قال لي ما رأيك في السماء أقديمة هي أم حادثة ، فأدركني الحياء والخوف وأخذت أتعلل وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة – ولم أكن أدري ما قرّر معه ابن طفيل – ففهم أمير المؤمنين خوفي وحيائي فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم عن المسألة التي سألني فيها ويذكر ما قاله أرسطو وأفلاطون وجميع الفلاسفة ويورد مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم فرأيت منه غزارة حفظ لم أجدها في أحد المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له ، ولم يزل يباسطني حتى تكلمت فعرف ما عندي من ذلك فلما انصرفت أكرمني وبعد هذه المقابلة استدعاني ابن طفيل فقال لي : سمعت أمير المؤمنين يشتكي من قلق عبارة ارسطو طاليس وعبارات المترجمين عنه ويذكر غموض أغراضه ويقول : لو وُجِدَ لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهماً جيداً لقرّبَ مأخذها

---

(١) ابن طفيل : فيلسوف موسوعي من أشهر أعماله حي بن يقظان عاصر ابن رشد في قرطبة

على الناس ، فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل وإني لأرجو أن تفي به لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وشدة نزوعك إلى هذه الصناعة .

يقول ابن رشد : فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم ارسطو طاليس وشرح ما شرحت .

شعوره برسالته

حينما قرّب ابن طفيل فيلسوفنا ابن رشد من الخليفة وقدّمه إليه وحينما ندبه لتلخيص كتب المعلم الأول وشرحها لم يفعل ذلك اعتباطاً أو عن هوى أو عن ميل خاص بل يرجع إلى ما عرفه عنه من استعداد وحب للعمل وقدرة على القيام بالرسالة التي كلف بها .

سيرته

وفي كل فترة حياته التي كان إليه القضاء فيها محمود السيرة عند العامة والخاصة وكذلك عند الخليفة .

عمله في التوفيق بين الفلسفة والدين

إن الإحساس بالحاجة إلى التوفيق بين الفلسفة والدين عاطفة طبيعية يحس بها كل من عني بالبحث في هاتين الناحيتين ومحاولة هذا التوفيق تعتبر إلى حد ما واجباً لازم الأداء وأمراً ينساق إليه الفيلسوف المسلم صاحب العقيدة التي لها قداستها عنده وذلك لأكثر من سبب

أولاً : ليتحقق بين ما وصل إليه بعقله وبين معتقده الموروث العامر به قلبه والذي يراه فوق كل شك ، وثانياً : ليتجنب غضب الفقهاء الذين يرون كل تفكير عقلي حر ضربة موجهة للدين الذي لم يأت عن طريق العقل بل عن طريق الوحي الإلهي ، وليكون كذلك بمأمن ومنأى من غضب الناس وتعصبهم لأنهم يشعرون بميل طبيعي للثورة على الممتازين بأي نوع من أنواع التميز وبخاصة إن كان الدافع إلى ذلك التعصب رجال الدين الذين يرون لأنفسهم فضلاً في العقل والتفكير ويزعمون أنهم قادرون على فهم ما تحسبه العامة أسراراً وأموراً فوق طاقة الإنسان وإذا كانت محاولة التوفيق بين الوحي والعقل أمراً حتمياً على كل من يشتغل بالفلسفة بشكل عام ، فنرى اليونان عرفوا ما يجب أن يكون من علاقة بين الفلسفة والتقاليد الدينية ، كما نجد للمسائل الدينية حَظاً لدى كل المدارس الفلسفية ، أما بالنسبة للمسلمين فإن الذي يفهم الإسلام وروحه وتعاليمه التي تدعو للأخذ بالوسط في كل الأمور وتوجب الإصلاح بين المتخاصمين والتوفيق بين المتنافرين ، ونجد هذه الظاهرة في علم الكلام تتمثل في مذهب الأشاعرة الذي هو وسط بين مذهب السلف القائم على التسليم بالنصوص ومذهب المعتزلة الذي أعطى للعقل الحرية في فهم نصوص القرآن الكريم وتأويلها بما يتفق والعقل وفي التشريع نجد مذهب مالك يعتمد على الحديث والمذهب الحنفي يعتمد على الرأي والقياس العقلي أما مذهب الشافعي فنجده وسطاً بين

المذهبين ، فإذا كانت نزعة التوفيق من النزعات الغالبة على مفكري الإسلام بصفة عامة في جميع نواحي التفكير فأولى للفلاسفة أن يعملوا على التوفيق بين الدين الذي يعتقدون صحته والفلسفة التي عمادها النظر الصحيح والمنطق السليم ، من أجل ذلك كله نجد فلاسفة الإسلام جميعاً كغيرهم من المتكلمين والمفكرين حاولوا هذا التوفيق سواء منهم من تقدم به الزمن أو تأخر مع اختلاف في المناهج والجهود التي خصصوها لبلوغ الغاية المرجوة منهم جميعاً ، ومع تفاوت في مبلغ ما قدر لهم من نجاح ومن الذين جالوا في هذا المضمار أبو اسحاق الكندي (١) فنراه وقد جمع في بعض تصانيفه بين أصول الشرع وأصول المعقولات والفارابي وابن سينا جريا في هذا المضمار أيضاً خطواتٍ واسعةً لما رسخ عندهما من أن الحقيقة واحدة وإن عبر عنها بطرق مختلفة ، فلم يهملا العقل أو الوحي بل جذبا كلاً منهما إلى الآخر ، أما فيلسوف قرطبة (٢) فقد كان مضطراً لمحو الأثر الذي أحدثه الغزالي (٣) – من خلال كتابه تهافت الفلاسفة – أو إضعاف هذا الأثر على الأقل إلى محاولة للتوفيق لها أسسها ودعاماتها ، وقد خصص لهذه الغاية رسالته (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال)وعرض لها أيضاً في كتابه (الكشف

---

(١) الكندي : فيلسوف العرب / ١٨٥ – ٢٥٨ / هـ .

(٢) ابن رشد .

(٣) أبو حامد الغزالي / ٤٥٠ – ٥٠٥ / هـ .

عن مناهج الأدلة) فضلاً عن تناولها في مناسبات مختلفة وعديدة في كتابة (تهافت التهافت) .

وقد وضع لهذه الغاية طريقاً تؤدي في رأيه إليها وأصولاً تقوم عليها وهي :

١ً – الاستدلال بالقرآن الكريم على وجوب النظر العقلي والانتفاع بما في تراث الاغريق .

٢ً – بيان أن الناس مختلفون في العقول والاستعدادات ولذلك انقسم الشرع إلى ظاهر وباطن ولكل أهله .

٣ً – وضع قواعد عامة لتأويل ما يجب تأويله من نصوص الشرع لبيان متى يكون التأويل ولمن يكون .

٤ً – بيان الطريقة المثلى للاستدلال لعقائد الدين ولما اخْتُلِفَ فيه من المسائل بين المتكلمين والفلاسفة .

٥ً – بيان الوحي وتحديد الصلة بينه وبين العقل وبيان الحاجة إلى الشريعة .

الشريعة توجب الفلسفة

ساق ابن رشد في كتابه (فصل المقال) دليلاً لهذا وهو قوله تعالى : ﴿ فاعتبروا ياأولي الأبصار ﴾ (١) صدق الله العظيم . موهماً أن

---

(١) الآية /٢/ سورة الحشر .

الاعتبار هنا استنباط المجهول من المعلوم وذلك هو القياس ، على أن هذه الآية وإن لم تصلح للاستدلال لما يرى فهناك آيات أخرى تشهد له بما يريد وهي قوله تعالى : ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾(١) وقوله سبحانه : ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾ (٢) وقوله سبحانه: ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ (٣) صدق الله العظيم .

فضلاً عن قول الرسول صلى الله عليه وسلم : ((لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسُلِطَ على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها)) . وإذا كان النظر الفلسفي واجباً فمن الخير أن نستعين بالرواد الذين كشفوا الطريق وأناروا السبيل لمن أتى بعدهم من الباحثين والفلاسفة – ومتى كان القياس العقلي والنظر الفلسفي مما يحث عليه ويوجبه كان لا بد من أخذ العدة لعلاج ما يظهر من تعارض واختلاف بين النص ونظر العقل وهذه العدة تقوم على أنه من المقطوع (٤) به أن كل ما أدى إليه البرهان الصحيح لا يمكن أن يخالف ما أتى به الشرع ، فإن الحق لا يضاد الحق بل يشهد له فإذا وجد هذا التعارضُ والاختلافُ كان لا بد من تأويل النص تأويلاً يتفق وما نعرف من قواعد اللغة وذلك بإخراجه عن دلالته الحقيقية إلى دلالته

---

(١) الآية / ٩ / سورة الزمر . (٢) الآية / ١٠١ / سورة يونس .

(٣) الآية / ٢٦٩ / من سورة البقرة . (٤) وهو ما يؤكده ابن رشد .

المجازية مثلاً وبهذا لا يصطدم العقل والشرع ، ولا نترك واحداً منهما من أجل الآخر بل نجعل لكل منهما اعتباره ونوفق بينهما بما لا تأباه اللغة وأصولها فتزول بذلك عقبة تعارض نص الوحي ونظر العقل (انقسام الشرع إلى ظاهر وباطن: إن الناس مختلفون في الفِطَر (١) والعقول ولهذا تختلف حالاتهم في فهم النصوص وإدراك ما يراد بها لذلك قسَّم ابنُ رشد الناس إلى ثلاثة طوائف :

الأولى الخطابيون : وهم الكثرة الغالبة السهلة الاقتناع التي تصدق بالأدلة الخطابية .

الثانية أهل الجَدَل : ومنهم المتكلمون الذين ارتفعوا حقاً عن العامة ولكنهم لم يصلوا إلى مرتبة أهل البرهان الحقيقي .

الثالثة البرهانيون : بطبائعهم المواتية وبالحكمة التي راضوا عقولهم عليها وأخذوا أنفسهم بها .

الوحي والمعجزات

إن أهم مشكلة يتعرض لها من يحاول التوفيق بين الدين والعقل هي مسألة الوحي والنبوة فهي مشكلة يجب حلها وعقبة يجب اجتيازها للوصول إلى تآخي الشريعة – التي تقوم على الوحي والمعجزات والفلسفة – التي لا تعترف بغير العقل والنظر المنطقي .

---

(١) مفردها فِطْرَة أي خِلقَة .

ونرى ابن رشد يقول كلمته ويبين رأيه فيقول : (إن هناك أموراً يعجز العقل عن معرفتها وإذن فلا مناص من الرجوع فيها إلى الوحي ولا عجب فقد جاء الوحي متمماً لعلوم العقل لأن كل ما عجز عنه العقل أفاده الله تعالى للإنسان من قِبَل الوحي ، وهذه الأمور التي يعجز العقل عن إدراكها هي أمور من الضروري علمها لحياة الإنسان ووجوده وسعادته) ونرى ابن رشد يرى أن الفلسفة تعني بفحص ما يجيء به الشرع فإن أدركته كان ذلك أتم في المعرفة وإلا نادت بقصور العقل الإنساني ، وإن ذلك مما يدركه الشرع وحده وهذه الأمور التي يُحتاج فيها إلى الشريعة ولا يكفي العقل في معرفتها تتلخص كما يرى ابن رشد في معرفة الله معرفة تامة بالقدر الممكن في هذه الحياة ، وفي السعادة والشقاء الإنساني في هذه الحياة الدنيا وما بعدها ، وفي وسائل هذه السعادة وأسباب هذا الشقاء ، ذلك أن الفلاسفة يرون أن الإنسان لا تقوم حياته وسعادته إلا بالفضائل النظرية والخلقية وهذه تعتمد معرفة الله وتعظيمه بالعبادات المشروعة وهذه الأمور لا تعرف كلها أو معظمها إلا بالوحي ، ولا يجب في هذا فإن الفلسفة كما يذكر ابن رشد تنحو نحو تعريف بعض الناس سعادتهم وهم من عندهم استعداد لتعلمها .

بين ما ذهب إليه ابن رشد في (فصل المقال) وبين ما ذهب إليه في (كشف الأدلة وتهافت التهافت) ولهذا أساء بعض مؤرخي الفلسفة الإسلامية فهم موقفه فبعضهم معتمداً على نصوص (كشف الأدلة وتهافت التهافت) جعله غير عقلي والبعض الآخر ومن خلال نصوص (فصل المقال) جعله عقلياً بإطلاق لا يتردد في تأويل ما لا يتفق والعقل من نصوص الدين والصواب في ذلك أن ابن رشد ليس من الحق أن يوصف بأنه عقلي أو غير عقلي دائماً وبإطلاق إن الحقيقة أن يحكم بأنه غير عقلي إذا ما تعلق الأمر بالعامة الذين لا يطيقون النظر والأدلة البرهانية وهو عقلي إذا تعلق الأمر بأولى النظر العقلي والفلسفة ذلك بأنه فيما يذهب إليه بالتعبير عن الحقيقة الواحدة بلغتين مرة بالرموز والأمثال ليفهمها العامة وأخرى يذكرها مجردة كما هي لذوي البرهان ومن هذا نستنتج التفاهم والالتقاء بين الفلسفة والدين وعدم اصطدام أحدهما بالآخر ما دام لكل منهما نفوذ خاص وصنف معين من الناس يتجه لخيره وسعادته .

نكبة ابن رشد

برغم كل ما وصل إليه لم تخل حياته مثله مثل غيره من العباقرة والموهوبين – من متاعب وآلام حسداً وبغياً من جماعة لم يهبهم الله ما وهبه و لم ينالوا من الخير ما ناله ، فقد نال الحظوة عند الخليفة أبي

يعقوب يوسـف بن عبد المؤمـن فولاه القضـاء وطلب منـه ترجمة آثار الفلاسفة والحكماء الإغريق ثم جاء بعـده في الخلافـة ابنـه يعقـوب (١) الذي لقب بالمنصور فنال لديه ابن رشد ما كان له من المكانة العالية عند أبيه بل لقد بلغ من المنزلـة والحظـوة عنـد المنصـور درجـة ارتفعـت فيهـا الكلفة بينهما أو كادت فلم يكن يلزم نفســه مراعـاة مـا تراعيـه حاشـية الملوك من الملق والأدب الزائـد المصطنـع حتـى كـانت سنة /٥٩١/ هـ عندما أراد الخليفة المنصور غزو الفونس ملك كاستيلا وليـون فاسـتدعى ابن رشد إلى مجلسه وقربه على كل أصحابه وغمره بعطـف كبـير ، غـير أن الأيام السود قد جاءته تسعى فالمنصور قــد أسرَّ في نفسـه أمـراً لابـن رشد وذلك عندما ما شرح كتاب الحيوان لأرسطو وجـاء ذكـر الزرافـة فقال : (وقد رأيتها عند ملك البربر) - يقصد المنصور - فرأى المنصـور في ذلك إهانة كبرى له ولأسرته المالكة رغم أن ابن رشد اعتذر له وبـين أنه كتب (ملك البرين) أي أفريقية والأندلـس فغلـط الكـاتب لتقـارب الكلمتين في الحروف والشكل ، ولكن المنصـور لم يقتنـع ، وصـادف أن جماعــة مـن أهل قرطبة من الذين كانوا ينازعونه الشرف والمجد أخـذوا

---

(١) كان ذلك سنة /٥٨٠/ هـ .

يتلمسون الوسائل لإيغار صدر الخليفة عليه كما يحدث عادة بين النظراء وأسعدهم الحظ وابتسم لهم فقد رأوه يكتب بخط يده في بعض تلاخيصه حاكياً عن قدماء الفلاسفة (فقد ظهر أن الزُّهرة إحدى الآلهة) فطاروا بهذه الكلمات فرحاً إلى المنصور وأوهموه بأنه كلام ابن رشد وليس كلام الفلاسفة وكان أن استدعى المنصورُ ابنَ رشد في حفل ضم رجال الدين والأعيان بالمسجد الجامع بقرطبة وكانت محاكمته لا ظل للعدالة فيها وهو شيخ القضاة ومتحرى العدل والدقة دائماً ، فحساده قد بينوا للناس أن ابن رشد يخيرهم بين الفلسفة والدين فتحامل عليه الناس ظلماً وزاد المنصور الأمر سوءاً فقد نفاه وطرده وأمر بإحراق كتبه ما عدا كتب الرياضيات والطب والفلك .

ظهور الحقيقة

وعندما كان عام /٥٩٥/ هـ ثاب المنصور إلى رشده وأدرك ظلمه لابن رشد فعفا عنه وأعاده وأكرمه وقرّبه من مجلسه .

مكابدة ابن رشد

لقد قاسى ابن رشد في محنته هذه كثيراً من الشدائد وكان آلمها طرده وابنه من المسجد يوماً في قرطبة (مشرق شمسه وموطن مجده) وقد هما بدخول المسجد لصلاة العصر وهذا معناه أن نكبته ذاع أمرها وعلم بها الناس حتى العامة منهم وصادفت هوى في نفوسهم لتحفظهم

على اشتغاله بالفلسفة ، وهـو الـذي كـان ينفـق مالـه وجاهـه في سـبيل سعادتهم كما أن تلاميذه تفرّق شملهم وتبـاعدوا عنـه ، وعندمـا تغـيرت نفس المنصور ومال إلى تعلـم الفلسـفة ألغـى مراسـيم تحريمهـا واضطهـاد أهلها - كما شهد له جماعة من الثقات بحسن ديـن ابـن رشـد وعقيدتـه وأنه على غير ما نسب إليه وأن ذلك مكيدة أدرك خطأه فاعتذر من ابن رشـد وتلازمـا ثانيـة بعـد انقطـاع دام أربـع سـنوات قضاهـا ابـن رشـد مطروداً منفياً .

وفاته

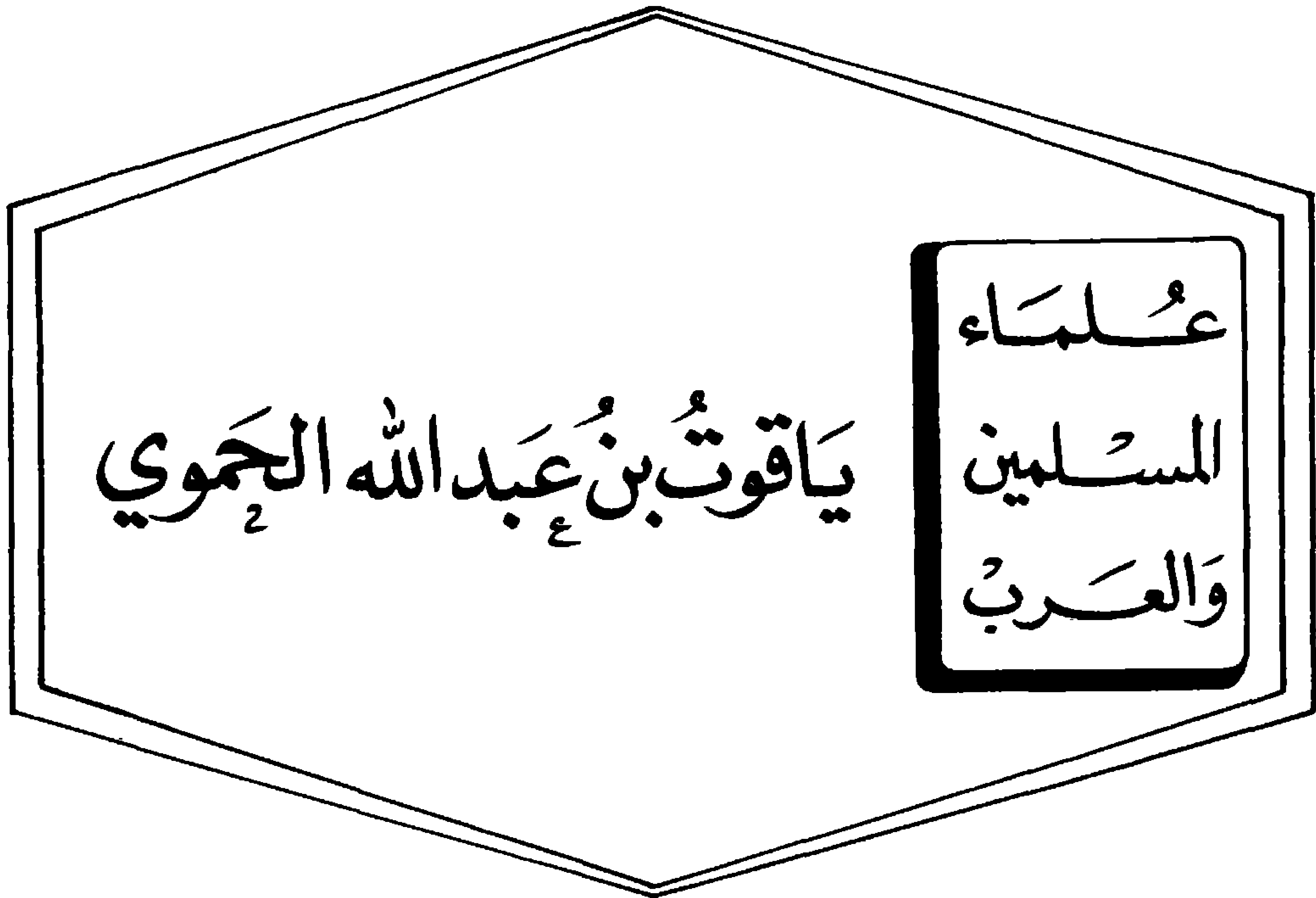
توفي ابن رشـد في مراكـش سـنة /٥٩٥/ هـ ثـم حمـل رفاتـه إلى قرطبة بعد ثلاثة أشهر حيث دفن بمقبرة أسرته .

خاتمة

تلك حياة ابن رشد وأحداثها ومظاهرهـا و لم يبـق إلا أن نسـجل أن أبا الوليد مرَّ بالمحنة موفور الكرامة إنه لم يطلب العطـف عـن خطـأ لم يرتكبه بل احتمل ما وقع عليه من ظلم وجور ساكن النفس صابراً ، مـا دام ذلك لا يثنيه عن غايته وعن أداء رسالته التي وهب نفسه لهـا ، حتـى انجلت الغمة وظهر للعامة والخاصة أنه بريء من كل ما نسب إليه .

فعاد من منفاه منتصراً رافع الرأس شاكراً الله سبحانه وتعالى على كل ما أصابه .

فجر الهدى والإيمان





إعداد
فؤاد حمدو الدقس

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود

ياقوت الحموي
عالم في الجغرافية
٥٧٥ - ٦٢٦ هـ
- ١٤ -

اسمُه ونسبهُ

أبو عبدِ اللهِ ياقوتُ بنُ عبدِ اللهِ الحمويُ النسبِ ، الروميُ الجنسِ البغداديُ الدارِ . ولا يُعرَفُ شيءٌ عن أسرتهِ الروميةِ أو بلدهِ كل ما هو معروفٌ لدينا أنه أُسِرَ وهو صغيرٌ وحُمِلَ إلى بغداد فاشتراه التاجرُ الحموي الذي يسكن بغداد عسكر بن أبي النصر وإليه ينسب ياقوت .

مولده

وُلِدَ في بلاد الرومِ سنة /٥٧٥/ هـ

تسميته

لقد جرتِ العادةُ عندَ العربِ أن يطلقوا على الأرقاءِ (١) أسماءَ الأحجارِ الكريمةِ وبعض أنواعِ الطيبِ كالزمردِ والكافورِ والياقوتِ والمرجانِ فأطلق عليه مولاه عسكرُ اسمَ ياقوت وقد حاول بعد أن أعتقه سيدهُ أن يستبدلَ اسمَه باسمٍ آخرَ فاختار لنفسه اسمَ يعقوب ولكنه أخفق (٢) في محاولته تلك فقد لازمه اسمهُ القديمُ والتصقَ به ولم يعرفْهُ

(١) مفردها رقيق أي عبد .
(٢) أخفق : فشل .

معاصروه إلا به و لم تذكرْهُ الدوائرُ العلميـة إلا باسـمِ يـاقوت الـذي أراد التنصلَ منه والانسلاخَ عنه وكانت العادة عند العـرب أيضـاً إذا وجـدوا أنفسهم أمام شخص يُجْهَلُ اسمُ أبيه ذكروه بأنه ابنُ عبـدِ الله وإضافـة (الحموي) نسبةً إلى مولاه عسكر الحموي فصار اسمه بالكـامل يـاقوتُ ابنُ عبدِ الله الحمويُ واختصاراً يقال ياقـوتٌ الحمويُ .

شخصيته

يتميزُ يـاقوتُ بسـعةِ الأفـقِ والاطـلاعِ فقـد اسـتطاعَ أن يضـعَ في معجمهِ لبناتٍ(١)قويةً ومؤثرةً في بناءِ الحضارةِ العربيةِ الاسلامية في عصره

نشأته

كان مولاه عسكر أمياً لا يُحسنُ الكتابـة ولا يعـرفُ القـراءةَ ولا يعلم شيئاً سوى التجـارة فدفـع بـه إلى الكتّـاب فتعلـم القـراءةَ والكتابـةَ والحسابَ فاستعان به مولاه في ضبطِ تجارتهِ ثم ما لبثَ أن صارَ مسـاعداً له فأخذه معه في الأسفار .

صحبته لمولاه

لقد حققَ ياقوتُ الفائدةَ العظيمةَ بصحبته لمولاه عسـكر الحمـوي فقد عنيَ بتعليمِه وتدريبه على الأسفارِ وأصولِ التجارة مماكان لـه عظيـمُ الأثرِ في مستقبلهِ العلمي إذ كانت هذه الأسفارُ تستهلكُ القليلَ من وقتـهِ في ممارسةِ الشؤونِ التجاريةِ لسيدهِ وأما الكثيرُ من وقتهِ فقد كـان يقضيـهِ

---

(١) مفردها لبنة : المعدة للبناء .

في القراءةِ واقتناء الكتبِ وجمعِها ونسخِ بعضِها إذا تعذرَ الحصـولُ عليهـا وقد يبدو هذا الأمرُ عجيباً في حياةِ ياقوت بعـد أن أعـدَّهُ سـيدهُ للتجـارةِ وشحَنَ ذهنَهُ بالثقافاتِ المتصلةِ بالأعمالِ التجاريةِ ، غير أنَّ هذا قد يتبددُ إذا علمنا أن الرحلاتِ والأسفارَ عندَ العربِ كـانت مـن دواعـي التـأملِ العلمي هذا بالإضافةِ إلى ما لدواعي الفطرةِ والميولِ الطبيعيةِ عنـد يـاقوت إذ كان في رحلاتِه يُعطي دكاكين الوراقين (١) أكبر نصيـب مـن عنايتـهِ واهتمامِهِ ويركزُ على الثقافات الـتي تلائـم مزاجَـهُ الفِطـريَ ، تلـك هـي الثقافاتُ الجغرافيةُ التي أُولِعَ بها ، وكانت تجارتُهم إلى عُمان على الخليـج العربي وإلى جزيرةِ كيش في وسطِ المحيطِ الهندي وكـانت تُعتَـبرُ في ذلـكَ الوقتِ من أهمِّ المراكزِ التجاريةِ إذ كان يفدُ إليهـا كثـيرٌ مـن تجـارِ العـالمِ الاسلامي وغيرِهِ من الأقطارِ حتى أصبحت مركزاً كبـيراً لتجمـعِ التجـار من مختلف الأقطارِ والشعوبِ وقد اكتسبتْ هـذه الجزيـرةُ تلـكَ الشـهرةِ لموقعها التجاري الفريد ولتوافرِ الخصبِ فيهـا فقـد عُرِفَـت بكـثرة نخيلهـا وثمارها وعيونها التي يتدفق منها الماء العذب ولبثتْ هـذه الجزيـرةُ تتمتـعُ بشهرتها زماناً حتى بدأت تفقدُ أهميتَها التجاريةَ تدريجياً بسبب منافسـةِ هرمز لها على الساحلِ الفارسي للخليج العربي وفي أثناء ذلك بدأ ياقوتُ يقومُ بعددٍ من الرحلات إلى أماكنَ أخرى واستمر حالهُ على هذا النحـو وقتاً ليسَ بالقصير حتى وقعتْ الجفوةُ بينـه وبـين مـولاه عسـكر أعقبتهـا

---

(١) الوراق : بائع الورق .

القطيعةُ وانفصام عرى الروابطِ التي كانت بينهما .

القطيعةُ وأثرُها على كلٍّ منهما

أما ياقوتُ فقد اتسعَ لديه الوقتُ الذي عاونه على تحقيق مآربه وإشباع ميوله فاغتنمها فرصةً ذهبيةً وراح يعمل في صبر دائب ونشاطٍ متصل في البحثِ والدراسة والاطلاعِ فاشتغلَ بنسخِ الكتبِ لقاءَ أجر يتقاضاه ليعيش منه وليزداد اطلاعاً ومعرفة واستمر فترة من حياته يشق طريقه مكافحاً أما مولاه عسكر فقد شعر بعد هجر ياقوت وابتعاده عنه أنه قد وقعَ في خطأ جسيم وأنه ينبغي عليه أن يصلحَ خطأه بأن يحاولَ استرجاع ياقوت فيستدعيه ويسترضيه ويعيده معززاً مكرماً .

حرية ياقوت

ما تلبثُ العلاقاتُ أن تعودَ بينه وبين مولاه عسكر إلى نحو ما كانت عليه ويتصل ما كان قد انقطعَ بينهما فيقررُ مولاه عسكر أن يعتقه ويطلقه من أسرِ عبوديتهِ وكان ذلك سنة /٥٩٦/ هـ .

ياقوت شريكاً لمولاه

بعد أن أعتقه مولاه جعله شريكاً له بالمضاربة (١) وبفضلِ خبرتهِ التجاريةِ التي اكتسبها منذُ حداثةِ سنهِ كان يعود في كل مرة بأرباح طائلة وفي رحلته التجارية الأخيرة عاد بعد غيبة طويلة فوجد مولاه قد

---

(١) المضاربة : أن المال من شريك والثاني عليه الخبرة والمجهود .

فارق الدنيا فحزن عليه كثيراً وأعطى زوجه وأولاده نصيبهم من التجارة وراح يشق طريقه في اتجاهٍ آخر من التجارة فهو الآن يملك المال وتجارةُ الكتبِ هيَ السبيلُ إلى تحقيق آماله ولعله اختار هذه التجارة ليجمع بين الخبرة التي اكتسبها وبين اشباعِ دوافعهِ النفسية وميولهِ إلى القراءة والاطلاع على أكبرِ عددٍ ممكنٍ من المراجع والمخطوطاتِ .

رحلته إلى حلب

من خلال تجارته بالكتب كانت محطته الأولى (حلب) وهناك التقى بالوزير القفطي (١) الذي كان يحرص على جمع الكتب وبدأت بينهما معرفة مشوبة بود فاتر فلم يمكث ياقوت على إثر ذلك في حلب طويلاً وغادرها إلى دمشق و لم يجدْ الاستقرار هناك فعاد إلى حلب ومنها إلى الموصل ثم إربل حتى استقر في خراسان .

مقامه في بلاد فارس

راح يتنقل بين خراسان (٢) ومرو (٣) وخوارزم (٤) ونيسابور (٥) وسرخس (٦) وغر تلك البلدان من بلاد فارس فقد

---

(١) كان عالماً جليلاً ومؤرخاً كبيراً له كتاب (أخبار العلماء بأخبار الحكماء) توفي /٦٤٦/ هـ . (٢) خراسان : كلمة من خور : شمس واسان : مشرق موقعها في بلاد فارس . (٣) مرو : مدينة في تركستان هي اليوم ماري .

(٤) خوارزم : مدينة في تركستان إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي سابقاً .

(٥) نيسابور : عاصمة خراسان من أعظم المدن الاسلامية في القرون الوسطى .

(٦) سرخس : مدينة قديمة على الحدود الايرانية الروسية

أمضى عامين في نيسابور ثم لم يلبث أن تركها واستقر بمرو وأمضى فيها أكثر من عامين حيث كان يستغل كلَ وقتهِ في القراءة والاطلاع وفكّر في وضع معجمه الشهير وراح يجمعُ المادة العلمية لذلك ولكن تناهى إلى مسامعه فظائعُ التتار (١) واجتياحهم لكثيرٍ من البلاد الاسلامية وأنهم استولوا على بخارى (٢) وسمرقند (٣) وارتكبوا أشنع الجرائم ففرّ ياقوت هائماً على وجهه قاصداً خراسان وكان ذلك سنة /٦١٧/ هـ وقد كان لهذا الهروب المفاجيء من مرو تأثير كبير على مادتهِ العلميةِ الجغراقية التي بدأ يجمعها فقد ترك هذه المادة مرغماً في مرو وفي طريقه مرّ بالرَّي (٤) وقزوين (٥) وتبريز (٦) إلى أن بلغ الموصل فدخلها فقيراً معدماً لا يملك شيئاً ، ولكنه لم يلبث أن راسل الوزير القفطي في حلب .

ياقوت والوزير القفطي

من الموصل بعث برسالة مؤثرة إلى القفطي يذكر له فيها ما أصابه من الفاقة والفقر نتيجةً لاجْتياح التتار للبلاد الإسلامية وذلك ما جعله

---

(١) التتار قبائل كانت تسكن في أسيا الوسطى والمغول قسم منهم .

(٢) بخارى : مدينة جنوب غربي الاتحاد السوفيتي السابق (اوزبكستان)

(٣) سمرقند : مدينة في اوزبكستان خربها جنكيزخان ثم استولى عليها تيمورلنك وجعلها عاصمة له وفيها قبره .

(٤) الرَّي : مدينة قديمة في شمال ايران فيها ولد هارون الرشيد .

(٥) قزوين : مدينة شمال ايران .

(٦) تبريز : مدينة غربي اذربيجان .

يترك كل أمواله في سبيل النجاة بنفسه ، رقّ القفطي لحاله فأرسل إليه أن يوافيه فحضر إليه ، لقد كان في عطف القفطي عليه ما ساعده على تحسين حاله ففي كنفه وجد الفرصة سانحة لإعداد مادة معجمه من جديد فقد وضع القفطيُ جميعَ كتبهِ في متناولِ يده واستمرَ يعملُ بجدٍ ونشاطٍ وراحَ يقرأ وينسخُ و لم يشأْ أن يكون عالةً على القفطي فعندما تجمع لديه بعضُ المالِ سافر بتجارة إلى مصر وعاد منها بتجارةٍ باعها في حلب وربحَ في التجارتين .

مسودة معجم البلدان

وبعد أن انكبَّ على القراءة والتحصيلِ فترةً طويلةً أخرج مسودة لكتابه معجم البلدان وكان ذلك سنة /٦٢١/ هـ وأهدى تلك النسخة بخط يده إلى الوزير القفطي عرفاناً منه بجميله فقد وضعَ بينَ يديه كلَ الكتبِ والمراجعِ والمخطوطاتِ ما عوَّضهُ عما فقده في مرو فضلاً على أن القفطيَ استضافه في حلب ورحّب بمقدمه إليه .

اساتذته وشيوخه

لقد أراد ياقوت الحموي أن يدعم ثقافته اللغوية لكي يتغلب على عجمة لسانه فكان من اساتذته الأديب اللغوي العكبري (١) والنحوي ابن يعيش (٢) .

---

(١) شارح ديوان أبي الطيب المتنبي وولد وتوفي ببغداد /٥٤٣-٦٢١/ هـ .

(٢)شارح كتاب المفصل في النحو للزمخشري ولد وتوفي بحلب/٥٦١-٦٥٦/هـ

العوامل التي ساعدته على التفوق

إن من أهمِها تلك الجفوة التي وقعت بينه وبين مولاه عسكر فقد كانت سبباً في أن يعكفَ على نسخِ الكتبِ وإن كان قد قام بهذا العمل باعتباره وسيلةً من وسائلِ كسبِ الرزقِ إلا أنه قام به أيضاً في الوقتِ نفسهِ تلبيةً لدوافع نفسيةٍ على درجةٍ من القوةِ قد استولت عليه واستجابة لميولٍ طبيعيةٍ سيطرت على تفكيره ثم قيامه بعمل كان ذا أثر قوي في إشباع تلك الكوامن في نفسه عندما تاجر في الكتب مَثله في ذلك كبائع المسك إن لم يشترِ أحد منه يكفيه ريح المسك وعبق المكان وكذلك تاجر الكتب إن باع كسب وإلا قرأ ما فيها واطلع على ما تحتويه تلك الكتب من فوائد كبرى متمثلة في زيادةِ القراءةِ والاطّلاع وتوسيعِ الأفقِ وتفتيحِ المداركِ ومن خلال ذلك اتسعت أمامه مصادرُ المعرفةِ ومراجعُها بالإضافة إلى كثرةِ أسفارهِ ورحلاتهِ التي استغرقتْ شطراً كبيراً من حياته متردداً أثناءها على كثيرٍ من البلدانِ والأقطارِ المتعددةِ مستغلاً هذه الرحلات في زيارة أكبر عدد ممكن من دور الكتب وخزائنها النفيسة والاطلاع على ما فيها من المراجع ونسخ ما فيها من كتب بالإضافة إلى أن هذه الرحلات قد هيأت له فرصة التعرف بنفسه على الأماكن والبقاع والبلدان التي مرّ بها أو أقام فيها .

موهبته

فضلاً عن أنه كان عالماً غزير المادة في ميدان العلوم الجغرافية فقد كان إلى جانب ذلك أديباً مؤرخاً ويتضح ذلك من خلال كتابيه معجم الأدباء وفن تراجم الأشخاص .

معجم البلدان

بدأ كتابه معجم البلدان بمقدمة طويلة جرى فيها على مذهب السلف الصالح وهي اعطاء فكرة واضحة عن أسباب وضع هذا الكتاب والغرض من وضعه وإلقاء الضوء على منهجه العلمي وطريقة بحثه .

المقدمة

الحمد لله الذي جعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً وبَثَّ من ذلك نشوراً ووهاداً وصحارى وبلاداً ثم فجر خلال ذلك أنهاراً وأسال أوديةً وبحارا وهدى عبادَهُ إلى المساكنِ وإحكامِ الأبنيةِ والمواطنِ فشيّدوا البنيانَ وعمروا البلدانَ ونحتوا من الجبال بيوتاً واستنبطوا آباراً وقلوتاً (١) وجعل حرصهم على ما شيدوا وإحكام ما بنوا وعمَدوا عبرةً للغافلين وتبصرةً للغابرين فقال وهو أصدق القائلين : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم كانوا أكثرَ منهم وأشدَّ قوةً وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسِبون ﴾ (٢) صدق الله العظيم .

---

(١) اسم جنس منه قَلْت وهي النقرة في الجبل تمسك الماء .

(٢) الآية /٨٢/ سورة غافر .

فهو يستدل بالآيةِ الكريمةِ على أنه ينبغي على الناس أن يسيروا في الأرض ليتأملوا ما كان عليه مَنْ قبلهم من الأمم حين بغوا وأفسدوا في الأرض فأهلكهم الله تعالى وما أغنى عنهم ملكُهم الكبيرُ الذي أقاموه ولا صروحهم (١) المنيفة التي شيّدوها ويلاحظ أن الآيةَ الكريمة ربطت بين الحثِّ على الرحلةِ وبين التأمل لما كانت عليه الأممُ السابقةُ وهي رحلةٌ للدراسةِ والتأملِ والعبرةِ والعظةِ .

موضوع معجم البلدان

يحدد موضوعَ كتابهِ فيقول : فهذا كتاب في أسماء البلدان والجبال والأودية والقيعان (٢) والقرى والأوطانِ والبحارِ والأنهارِ والغدْران (٣)

أهمية علم الجغرافية في الحياة

ثم يشير إلى أن العلمَ بما في الأرض من بلادٍ ووهادٍ (٤) يشترك فيه العالِمُ وغيرهُ استكمالاً للحياة في الأرض فلا تكتملُ حياةُ الناسِ إلا بمعرفة علمِ الجغرافية وتطبيقاتِه ولعل هذا ما دفع أبناءَ الأممِ الغربيةِ إلى الرحلة في الأرض وركوبِ المغامراتِ في سبيل التعرف على أجزاء العالم شرقهِ وغربهِ ومعرفةِ طبيعةِ الأرضِ والناسِ في حين أن المسلمين والعرب قد نسوا ما يأمرهم به دينُهم من السيرِ في الأرض والاعتبار .

---

(١) قصورهم . (٢) مفردها قاع وهو المسوي من الأرض .

(٣) مفردها غدير. (٤) الوهدة : المكان المطمئن .

حاجة أهل السيَر والأخبارِ والحكمةِ والتنجيم إلى علم الجغرافية

يقول ياقوت : فأما أهل السير والأخبار والحديثِ والتواريخِ والآثار فحاجتهم إلى معرفةِ علمِ الجغرافية حاجةٌ مُلِحّةٌ وأكيدةٌ لأنها معتمدُ علمِهم الذي قلَّ أن تخلوَ منه صفحةٌ من كتبهم ، أما أهلُ الحكمةِ والتنجيمِ فلا تقتصرُ حاجتُهم إلى معرفة علم الجغرافية عمن قدّمنا فالأطباءُ لمعرفة أمزجةِ البلدانِ وأهوائِها والمنجمون للاطّلاع على مطالعِ النجومِ وأنوائها ، لذلك صنف كثيرٌ من القدماء كتباً سموها جغرافية ومعنى ذلك (صورة الأرض) وألف آخرون كتباً في أمزجة البلدان وأهوائها مثل (ابقراط (١) وجالينوس (٢)) وغيرهما .

حاجة أهل الأدب إلى علم الجغرافية

يقول ياقوت : وأما أهلُ الأدبِ فناهيك بحاجتهم إلى الجغرافية لأنها من ضوابطِ اللغوي ولوازمِهِ وشواهدِ النحوي ودعائمهِ ، فإن أحدث نظريةٍ في دراسةِ النصوصِ الأدبية تقوم على أساس وجودِ علاقةٍ بين أسماءِ الأماكنِ وبين الإنتاجِ الأدبي وبخاصةٍ في الشعر الجاهلي .

السبب المباشر في وضع معجم البلدان

يقول ياقوت : وكان من أول البواعثِ لجمعِ هذا الكتابِ أنني

---

(١) ابقراط أشهر الأطباء الأقدمين / ٤٦٠ – ٣٧٧ / ق.م .

(٢) جالينوس طبيب يوناني له اكتشافات خطيرة في التشريح /١٣١-٢٠١/ م.

سُئلتُ بمرو سنة خمس عشرة وستمائة في مجلس شيخنا السمعائي عن حُباشة اسم موضع جاء في الحديث النبوي وهو سوقٌ من أسواق العرب في الجاهلية فقلت حباشة بضم الحاء قياساً على أصل هذه اللفظة في اللغة لأن الحباشة : الجماعة من الناس من قبائل شتى ، فانبرى رجل من المحدثين وقال : إنما هي حَباشة بالفتح وصمم على ذلك وجاهر في العناد بغير حجة فأردت قطع الاحتجاج بالنقل إذ لا معول في مثل هذا على اشتقاق ولا عقل ، فألقي حينئذ في رُوعي (١) افتقار العالمِ إلى كتابٍ في مثل هذا الشأن مضبوطاً وبالإتقان وتصحيح الأغلاط مخطوطاً ليكون في مثل هذه الظلمة هادياً وإلى ضوء الصواب داعياً .

منهجه

إنه يحرص على تطبيق المنهج الصحيح في البحث فلا يتعرض إلى معلومة ما إلا ويسلطُ عليها الضوءَ فيكشفها ويوضحها ويزيل ما يحيطُ بها من لَبْسٍ وقد رتب ما يَرِدُ في كتابه من أسماء الأماكن والبقاع وغيرها على حسب حروف المعجم ويتحرى في الضبط بأن يذكر اشتقاق الاسم إن كان عربياً ومعناه إذا كان أعجمياً ويسترسل في رسم منهجه بالتعرض إلى الجغرافية السياسية والطبيعية والفلكية فيهتم بتعيين الإقليم الذي يقع فيه المكان أو البلد مع بيان طالعه الفلكي واسم الكوكب المسيطر عليه ويتعمق في الحديث عن الخصائص المميزة لكل

(١) رُوعي : سواد قلبي .

بلد وما اشتهرت به من عجائب وتناقله الرواة والمحدثون عنها من غرائب كما يبدي اهتمامه بذكر الذين دفنوا فيها من الأعيان والصالحين والصحابة والتابعين مع ذكر طرف من سيرهم العطرة وكذلك يذكر ما يرتبط بالبلدان من النواحي التاريخية فيعرض لبيان التاريخ الزمني الذي تم فيه فتحها على أيدي المسلمين وكيف تم هذا الفتح هل تم صلحاً أو بالسيف إذ لكل من الموقفين حكمٌ في الشريعة الغراء من فيء (١) أو جزية (٢) مما يكشف عن حقيقة هامة أن الدافع الديني كان من أهم عوامل اشتغال المسلمين بعلوم الجغرافية وغيرها والتأليف فيها وأن المسلمين استخدموا العلم في تحقيق أغراض علمية يقوم عليها نظام مجتمعهم ثم يتحدث عمن ملك كل بلدمن هذه البلدان من حكام وأمراء

ثقافته

نستطيع في ضوء هذا العرض أن نتبين ثقافته التي تتألف من ألوان مختلفة من جغرافية وصفية وطبيعية وسياسية وفلكية ومن سير وتاريخ وقصص ومن فقه وأدب كل هذه العلوم حشدها في معجمه ولذا استحق أن يكون موسوعة فريدة في علم الجغرافية .

مبدأ تربوي حديث في منهجه

إن الحدودَ والفواصلَ بين العلوم كانت حدوداً وهمية في نظر العلماء العرب والمسلمين إذ كانوا يؤمنون بوحدة المعرفة وهذا ما يتجه

---

(١) فيء : كل ما حصل للمسلمين من أموال الكفار من غير قتال .

(٢)جزية:ما يفرض علىغير المسلمين مقابل حمايتهم ومكوثهم في بلاد المسلمين

إليه التقدم العلمي الحديث لأن العلوم يخدم بعضها بعضاً وترتبط فيما بينها ، وفي ضوء هذا الاتجاه في فهم الصِلاتِ بين العلوم يقرر ياقوتُ الحموي مبدأً تربوياً حديثاً يُعرفُ اليوم بمبدأ ترابط المواد فهو في معجمه يجعل اسم المكان محوراً ثم يقيم حوله دراسات لغوية وفلكية وأدبية وتاريخية ودينية .

ياقوت الحموي عند الغرب

يقول العالم الإيطالي ألدومييلي في كتابه (العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي) : إن كتب الجغرافية تضاءلت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين بصورة ملحوظة بعد نمو وانتعاش ظاهرين وبالرغم من ذلك فإننا نجد في هذا العصر كتاباً من أعظم الكتب ذلك الكتاب الزاخر الكبير والقاموس الجغرافي العظيم معجم البلدان الذي صنفه أبو عبدا لله ياقوت الحموي ويقول المستشرق الفرنسي كاراده فو في كتابه (مفكرو الإسلام) إن معجم البلدان من المؤلفات التي يحق للإسلام أن يفخر بها ويقول عنه المستشرق الروسي كراتشوفسكي إن ياقوت الحموي هو الجغرافي العربي الوحيد الذي ظهر في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي ، وقد بدأ المستشرقون يتعرفون على ياقوت ويقومون بدراسات له منذ مطلع القرن التاسع عشر وكانت المخطوطات التي تحمل آثاره العلمية والأدبية قد تسربت إلى المكتبات الأوربية المعنية بالتراث الشرقي وبخاصة التراث العربي الإسلامي .

مؤلفاته

معجم البلـدان – معجـم الأدبـاء – معجـم الشـعراء – الـدول – المقتضب في النسب – المبدأ والمآل في التاريخ – أخبار المتنبي – المشترك وضعاً المختلف صقعاً – فن تراجم الأشخاص .

ياقوت في معجميه

يبرز ياقوت في معجميـه معجـم البلـدان ومعجـم الأدبـاء عملاقـاً كبيراً من عمالقة التأليف في الموسوعات الأدبية والعلميـة والتاريخيـة فقـد دل أولهما على أن ياقوتاً عـالمٌ أضـاف إلى حقـل الجغرافيـة ثـروة علميـةً نفيسةً وأما معجم الأدباء فهو دليل آخر علـى سـعة اطلاعـه في النواحـي الأدبية وفي فن التراجم فقد كان خبيراً مزج الجغرافية بالأدب فقـد كـان يؤمـن بـأن التعبـير الفـني وسـيلةٌ قويـة لابـراز الفكـرة العلميـة في صـورة واضحة لأن الأدب هو نتاج الفكر مثله في ذلك مثـل العلـم وإن كـانت العاطفة هي الظـاهرة العقليـة في الأدب فـإذا استُخدِمَ التعبـيرُ الأدبـي في الصياغة العلمية التقى الأداء الأدبي بالتفكير العلمي وعندئذ تزداد الفكرة العلمية وضوحاً وتشتد قرباً من أذهان عامة المثقفين .

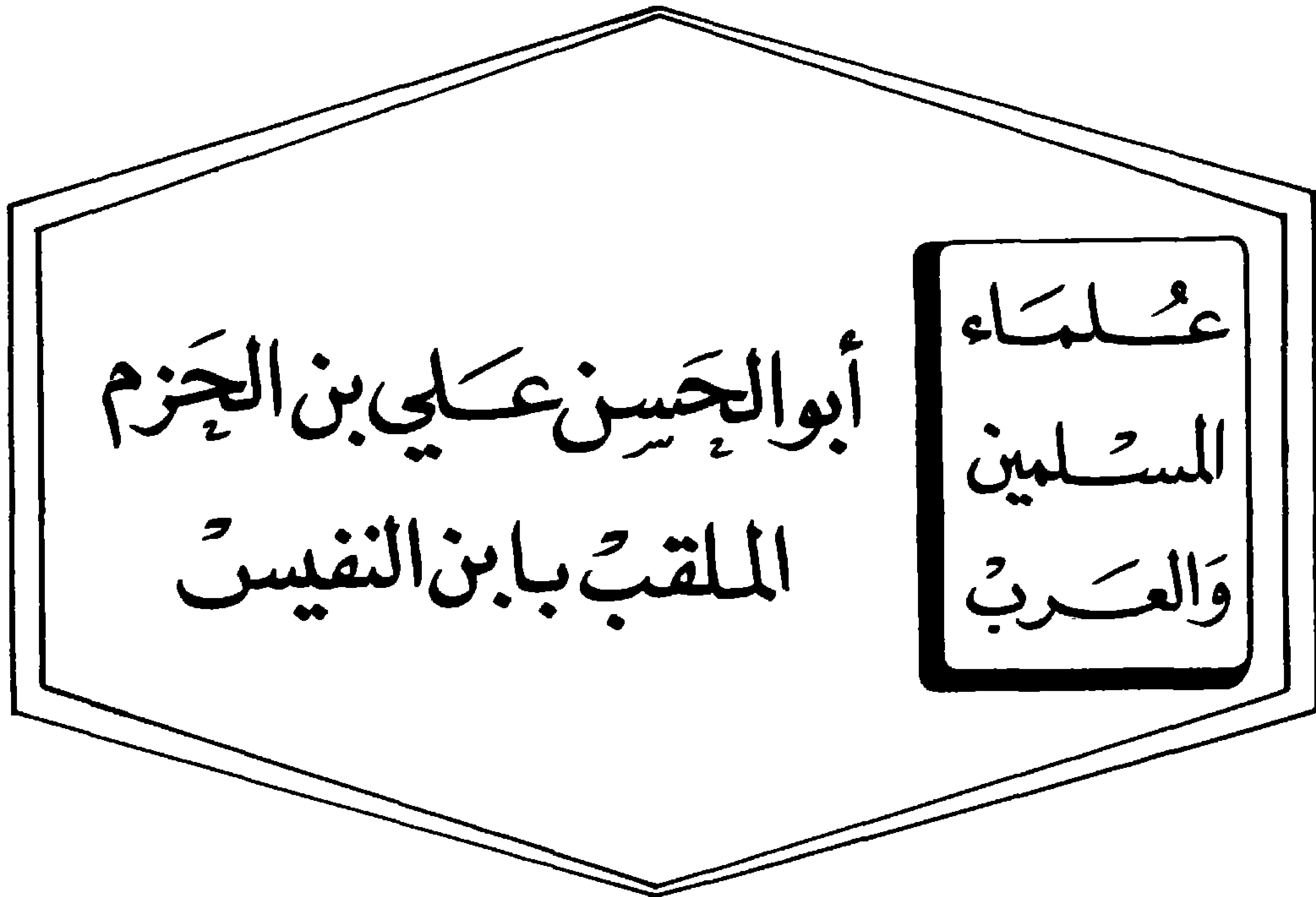
وفاته

توفي في حلب سنة /٦٢٦/ هـ .

خاتمة

نشأ ياقوت الحموي عالماً موسوعياً لم يقف أصله ورِقُّه عائقاً أمام إبداعاته وكتبُهُ ومؤلفاتُه ستبقى نبراساً ينير الطريق أمام طلبةِ العلمِ والمعرفةِ.

فجر الهدى والإيمان





إعداد
فؤاد محمود الدقس

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود

ابن النفيس

/٦٠٧ - ٦٨٧/

- ١٥ -

اسمه ونسبه

أبو الحسن علي بن الحزم القَرْشي (١) ، علاء الدين الملقب بابن النفيس .

مولده

ولد في دمشق سنة /٦٠٧/ هـ .

نشأته

لقد نشأ ابن النفيس في دمشق التي غدت حَاضرَة العرب في العلم والمعرفة بعد أن ورثت مجد بغداد الطبي وازدهر فيها العلم بفضل حكامها الأيوبيين الذين كانوا يعطون العلم عامة والطب خاصة اهتماماً كبيراً وعنايةً فائقة ، حتى جعلوا من عاصمتهم مركزاً هاماً للعلوم والفنون وحققوا فيها نهضة تعد الثانية (٢) في حضارة العرب ، ولقد ظلت دمشق واحة هادئة وسط عالم ساده الاضطراب تحفظ فلول العلم والعلماء في الشرق وكان من مظاهر هذه النهضة المكتبة الكبرى التي

---

(١) القَرْش وليس القُرَشي وقرش بلدة صغيرة في الشام .

(٢) الأولى كانت حضارة العرب في صدر الدولة العباسية .

أنشأها السلطان نور الدين محمود (١) واستودعها نفائس الكتب وأمهات المراجع في شتى العلوم .

تاريخ الطب قبل ابن النفيس

لقد نشأ الطب مع الألم والألمُ قُدِّر للإنسان من مهده يقول تعالى : ﴿ لقد خَلقنا الإنسانَ في كَبَدٍ ﴾ (٢) صدق الله العظيم أي في تعب ومشقة ومكابدة .

وتفنن البشر في العلاج منذ أول التأوهات ولكن لكل أمة طبها الخاص ولكل طب لون خاص الذي تغيَّر وتموه مصطبغاً بميول الأمة المنحدرة في اتجاهات علمية أو كهنوتية وسحرية ، حسب نظرة كل شعب للكون وحسب فلسفته فيه وقد خطا هذا الضرب من المعرفة أوسع خطواته في ظل الحضارتين العظيمتين اللتين ازدهرتا حول حوضي النيل والفرات مهما يكن من أمر تبادل المعارف الطبية بين الحضارتين فإن طب كل منهما نحا اتجاهاً مختلفاً يصور طبيعة كل من الشعبين فنشأ الطب المصري على نزعة تجريبية اختيارية لايكون السحر في أقوى فتراته إلا جزءاً يسيراً فيه ، أما الطب البابلي فقد بُنِيَ على السحر والعبادة مع شيء يسير من العقاقير ، فالطب نشأ على أسس واقعية في بادئ الأمر في مصر وترعرع فيها وذاعت شهرة الأطباء المصريين حتى سعى أباطرة

---

(١) السلطان نور الدين محمود ورث عن ابيه امارة حلب نشأ نشأة اسلامية وكان تقياً مستقيماً توفي /٥٦٩/ هـ .

(٢) الآية /٤/ سورة البلد .

آسيا لدى الفراعنة بغية ايفاد أمهر الأطباء إلى بلاطهم ، ثـم دخلـت فيـه عناصر مبيدة من الطب المعتمد على السـحر والكهنـوت اوقفـت تقدمـه وإن بقيت تقاليد كانت الجذور التي أنبتت طب الإسكندرية وظلت هذه التقاليد حية حتى عهد جالينوس (١) إذ كان العلمـاء لايزالـون يـترددون على مكتبة منف (٢) ليطَّلعوا على المخطوطـات المحفوظـة فقـد سبق أن زار مصر أجـلُّ أطبـاء اليونـان وأعظـم فلاسـفتها أمثـال فيثـاغورث (٣) وابقراط (٤) وافلاطون (٥) وقـرأ هـؤلاء علـى أقطابهـا واقتبسـوا منهـم الكثير وصقلوه في القالب الفلسفي الذي تمتاز به نزعتهم العقلية وصاغوه في الصيغ النظرية التي كانت عقولهم تميل إليها .

الطب الإغريقي

لم ينظـر الطـب إلى الصحـة والمـرض والعـلاج عامـة بوصفهـا موضوعات تخضع دراستها للبحث التجريبـي والتفكير المنطقي إلا عندما حاول الإغريق أول مرة في التاريخ تفسير الكون والاستدلال على قوانينه بالتفكير المُجرَّد والمنطق المُتقن بل بالتوصل إلى أساليب المنطق لتكون أداة لهـذا التفسـير ، فنظـروا إلى تـأملات الفلاسـفة وإلى ملاحظــة الظواهـر

---

(١) جالينوس: طبيب يوناني من أكبر مراجع أطباء العرب /١٣١ - ٢٠١/م .

(٢) منف : مدينة قديمة في مصر على شاطئ النيل بالقرب من القاهرة .

(٣) فيثاغورث : فيلسوف ورياضي يوناني القرن السادس ق.م .

(٤) ابقراط : أشهر الأطباء الأقدمين /٤٦٠ - ٣٧٧/ ق.م .

(٥) أفلاطون : من مشاهير فلاسفة اليونان /٤٢٧ - ٣٤٧/ ق.م .

الطبيعية على أنها موضع لدراسة واحدة متكاملة ، ولذا فـإن مـا نسـميه اليوم بالعلوم الطبية إن هو إلا آخر مرحلة من مراحل تطور طويل تنـاول إجرأ الاستقراءات الكونية التي كـان أساسـها العقيـدة بـأن المـادة تخضـع لقوانين طبيعية جامدة يمكن استنباطها من مميزات ذرات المـادة الهندسـية والميكانيكية ، فبينما كان القدامى عامة يكتفـون في دراسـاتهم بـالبحث عن قواعد تطبيقية في الحياة كان الإغريق يسبرون (١) غـور (٢) الكـون ويحاولون أن ينفذوا إلى أسراره .

الطب بعد ابقراط

بعد ابقراط ظهر أفلاطون وتبعه سـقراط ثـم جـاء ارسـطو الـذي يعتبر بيولوجياً (٣) أكثر منه طبيباً يعكف على الملاحظة ويقوم بالتجارب البيولوجية ثم كان الانتقال إلى الإسكندرية إذ شـاهد القـرن الرابـع قبـل الميلاد حوادثَ قلبت تـاريخ العـالم ، فعندمـا دخـل الأسـكندر المقدونـي مصر وآسيا انتقلت الحضارة الإغريقية معه وسارت في إثـره ، فانتشـرت في الشرق حتى وصلت إلى الهند وجاورت الحضارات الشـرقية وتـأثرت بها وتركزت في مدينة الإسكندرية (٤) الـتي احتلـت مركـز التجـارة في البحر المتوسط وأصبحـت نقطـة التقـاء الشـعوب والحضـارات ثـم جـاء جالينوس الذي فرض مدرسته وانتصر على شتى المـدارس المتنازعـة ودام ذلك حتى القرن السادس الميلادي .

---

(١) يسبرون : يكتشفون . (٢) غور : عمق .

(٣) بيولوجيا : علم الأحياء . (٤) انشئت سنة /٣٢٢/ ق.م .

الطب العربي

لم يكن للطب العربي أي تواجد حتى جاء الإسلام فنجد الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم يبدي (١) أكثر مرة من تقديره للطب والوقاية للتحرز من المرض كما اختلف الإسلام عن الديانات الأخرى باعفائه (٢) المرضى من بعض الالتزامات الدينية ، ولكن العرب عند خروجهم من شبه الجزيرة العربية شعروا بالنقص في ثقافتهم بالمقارنة مع قاطني البلاد التي فتحوها فأسرعوا في ملءهذا الفراغ و لم يتحرجوا من طلب العلم إلى من له به دراية بدون نظر إلى دين أو جنس وأظهروا نحوغير المسلمين كل التسامح بعيدين كل البعد عن التعصب وقد بدأت الجهود نحو استيعاب علوم البلاد المجاورة منذ عهد الأمويين بالشام فهذا خالد بن يزيد بن معاوية (٣) يستدعي بعض فلاسفة الإغريق ليترجموا كتباً في الطب والفلك والكيمياء ، ثم انتقلت مدرسة الاسكندرية بعد أن فقدت مركزها التجاري والأدبي بعد الفتح الإسلامي إلى انطاكية

---

(١) يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :(ماملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه) ويقول أيضاً : (يكفي ابن آدم لقيمات يقمن صلبه) .

ويقول أيضاً : (نحن قوم لانأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لانشبع). ثم أن الوضوء خمس مرات في اليوم والاغتسال في مناسبات عديدة من الأسس التي بني عليها الدين والحكمة ظاهرة النظافة التي هي من وسائل المحافظة على الصحة

(٢) يقول الله سبحانه وتعالى : (ولا على المريض حرج) صدق الله العظيم ويقول أيضاً : (فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر) صدق الله العظيم.

(٣) حكيم بني مروان وأحد أمرائها .

التي أضحت مركزاً أدبياً وتجارياً وعلمياً هاماً لقربها من دمشق العاصمة الجديدة وتحيط بها الأديرة التي كانت لاتزال تمارس فيها الدراسات الإغريقية .

تاريخ الطب العربي

ينقسم تاريخ الطب العربي إلى مرحلتين الأولى : مرحلة النقل والترجمة ويرجع الفضل فيها إلى الخلفاء المستنيرين الذين لم يقصروا في استدعاء العلماء والمترجمين وفي شراء المنسوخات القديمة وكان أطباء هذه المرحلة من غير العرب أما العرب أمثال الكندي (١) وغير فكانوا قلة ولم يكتسب الطب لونه العربي الأصيل إلا في مرحلة ثانية وهي مرحلة الازدهار والإثمار فقد بدأت الزهور تتفتح بعد أن غرس بذورها جهاز المترجمين الذي شارك به خلفاء صدر الدولة العباسية وحدث الازدهار في أوائل القرن الثالث الهجري وبوادر هذا الربيع ظهرت أولاً في أطراف الدولة الإسلامية في فارس والأندلس قبل أن تثمر في المغرب ومصر ، ففي الأندلس أسس بنو أمية (٢) مدينة قرطبة جوهرة العالم التي حوت مكتبتها /٤٠٠٠٠٠/ مجلد من مختلف أنواع العلوم حتى إن ابن رشد (٣) يقول : إذا توفى الله عالماً من العلماء وأريد بيع كتبه فلتحمل إلى قرطبة حيث يوجد يقيناً من يشتريها ، وقد نشأ في

---

(١) فيلسوف عربي /١٨٥ - ٢٥٦/ هـ .

(٢) بواسطة عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) بن معاوية بن هشام /١١٣ - ١٢٧/ هـ .

(٣) فيلسوف قرطبة /٥٢٠ - ٥٩٥/ هـ .

هذه الحقبة أكبر أطباء العرب وفلاسفتها أمثال : الرازي (١) وابـن سينا (٢) والزهراوي (٣) – ابن رشد .

تتلمذ ابن النفيس على الدخوار

نشأ ابن النفيس بدمشق واشتغل بها في الطب على مذهب الدين المسمى بالدخوار (٤) والذي عني في بدء حياته العلمية بأمراض العيون في البيمارستان (٥) النوري (٦) بدمشق ثم عيّنه السلطان سيف الدين الأيوبي (٧) رئيساً لأطباء سوريا ومصر في السنة التي ولد فيها ابن النفيس وكان الدخوار أوحدَ عصره وفريد دهره وعلاّمة زمانه وإليه انتهت صناعة الطب ومعرفتها على ما ينبغي فنهل ابن النفيس من هذه المعين الصافي حتى غدا أحد الأطباء المعدودين

---

(١) الرازي :أبو بكر محمد بن زكريا من أشهر أطباء العرب /٢٤٦-٣١٩/هـ.

(٢) ابن سينا : الشيخ الرئيس طبيب وفيلسوف /٣٧٠ – ٤٢٨/ هـ .

(٣) الزهراوي : أبو القاسم خلف بن عباس من كبار الجراحين العرب / ٤٢٢-٥٠٠/هـ .

(٤) الدخوار توفي سنة /٦٢٨/ هـ .اسمه : مذهب الدين .

(٥) بيمارستان : مشتقة من لفظتين فارسيتين (بيما) : مريض وستان : مكان فتصبح مكان تواجد المريض .

(٦) نسبة إلى السلطان نور الدين محمود .

(٧) أخو صلاح الدين وخليفته .

وزامل في هذه المرحلة ابن أبي اصيبعة (١) ثم انتقلا معاً إلى القاهرة حيث عملا في المستشفى الناصري .

ابن النفيس في القاهرة

غادر ابن النفيس دمشق إلى القاهرة سنة /٦٣٣/ هـ ، ولم يكن الطب في مصر عندما وصل ابن النفيس أقل منه في سائر البلاد العربية بل أنه كان في صدر الإسلام متفوقاً عليه في بغداد ، فعمل ابن النفيس في المستشفى الناصري حتى أنشأ السلطان قلاوون (٢) المستشفى المنصوري فاختار ابن النفيس مديراً له ليفيد من علمه وسمعته الطبية وتوجيهه المستمر وهذا ما يفسر سر اهداء ابن النفيس مكتبته لهذا المستشفى .

مشاهداته

لم يكن تقدم الحياة الاجتماعية والسياسية أقل نشاطاً عن التقدم العلمي فقد عاصر ابنُ النفيس الجيوشَ تُعَدُّ للسفر وتعود منه وحضر الدسائس والقتل والتعذيب بين المماليك وأدرك الحروب الصليبية ونزول

---

(١) موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي المولود في دمشق سنة /٦٠٠/ هـ وعمل بها في المستشفى النوري ثم انتقل إلى القاهرة وعمل بالمستشفى الناصري ثم انتقل إلى صرخد حيث توفي هناك سنة /٦٧٧/هـ واشتهر بمؤلفه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) .

(٢) قلاوون : الملك المنصوري من المماليك البحريين حكم أحد عشر عاماً /٦٧٩ - ٦٩٠/ هـ .

الفرنجة في دمياط (١) واعتقال لويس التاسع في المنصورة (٢) وفشل التتار في حلب ومن الحوادث ذات الأهمية القصوى : هجوم هولاكو على بغداد (٣) والوباء (٤) الذي انتشر في مصر ودام ستة أشهر مات فيه الكثيرون .

مكانته وحياته

لقد عاش ابن النفيس مطيعاً لربه أميناً على دينه وفتحت له كنوز الدنيا ولا شك أن الظروف التي ساعدت على تركيزه في الدراسة وعلى وفرة انتاجه أنه لم يتزوج .

ابن النفيس والطب

اختلف معاصروه في درجة مهارته في ممارسة مهنته الطبية وإن ذاع صيته وربا المال الذي تركه وهذا الاختلاف لايحط من قدرة ذلك أن اعجاب المريض بالطبيب قد يُرَدُّ إلى أسباب لاصلة لها بعلمه ويكفيه فخراً أنه مخترع الدورة الدموية .

ابن النفيس العالم المؤلف

كان ابن النفيس كثير التأليف سريعه كان يكتب من صدره (من معلوماته) من غير مراجعة حين التصنيف فقد كان على ثقة اليقين بما يقوله ويكتبه وكان مُلماً بكل ما كُتِب قبله موهوباً بقوة نقدية نادرة

---

(١) إحدى المحافظات المصرية على أحد فرعي النيل .

(٢) إحدى المحافظات المصرية بجوار دمياط .

(٣) سنة /٦٥٦/ هـ .   (٤) سنة /٦٧١/ هـ .

فقد اشتهر بانتقاده لجالينوس الذي لم يجرؤ على نقده إلا قلة من العلماء وبالعكس فقد كان يُعَظِّمُ كلام ابقراط فشرح كتبه كلها وكان يُجِّلُ ابن سينا ويحفظ كتابه في الطب (القانون) ولايشير على مشتغل بالطب بغير القانون كما اختصر لابن سينا (شرح الهداية في المنطق) .

ابن النفيس في غير مجال الطب

إنه لم يقصر بجهوده على الطب فحسب بل غدا علماً من أعلام اللغة والبيان والمنطق والحديث فتراه يضع في المنطق كتاباً صغيراً يعارض فيه (حي بن يقظان) (١) أما الفقه فقد تولى تدريسه بمدرسة المسرورية بالقاهرة وشرح فيه شرحاً حسناً وكان شافعي المذهب كما ألفَّ في النحو وكتب في العلوم الدينية الرسالة الكاملية في السيرة النبوية ثم مختصر في علم أصول الحديث .

نظريات حركة الدم قبل ابن النفيس

إننا حين نذكر حركة الدم نود أن نميز بين الحركة والدورة إذ أن فكرة الدورة أي الحركة في الدائرة لم تنشأ إلا في القرن السابع عشر ويمكن تقسيم تاريخ معرفة الدورة الدموية إلى عدة مراحل :

المرحلة الأولى : المرحلة السابقة لابقراط وجالينوس وهي حقبة أطباء مصر الفرعونية وفيه أن المصريين عرفوا النبض وفطنوا إلى علاقته بالقلب فقالوا : إن القلب يتكلم عن طريق النبض في كل الأعضاء كما قالوا إن الأمراض تسري عن طريق الأوعية إلى كل أنحاء الجسم .

---

(١) قصة فلسفية كتبها ابن سينا ثم كتبها ابن طفيل .

المرحلة الثانية :العهد الإغريقي القائم على أبقـراط الـذي قـال إن الكبد هو الأصل في الدم وفي حركته .

المرحلة الثالثة :نظريات هـيروفيلوس وايرازسـترانوس السـكندريين اللذين أوشكا أن يصلا في القـرن الثـالث قبـل الميـلاد إلى نظريـة الـدورة الدموية ، فإن هيروفيلس عرف أن الشرايين أوعية دموية وليســت تحـوي هواء ، كما عرف دور القلب المحرك في حدوث النبض وألفّ في النبــض فدرس هذه الظاهرة الهامة بعناية ووصف كيــف تتغير قوتـه وسـرعته في الحالات المرضية وشبّه حركـات القلـب بحركـات الرئـة وميَّز بـين الـدم الوريدي والـدم الشـرياني وذكـر أن التنفـس لايحـدث في الرئـة وإنمـا في الأنسـجة ، وهـي نظريـة تنطـوي علـى بعـض الخطـأ ولكنهـا تدعـو إلى العجب لاقترابها من كيمياء الأنسـجة الدقيقـة ، أمـا ايرازسـترانوس فإنـه اقترب من الحقيقة أكثر إذ أنه وصف سير الدم من الكبد إلى الرئتين عــن طريـق الشـريان الشـبيه بـالوريد ووصـف صمامـات الأورطــا والقلــب ووظيفتهما ، كما وصفَ وتصّور القلب على شكل مضخة تـوزع الـدم إلى الجسم بأكمله وفوق كل هذا فإنـه فـرض وجـود منـافذ نهائيـة بـين الجهاز الشرياني والجهاز الوريدي إلا أنه ظل يعتقد أن حركة الدم تنشــأ في الكبد و لم يميز تمييزاً دقيقاً بين الدم الشرياني والنفث الهوائي .

المرحلة الرابعة : جالينوس الذي اتخذ نظريات الدورة القديمة قاعدة بنى عليها نظريته المشهورة بعد أن لاحظ أمرين جديدين الأول أن الأوردة الواردة إلى القلب أكثر اتساعاً من الأوعية الصادرة عنه والثاني أن قطع الشريان يؤدي إلى نزف دموي وقال إن الدم بعد وصوله إلى البطين الأيمن يمر عبر الحاجز الموجود بين البطينين عن طريق مسام غير مرئية إلى البطين الأيسر حيث يمتزج بالهواء الحامل للروح الحيوي القادم من الرئتين عن طريق الأوردة الرئوية ، وإنه يوزع على الجسم بأكمله عن طريق الشرايين ثم يعود إلى القلب عن طريق الشرايين نفسها أي أنه يخضع لعملية مد وجزر وقد استقرت تلك النظرية طوال القرون الوسطى حتى القرن السابع عشر .

المرحلة الخامسة : ابن سينا فقد أخذ بصفة عامة بنظريات جالينوس لكنه أضاف إليها بعض المعلومات التي استقاها من المعلم الأول ارسطو مضيفاً إليها رأيه .

نظرية ابن النفيس

ترتكز على أن البطين الأيسر والشرايين مليئة بالروح وأن الروح تتولد في التجويف الأيسر باختلاط الدم بالهواء ، ثم يفسر ضرورة الدِقّة الشديدة في الدم الواصل إلى التجويف الأيسر وكيفية حدوث هذه الدِقّة فيقول : (ولابد في قلب الإنسان ونحوه – مما له رئة – من تجويف آخر يلطف فيه الدم ليصلح لمخالطة الهواء ، فإذا لُطِّفَ الدم في التجويف الأيمن فلا بد من نفوذه إلى التجويف الأيسر حيث مولد الروح ولكن ليس بينها منفذ فإن جرم القلب هناك سميك ليس فيه منفذ ظاهر كما

ظنّهُ البعض ولامنفذ غير ظاهر يصلح لنفوذ هذا الدم كما ظَنّهُ جـالينوس لأن مسام القلب هناك مستحصنة وجرمه غليظ ، ثم يتناول ابن النفيـس الشريان الوريدي وهـو مـا يسـمى بـالوريد الرئـوي فيقـول : (إن هـذا العِرق شبيه بالأوردة وشبيه بالشريان أما شبهه بالأوردة فلأنه مـن طبقـة واحدة وجرمه نحيف وأما شبهه بالشريان فلأنه ينبض ، وإنمـا كـان نبـض العروق من خواص الشرايين فكان إلحاق هذا العرق بالشرايين أولى .

الدورة الدموية كما يتصورها ابن النفيس

إنه يرى أن الدم يأتي غليظاً من الكبد إلى التجويف الأيمـن حيـث يلطف ثم يمر في الوريد الشرياني (الشـريان الرئـوي) وهـو وعـاء غـير نابض يتحرك بحركة الرئة حركة معتدلة هي سبب غلظ جداره ثم يصـل إلى الرئة حيث ينقسم إلى قسمين رقيق يصفى من مسام الشريان الرئـوي وقسم غليظ يتبقى في الرئة لتغذيتها ، أما القسم الرقيق فإنه يختلط بالهواء القادم إلى الرئة عن طريق القصبة الهوائية ويدخل الشريان الوريـدي عـبر جداره النحيف وعلة هذه النحافة ضرورتها لتسمح بمرور الدم الرقيق ثم كثرة حركتها إذا كانت نابضة تلقائيـاً بالإضافـة إلى أنهـا متحركـة تبعـاً لحركة الرئة ، ثم يصل الدم الرقيق المخلوط بالهواء إلى التجويـف الأيسـر حيث تَتَكّونُ الروح التي تخرج منه إلى الأوردة فالشـرايين فالأنسـجة أمـا غذاء القلب فيكون عن طريق أوعية خاصة تمر في صميم عضلة القلب .

فلسفة ابن النفيس الطبية

إن المنهج الفلسفي الذي سلكه ابن النفيس واضح وهو يحاكي طريقة ابن سينا في ميله إلى التقسيم المنطقي والتبويب العقلي ، إلا أنه قسم مصنفه إلى أربعة فنون لا كما فعل ابن سينا في القانون وذلك بأن ضم الأدوية والأغذية المفردة إلى الأدوية والأغذية المركبة ووضعها في فن واحد ثم قسم العلم بالطب إلى أربعة أقسام وذكرها ورتّب كل جزء وقسمه وتناول أركان الطبيعة (١) وقال إنها أربعة وهذا يطابق تقسيم الفلاسفة الذي سبقوه وربط الأركان بالأمزجة ووصف الأمزجة المختلفة تبعاً للسن ووفقاً للأعضاء وتدرج من هذا إلى وصف الأخلاط (٢) الأربعة ثم أفرد لكل خلط فقرة ربطه فيها بركن من الأركان ثم وصف خواص كل خلط وفوائده والطبيعي منه وغير الطبيعي وعرض بعد ذلك للأعضاء فقسمها إلى قسمين المفردة (٣) ووصف طريقة تولدها والمركبة إما تركيباً أولياً(٤) أو ثانياً (٥) أو ثالثاً(٦) أو رابعاً (٧) ثم تدرّجَ إلى

---

(١) أركان الطبيعة : النار والهواء والماء والأرض .

(٢) الأخلاط الأربعة : الدم – البلغم – الصفراء – السوداء .

(٣) المفردة : كالعظم والغضروف والرباط والعصب والوتر والغشاء واللحم والشحم والدهن والشرايين والأوردة . (٤) مركبة تركيباً أولياً كالعظم .

(٥) مركبة تركيباً ثانياً : كالعين . (٦) مركبة تركيباً ثالثاً : كالوجه .

(٧) مركبة تركيباً رابعاً : كالرأس .

الأرواح (١) والقوى وقسمها إلى طبيعية وغير طبيعية .

الفحص الاكلينيكي (السريري)

كانت طريقة تعليم الطب على زمن ابن النفيس تمتاز بالتدقيق في فحص المريض ومتابعة مظاهر المرض في تطورها واستجابتها للعلاج وبالمباحثة مع الزملاء والطلبة دون قيد أو إحراج (كونسلتو) وتلك هي الطريقة الصحيحة التي لم يأخذ بها الغرب إلا مؤخراً وهي أحدث ما يُتّبع حالياً في كليات الطب .

مؤلفاته

كتاب الشامل في الطب ، وكتاب المهذب في الكحل وكتاب المختار من الأغذية وشرح فصول ابقراط بالإضافة إلى شرح جميع كتبه وكتاب تفاسير العلل وأسباب الأمراض وشرح مفردات القانون وكتاب موجز القانون وشرح تشريح القانون الذي يعتبره مفخرة للطب العربي .

وفاته

توفي في القاهرة سنة /٦٨٧/ هـ .

خاتمة

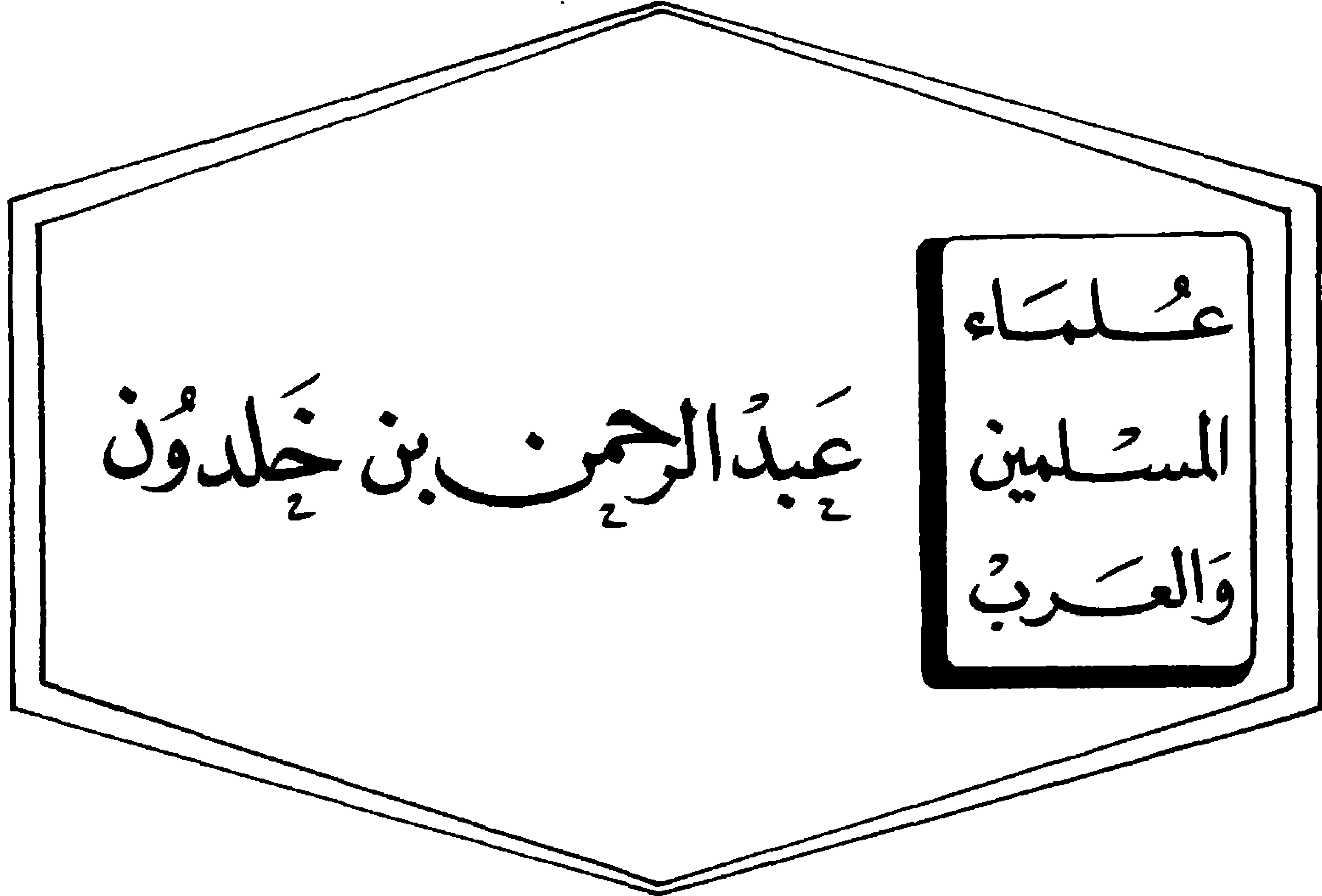
كان ابن النفيس شيخاً فاضلاً كالبحر الخضّم (٢) والطود (٣) الأشم ولم يكن منفرداً بفن من الفنون إنما حوى أغلب الفنون ولو لم يكن له غير شرح غوامض القانون لكفى به دليلاً على غزارة فضله وكثرة علمه وندرة مثله .

---

(١) لايعني بها التنفس بل هي جسم لطيف بخاري يتكون من لطافة الأخلاط كتكوّن الأعضاء من كثافتها والأرواح هي الحاملة للقوى فلذلك أصنافها كأصنافها

(٢) الكثير العطاء .   (٣) الجبل الشامخ .

فجر الهدى والإيمان





إعداد
فؤاد محمود الدقس

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود

ابن خلدون

عالم في علم الاجتماع الإنساني

- ١٦ -

٧٣٢هـ - ٨٠٨ هـ

اسمه ونسبه

أبو زيدٍ عبدُ الرحمنِ بن محمد بن محمد بن محمد بـن الحسـنِ بـن محمـد بـن جابر بن محمد بن ابراهيمَ بن عبدِ الرحمن بن خلدون ولقبه وليُّ الدينِ .

نسبه

ينتمي إلى أسرةٍ عربيةٍ يمانيةٍ تمتدُ إلى وائلِ بنِ حجـرٍ ، كـان جـدهُ الأعلى خالدُ بن عثمان أولَ من دخلَ الأندلسَ بعد الفتح العربي مهاجراً من حضرموت مع رهطٍ (١) من قومهِ ، فانتسبتْ أسرتهُ إليه مضيفـةً إلى اسمه الواو والنون وحَذفَتْ الألف تخفيفاً ، فعُرِفَتْ بـ بني خلدون .

مولده

ولد بتونس في غرة رمضان سنة /٧٣٢/هـ .

---

(١) الرهط : ما دون العشرة من الرجال لا يكون فيهم امرأة .

مكانة قومه

ومما يُعرَفُ عن الأسرةِ الخلدونيةِ أنها تقلدتِ الخططَ العاليَة وتقلبتْ في المناصبِ السياسيةِ الرفيعةِ وساهمتْ في بعض الثوراتِ والفِتن على اختلافِ العصور ِ وذوي السلطانِ فكان لهذه الأسرةِ الشأنُ العظيمُ والخطرُ الكبيرُ منذُ الدولةِ الأمويةِ إلى عهدِ الطوائفِ (١) إلى زمنِ المرابطينَ (٢) فالموحّدين (٣) حتى اضطرتْ إلى الجلاءِ من اشبيلية متوجهةً إلى أفريقيا ونزلتْ بتونس .

سيرة والده

وكان والدهُ قد نزعَ عن طريقةِ آبائِهِ وهي السيفُ والسياسةُ ومناصبُ الدولة إلى طريقةٍ أخرى وهي العلمُ والمعرفةُ ، فنشأ ولدُه عبدُ الرحمنِ على نهجهِ وسلكَ طريقَهُ فحفِظَ القرآنَ الكريمَ في سنٍ مبكرةٍ ودرسَ الفقهَ والتفسيرَ والحديثَ وقرضَ الشعرَ وتلقى العلومَ والمنطقَ

---

(١) دولة الطوائف:قامت على أنقاض الدولة الأموية في القرن الخامس الهجري.

(٢) المرابطون : سلالة من البربر تنتمي إلى قبيلة المتونة احدى قبائل صنهاجة حكمت المغرب وأفريقيا /٩١/ عاماً .

(٣) الموحدون : سلالة مغربية اسسها المهدي بن تومرت على قواعد شيعية عاصمتهم مراكش قامت على أنقاض دولة المرابطين /٥٤١/ هـ .

وسائرَ الفنونِ الأخرى ، حتى حصلتْ له ثقافةٌ شاملةٌ لعلومِ عصرهِ تـدلُّ عليها أبحاثهُ المتنوعةُ في مقدمتهِ الخالدة .

وفاة والديه

في سنة /٧٤٩/ هـ اجتاحَ والديه طاعونٌ جارفٌ وله من العمرِ سبعةَ عشر عاماً .

رحلته إلى المغرب

بعد وفاةِ والديه وَطّنَ النيةَ على تركِ موطنِ ولادتهِ فخرجَ متنقلاً من بلدٍ إلى بلدٍ حتى دخلَ المغربَ ، فاستدعاه السلطانُ أبو عنان المريني إلى فاس آخر سنة /٧٥٦/ هـ ونظمه في أهل مجلسه العلمي وألزمهُ شهودَ الصلوات معه فعكفَ على النظرِ والتأملِ والقراءةِ والأخذِ من علماءِ المغربِ والمترددين عليها فخلصتْ له الإفادةُ منهم جميعاً ، غير أن حظوتَهُ عند السلطان المريني لم تدعْهُ في شأنه بل خَلَقَتْ له المنافسة غيرَ الشريفة فكثرتْ سعايا الحاقدين عليه لدى السلطان وساعدهم على النيل منه وساطتُهُ للأمير أبي عبد الله محمد حاكم بجاية (١) من أمراءِ الموحّدين وكان مسجوناً في فاس ، وعطفُهُ عليهِ بدون تحفظٍ وذلك لما كان

---

(١) بجاية : مدينة ساحلية وميناء في الجزائر منيعة بحصونها التي شيدها الفاندال : وهم شعب جرماني استقر في جنوب اسبانيا ومنها رحلوا إلى أفريقيا الشمالية .

لأسلافِه من النفوذِ في دولتهم ، فنُمي إلى السلطان أن ابنَ خلدون يخططُ لمساعدةِ السجين على الفرار فقُبِضَ عليه وسُجِنَ أواخر سَنة /٧٥٧/ هـ وبعدها بفترةٍ وجيزةٍ أطلقَ السلطانُ سراحَ الأمير محمد وأبقى ابنَ خلدون في الاعتقال لمدة سنتينِ كاملتينِ .

إطلاق سراحه

بعد موت السلطانِ المريني عمل القائم بالدولة الوزيـر الحسـنُ بـنُ عمروٍ على اخلاءِ سبيل ابنِ خلدون معتذراً له عن السنتين اللتين قضاهما مسجوناً بدون وجه حق .

رحلته إلى الأندلس

أزمعَ (١) الرحلةَ إلى الأندلس فبعثَ بزوجـهِ وأولاده إلى أخوالهـم بقسنطينة (٢) وسار إلى سبتة (٣) ومنها أبحـرَ علـى سـفينةٍ إلى الأندلـس سنة /٧٦٤/هـ قاصداً السلطانَ ابنَ الأحمر في غرناطة وعندما وصـل إليـه لقي كل العناية وحظيَ بكلِ الرعاية وكان وزيرُ ابن الأحمر الشـاعر ابـن الخطيب (٤) قد أنسِ لابـن خلـدون فجعـل منه صديـقَ حرفـةٍ وحكيـمَ

---

(١) ثبّت عليه عزمه .

(٢) مدينة في الجزائر وهي مركز اقتصادي وتجاري هام غير القسطنطينية بتركيا.

(٣) سبتة : مدينة في المغرب على مضيق جبل طارق .

(٤) لسان الدين بن الخطيب من أعظـم كتـاب الأندلـس وشعرائها ولـد سـنة /٧١٣/ هـ درس الطب والفلسفة ثم تولى الـوزارة في عهـد السـلطان محمـد بـن الأحمر وأعدم سنة /٧٧٦/ هـ .

استشارة وأنيسَ صحبةٍ ، بيد أن المكانــةَ الـتي وصلهـا في بـلاط السـلطنة جعلتْ أهـلَ السـعايات مـن أعدائـه يوغـرون صـدرَ ابـنَ الخطيـب عليـه مذكرينه بأن السلطانَ أوفده سـفيراً إلى بـدرو ملـك قشـتاله لإتمـام عقـد الصلح بينه وبين ملوك العدوة في المغـرب وأن هـذه المكانـة تؤهلـه لكـي يكـونَ وزيـرَ السـلطنةِ ففطـن ابـنُ الخطيـبِ إلى أن ذلـك سـيضيعُ هيبَتَـهُ ومكانتَهُ لـدى السـلطان ابـن الأحمـر فتنكّـر ابـنُ الخطيـبِ لصديقـهِ ابـن خلدون وراحَ يسعى لعزلِه من ديوانِ السلطان شعرُ ابنِ خلدون بما يدبـر له فحزن لذلك كثيراً .

سفره إلى بجاية مكرماً

في تلك الأثناء تلقى ابن خلدون رسـالةً مـن أبـي عبـد ا لله محمـدٍ حاكمِ بجاية يخبرهُ فيها أنه استولى على بجاية واستعادَ ملكهُ ويستدعيه إليه لأنه لم ينسَ عطفهُ عليه عندما كـان في سـجنِ السـلطانِ المريـني وكيـف حُبِسَ من أجله فاستأذنَ ابنُ خلـدونَ السـلطانَ ابـنَ الأحمـر في الارتحـالِ فأذن له آسفاً لفراقِهِ .

توليه منصب الحجابة (١)

غـــادرَ ابنُ خلدون بلاطَ السـلطانِ ابنِ الأحمر ونزل بجايةَ سنة /٧٦٦/ هـ فعهدَ إليه السلطانُ أبو عبد ا لله محمد بمنصبِ الحجابةِ فقامَ به خير قيام حتى حدثت فتنة بين حاكمِ بجـايــة وابنِ عمهِ الســـــلطان أبي

(١) الحاجب : السكرتير الخاص أو رئيس الديوان .

العباس أمير قسنطينة انتهت بمقتلِ السلطان أبي عبد الله محمد حاكمِ بجاية ودخول أبي العباس بجاية واحتلالِها والسيطرةِ عليها وإخضاعِها إلى نفوذه وكان ذلك سنة /٧٦٧/ هـ .

رحلته الثانية إلى الأندلس

ترك ابنُ خلدون بجايةَ لأنه لم يلقَ الحظوةَ عند سلطانِها الجديد أبي العباس فعزمَ الرحيلَ إلى الأندلس وافداً على ابنِ الأحمر مرة أخرى ولم يطلْ مقامه فيها فقفلَ راجعاً إلى المغرب ونزل بتلمسان (١) التي خرج منها إلى أحياء بني عريف الذين أكرموه وتوسطوا له عند حاكم تلمسان وأنزلوه في قلعة سلامة (٢) من أعمال توجين فأقام ، فيها أربعةَ أعوامٍ متخلياً عن الشواغلِ السياسية وشرع في الكتابة فأكمل مقدمتَهُ الخالدةَ في تلكِ الخلوةِ وكان يومئذٍ في نحوِ الخامسة والأربعينَ من عمرِهِ وقد نضجتْ تجاربُه إذ قطعَ ربعَ قرنٍ يخوضُ غمارَ السياسة ومعتركها متقلباً بين القصورِ في دولِ المغربِ يدرسُ شؤونَها ونظمها ويستقصي سيرَها وأخبارَها ويجوسُ الهضابَ والصحارى متغلغلاً بين القبائل البربرية يدرسُ طبائعها وأحوالها وتقاليدها في الحياة العامة والخاصة وكان ذهنُه الخصب - فضلاً عن هذه الدراسةِ العميقةِ - يفيضُ بثمارِ الاطلاعِ الشاسعِ فكانتْ عزلةً موفقةً .

---

(١) تلمسان : مدينة في الجزائر غنية بالينابيع والبساتين والكروم كانت بلدة رومانية ثم ازدهرت في عهد المرابطين .

(٢) تقع هذه المنطقة جنوب اقليم قسنطينة بالقرب من حدود تونس الغربية .

عودته إلى تونس

ولم يكنْ في برنامج ابن خلدون أن يكتب تاريخاً عاماً للخليقة بل كان قصده الأساسي أن يكتب تاريخ المغرب ودول البربر ولكنه عاد فعدّل برنامجه ولما كان ينقصه في مقامه المنعزل - في قلعة سلامة - المراجع الضرورية بعد أن أكمل المقدمة والأقسام المتعلقة بالعرب والبربر فكتب إلى السلطان أبي العباس يرجوه الصفح والإذن بالعودة فردَّ السلطان بالقبول والدعوة بالقدوم فغادرَ ابن خلدون أحياءَ بني عريف في رجب /٧٨٠/ هـ واجتازَ الصحراء ومر في طريقه بقسنطينة ثم قصد أبا العباس فحيّاه السلطان أجمل تحية وبالغ في اكرامه وقرّبه وشاوره في أمور ثم أمر بتوفير ما يجب لراحته من المسكن والمعاش ونزل ابن خلدون إلى مسقط رأسه تونس - لأول مرة منذ أن فارقها وهو حدث دون العشرين بعد أن غاب عنها سبعة وعشرين عاماً - ثم استقدم أسرته من أحياء بني عريف وأقام في سلام وأمن وسعةٍ عاكفاً على الدرس والبحث ولكنه ما إن استقر على هذا الوضع حتى شعر بالدسائس تعمل حوله والمؤامرات تُحاك وتنسج ضده وذلك لإيثار السلطان له ولكنه عكف على إتمام مؤلفه ونقحه وهذبه حتى أتم منه نسخة أولى رفعها إلى السلطان أبي العباس في أوائل سنة/٧٨٤/هـ ،غير أن هذه الحالة الآمنة التي تفيأ ابن خلدون ظلالها ما لبثت أن غشيها الكدر فما

زال الحاقدون والحاسدون في دسهم وسعاياتهم (١) حتى قرر ابن خلدون أن يترك لهم تونس متعللاً للسلطان بعزمه على أداء فريضة الحج فوافق السلطان على مضض (٢) وهو لا يعلم أنها هجرة نهائية عن الديار التونسية إلى الديار المصرية .

سفره إلى مصر

كان بالمرسى سفينة لتجار الإسكندريةِ فركب فيها وسافر إلى مصر فوصل الإسكندرية بعد أربعينَ ليلةً قضاها في البحر وكان قد مضى عشرُ ليالٍ على جلوسِ الملكِ الظاهر برقوق (٣) على عرش مصر فأقام بالإسكندرية شهراً لتهيئةِ أسبابِ الحج ومستلزماتِه فلم يُتَحْ له عامَئذٍ أن يحجَ فسافرَ إلى القاهرة فرأى فيها كما يقول عنها (حاضرةَ الدنيا وبستانَ العالم ومحشرَ الأمم) وما كان يصل إليها حتى أقبلَ عليه طلبةُ العلم من كل حدبٍ وصوبٍ يلتمسونَ منه الإفادةَ فجلسَ للتدريسِ بالجامعِ الأزهرِ ثم اتصلَ بالسلطانِ برقوق فأكرمَهُ ورفَع مقامَهُ وتوسَطَ له عند السلطان أبي العباس فسمحَ لزوجِهِ وأولادِهِ بالسفرِ إلى مصرَ بعد أن كان قد صدهم ليحمل ابنَ خلدون على الرجوع إليه .

---

(١) سعاياتهم : وشاياتهم .

(٢) مضض : وجع المصيبة .

(٣) الملك الظاهر برقوق : سيف الدين أول المماليك البرجيين كان متديناً كريماً /٧٨٦ - ٨٠٢/ هـ .

توليه القضاء (١)

تولى القضاء سنة /٧٨٦/ هـ بعدما اختصهُ السلطانُ بهذا الشرف فحكم بما أنزل الله وقام بما دفع إليه من ذلك المقامِ المحمود ووفى جهده لا تأخذه في الحقِ لومةٌ ولا يزغه عنه جاهٌ ولا سطوةٌ مسوياً في ذلك بين الخصوم آخذاً بحق الضعيفِ معرضاً عن الشفاعاتِ من الجانبين جانحاً إلى التثبتِ من سماعِ البيناتِ ، وهذا كله لا يُرضي أصحابَ النفوسِ الضعيفةِ فراحوا يسعون لعزلهِ من القَضاء .

غرق أسرته

وفي تلك الأثناء غرقت السفينةُ القادمةُ من تونس وكانت تحمل زوجَهُ وأولادَهُ وهدايا من سلطان تونس إلى سلطانِ مصر فاغتمَ ابنُ خلدون لهذه الكارثة التي حَلَّتْ به وأرادَ التخلي عن منصبه إلا أن أصدقاءَه المخلصين أشاروا عليه بأن يتريثَ حتى لا يُغْضبَ السلطانَ برفضهِ تلكَ النعمة الكبرى والتي يسعى الواشونَ والحاسدونَ والحاقدونَ لعزله عنها كي يولوا من يكونَ طوعَ بنانِهم غيرَ آبهينَ بحقٍ أو عدلٍ ولكن السلطانَ بحكمته وحسنِ تدبيرهِ ونفاذِ بصيرتِه أدركَ الحزنَ والغمَ والكدرَ الذي يخيمُ على ابنِ خلدون فأعفاه من منصبه وسَط غبطته (٢) وفرحة (٣) مبغضيه .

---

(١) تولى قضاء المالكية .

(٢) لم يحزن لعزله من القضاء لأنه كان يطلب ذلك .

(٣) فرح حاسدوه ومبغضوه لأنه أزيح من طريقهم .

عودته للتدريس

وعاد إلى ما تقرَّ به نفسُهُ وهو التدريسُ والتحصيلُ حتى كان عام /٧٨٩/ هـ فعزم على إتمام فريضة الحج فركب بحر السويس من الطور إلى ينبع ثم انتقل إلى مكةَ وقضى فرضَهُ ذلك العام وعاد في البحر أيضاً ولكن بطريق مختلف فنزل بساحلِ قوص في آخر الصعيدِ وركِبَ منها نهرَ النيلِ حتى وصلَ القاهرة ولقيَ السلطانَ فَسُرَّ بعودته..

توليه القضاء ثانية

وعاد إلى عملهِ المُفضَل وهو التدريسُ والتحصيلُ حتى كان عام /٨٠١/ هـ فتولى القضاءَ وصادفَ أن ذهبَ لزيارةِ بيتِ المقدس والتبركِ به والصلاة فيه لأن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا تشد الرحال إلا لثلاثةِ مساجد المسجدِ الحرامِ ومسجدي هذا والمسجد الأقصى) وقد شدَّ الرحالَ إلى المسجدِ الحرام ومسجدِ النبي عليه الصلاة والسلام أثناء تأديةِ فريضةِ الحجِّ وها هو يشدُّ رحالَهُ للمسجدِ الأقصى وعند عودته سعى المتضررون من أحكامه وقضائه فنصَّبوا ابن الخلال مكانَهُ وكان ذلك سنة /٨٠٢/ هـ .

توليه القضاء للمرة الثالثة

ثم تولى القضاء للمرة الثالثة ولكنهم يسعون عند السلطان لعزله وتوليةِ شخصٍ من المالكيةِ يُعرفُ بجمال الدين البساطي ويتم لهم ذلك ثم

يراجعُ السلطانُ فرج (١) بن برقوق نفسه وكان قد تولى ملك مصر بعد وفاة والدهِ السلطان برقوق ويعيدُ ابنَ خلدون للقضاءِ للمرة الرابعة وذلك سنة /٨٠٤/ هـ ويعود ابنُ خلدون إلى سابقِ عهدِه من العدلِ والإنصافِ ويبقى كذلك سنة وبعض الأخرى ثم يعيدون البساطي إلى ما كان ثم يخلعونه في السنة التي تليها ثم رجع ابن خلدون للقضاء للمرة الخامسة وذلك سنة /٨٠٧/ هـ ثم نصَّبوا الأقفهسي عندما شاعت أخبارٌ بأن ابنَ خلدون قد مات فلما ظهر أعادوه للقضاء للمرة الأخيرة .

ابن خلدون ومفاوضة تيمورلنك

عندما استولى تيمورلنك على حلب خَفَّ سلطانُ مصر فرجُ بن برقوق إلى دمشقَ للدفاعِ عنها ومعه جماعةٌ من العلماءِ والقضاةِ من جملتهم ابنُ خلدون رغم أنه كان معزولاً عن القضاء ولكن لهيبتهِ وعلو مكانتهِ بين الناسِ وسموِ شأنِه بين أقرانِه العلماء والقضاة كان ضمن الوفدِ الرسميِّ وهناك حاول الوفدُ إرضاءَ تيمورلنك ليرتد عن دمشق ولكنه أبى فقصده ابنُ خلدون بنفسهِ واستفاضَ معه في الحديث فأعُجبَ تيمورلنك بعلمهِ وسعةِ اطلاعهِ ورغبَ إليه أن يضع له كتاباً عن أفريقية ، فأجابه إلى طلبه . ولكن ابن خلدون رغم ما حظي به عند تيمورلنك إلا أنه لم يستطع أن ينقذَ دمشق من التقتيلِ والتهديم والتحريقِ .

---

(١) تولى الحكم بعد وفاة أبيه / ٨٠٢ هـ / .

بعده عن غمار السياسة وأعبائها

قضى ابنُ خلدونَ في مصرَ ثلاثةً وعشرينَ عاماً ولكنها كانت بين مراحلِ حياتهِ أقلَها أحداثاً مؤثرةً وأقلَها إنتاجاً وتأليفاً ، بالقياسِ إلى حياته السياسية التي قضاها بالمغرب والتي جاز خلالها معتركاً شاسعاً من المغامرات والدسائس الخطرة والمؤامرات التي حيكت ضده وعانى كثيراً من الخطوب والمحن ، كما نعم مراراً بمراتب النفوذ والسلطان والتي هي في الواقع صفحة ناصعة مشرقة من تاريخ المغرب في أواسط القرن الثامن للهجرة ، هذه الحياة المضطربة العاصفة استبدلها ابن خلدون في مصر بحياة هادئة وآمنة ففي مصر كان شخصية عادية لا علاقة له بشؤون الدولة العليا إلا في حادثة واحدة وهي قيامه بمفاوضة تيمورلنك في دمشق وهناك حادثة أخرى مؤثرة ولكن على الصعيد الإنساني وهي فقده لأسرته عندما غرقت السفينة التي كانت تحملهم من تونس وكان لهذه الحادثة الأليمة وقع كبير في نفسه إذ كاد أن يخرج منها محطماً لولا شدة تماسكه وقوة عزيمته .

أما عن الإنتاج الأدبي فقد رأينا ابن خلدون قد حقق أعماله وهي كتابه ديوان المبتدأ والخبر ومقدمته الرائعة قبل قدومه إلى مصر ولا نعرف عن وضع مؤلف جديد له في مصر ، غير أن الذي لا ريب فيه هو أن

وجوده في مصر على مقربة من المراجع الكثيرة والمخطوطات النادرة قد أتاح له فرصة التنقيح والتهذيب والإضافة في التاريخ والمقدمة .

سيرته الذاتية

لقد ترك ابن خلدون سيرةَ حياتِهِ مكتوبةً بقلمه وبذلك يكون أوّلَ مفكرٍ مسلمٍ يخصصُ لنفسهِ ترجمةً مستفيضةً تشغلُ كتاباً بأسره ، يحدثنا فيها عن أعماله وأحواله وسفره وترحاله وتنقله بين المغرب والأندلس ومصر ويعتبر ابن خلدون بحق شخصيةً من شخصيات التاريخ التي تستحق سيرتها التدوين والترجمة ، فقد لبث نحو ثلث قرن (١) شخصية محورية بارزة في الدولة المغربية يؤثر بأعماله ونفوذه بتطوراتها ومصائرها وتاريخه في الواقع قطعة من تاريخ هذه الدولة لا يمكن إغفاله .

ابن خلدون عند الغرب

يرتفع النقد الغربي بتراث ابن خلدون إلى أسمى مكانة فقد كان وقوف الغرب على تراثه اكتشافاً علمياً حقاً ، وكان أعجب ما في هذا الاكتشاف أن يظفر الغرب في تراث هذا المفكر المسلم بكثير من النظريات الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية التي لم يطرقها البحث الغربي إلا بعد ابن خلدون بعصور طويلة ، أَجَلْ لقد اكتشف النقد

---

(١) أكثر من ثلاثين عاماً .

الغربي في تراث ابن خلدون كثيراً مما ردده ميكافيللي (١) وفيكو (٢) ومونتسكيو (٣) وآدم سميث (٤) وأوجست كونت (٥) ، وكان المعتقد أن البحثَ الغربي أولُ من اهتدى إلى فلسفة التاريخ ومبادىء الاجتماع وأصول الاقتصاد السياسي فإذا بابن خلدون يسبقه بعصور ويغزو في مقدمته هذه الميادين ويعرض كثيراً من نواحيها ونظرياتها وعندما اكتشف الغرب هذه الحقيقة ارتقع بتراث ابن خلدون ونظمه في سلك الفلاسفة ومؤرخي الحضارة والاجتماع واعترف له بفضل السبق في هذه الاتجاهات .

مؤلفات ابن خلدون

كثيرة من أهمها (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) وأعظم أجزاء هذا الكتاب المقدمةُ التي تشتملُ على ستةِ فصول .

الأولُ في العمرانِ البشري على الجملةِ والثاني في العمران البدوي والثالثُ في الدول والخلافة والمُلْك والرابعُ في العمران الحضري والبلدان والأمصار والخامسُ في الصنائعِ والمعاشِ والكسبِ ووجوهِهِ والسادس في العلومِ واكتسابِها .

---

(١) ميكافيللي : مؤرخ وسياسي ايطالي /١٤٦٩ - ١٥٢٧ / .

(٢) فيكو : مؤرخ وفيلسوف ايطالي /١٦٦٨ - ١٧٤٤/ .

(٣) مونتسكيو : فيلسوف اجتماعي فرنسي /١٦٦٩ - ١٧٥٥ / .

(٤) آدم سميث : اقتصادي انكليزي /١٧٢٣ - ١٧٩٠/ .

(٥) أوجست كونت : فيلسوف فرنسي /١٧٩٨ - ١٨٥٧ / .

وفاته

توفي ابن خلدون في القاهرة سنة /٨٠٨/ هـ

خاتمة

بموتِ ابن خلدون انطوت صفحةٌ مشرقةٌ من صفحاتِ التاريخ الإسلامي ولكن تراثه ما زال فريداً بين آثار التفكير الإسلامي وما زال يحتفظ بكل قيمه رغم كل العصور ويتبوأ مقامه بين تراث التفكير العالمي ولكن ابن خلدون الذي اكتشفه الغرب وعكف منذ أكثر من قرن على دراسة آثاره ونقدها وتحليلها يضيع في الشرق حقه ويُغْمَرُ ذكره وينسى تراثه .


دار القلم العربي


دار القلم العربي

المجموعة العلمية للصغار

للصغار واليافعين

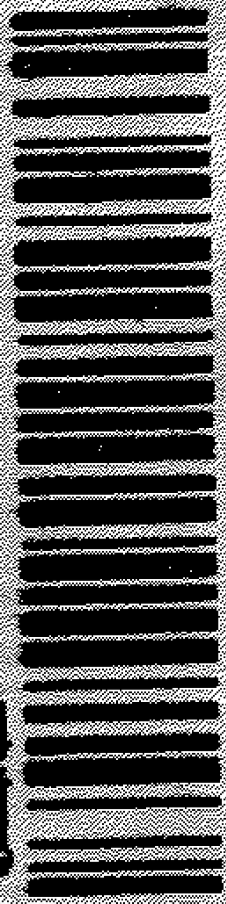
علماء المسلمين والعرب

١ - جابر بن حيان	٩ - الحسن بن الهيثم
٢ - الخوارزمي	١٠ - البيروني
٣ - الكندي	١١ - ابن سينا
٤ - الدينوري	١٢ - ابن عساكر
٥ - الطبري	١٣ - ابن رشد
٦ - الفارابي	١٤ - ياقوت الحموي
٧ - الهمداني	١٥ - ابن النفيس
٨ - المسعودي	١٦ - ابن خلدون

إننا في نهضتنا العربيةِ وفي وثبتنا الإسلاميةِ بحاجةٍ إلى انبعاثِ ماضينا المشرقِ الزاهرِ وبحاجةٍ إلى إحياءِ تراثِنا الفكريِ الزاخرِ والتأسي بما كان لنا في ميادينِ البطولةِ والحضارةِ والفكرِ من أعلامٍ خفاقةٍ وآثارٍ سباقةٍ وأعمالٍ مجيدةٍ مشهودةٍ، وهذا القولُ يجبُ أن لا تنصرفَ عنه الأقلامُ أو تصدفَ عنه الألسنةُ ولا يصحُ أن تملّهُ النفوسُ أو تستثقلهُ الأسماعُ، لأنه وصلٌ طبيعيٌ بين ماضٍ متألقٍ وحاضرٍ متوثبٍ ومستقبلٍ مشرقٍ وها نحنُ نضعُ بين يدي القارىء هذه النخبةَ من صفوةِ الأعلامِ الذين وهبوا أنفسَهم للعلمِ والمعرفةِ فابدعوا وكان نتاجُهم الفكريُ وعطاؤهم المنهجيُ وتفوقهمُ الفلسفيُ نبراساً يضيءُ لنا الطريقَ ومنارةً ترشدُنا إلى دروبِ التقدمِ والحضارةِ والمدنيةِ والرقيِ والازدهارِ في شتى ميادينِ الحياةِ.

فسارع عزيزي القارىء إلى أن تكون هذه المجموعة الجديدة من مجموعات فجر الهدى والإيمان والتي تتحدث عن علماء المسلمين والعرب والتي تصدرها دار القلم العربي بحلب تحفة في مكتبتك، لتعرف بها حياة هؤلاء الأعلام، ولتسير على منهجهم.





دار القلم العربي
للأطفال